

الهجاء والهجاؤون في الجاهلية

تأليف

الدكتور م. محمد عيسى

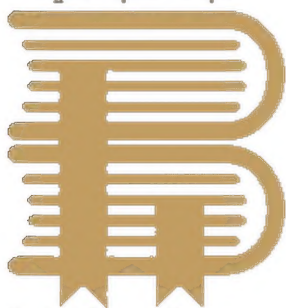
مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر

مكتبة الآداب بالجماهير ٢٢٧٧٧

الجهاد والجهادون في الجاهلية

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بتدیل < mktba.net

تأليف

الدكتور م. محمد عيسى
مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر

مكتبة الآداب بالجماميز ٢٧٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب في تاريخ فن الهجاء في الشعر العربي ، نحوت فيه نحواً جديداً في دراسته وتحديده ، فجعلت فيه أقساماً لم يتعارف النقاد على إدخالها فيه واعتبارها منه ، كالهجاء السياسي والهجاء الأخلاقي والاجتماعي .

ولما كان الموضوع طويلاً متشعباً النواحي ، فقد رأيت من الأفضل أن أخرجه أجزاء مستقلة ، وهذا هو الجزء الأول منه في العصر الجاهلي . وقد قدمت للكتاب بتحديد موضوع الدراسة مبيناً وجه هذا التحديد . ولم أبدأ من توضيح بعض المسائل العامة المتصلة بالعصر ، كالكلام عن الشعر ، وارتباط السحر به عامة وبالهجاء خاصة ، والكلام عن صلة الشاعر بالقبيلة ، وعن القيم الأخلاقية والاجتماعية في ذلك العصر . فقد رأيت فن الهجاء من أكثر فنون الشعر اتصالاً بالحياة وبالواقع ، ورأيت أن الدارس لا يستطيع أن يتعمقه من غير أن يوضح العصر وينير جوانبه .

وقد أدخلت في هذا الجزء عصر النبوة والشعراء المخضرمين فجعلتهم جاهلين باعتبار نشأتهم وبيئتهم .

وكان سبيلي فيه وفيما يليه من الأجزاء أن أفرد باباً لكل قسم من أقسام الهجاء ، ثم أتبعه بترجمة لشاعر أو أكثر من شعرائه البارزين . وقد بذلت الجهد في تقريب الشعر العربي إلى الذوق ، بتلخيص جمل من روائعه ، تلخيصاً تبقى فيه الصور ، ويُستبعد فيه الغريب من الكلمات والتراكيب ، التي تحول بين طلاب الأدب وبين تذوقه ، ورجوت أن أنجح في تحبيبه إلى الناس ، وأحرك فيهم الشوق لقراءة الشعر نفسه في مراجعته . ولست أزعم أني قد احتفظت في هذا التلخيص بكل ما في الأصل من جمال ، فن الواضح أن شطراً

كبيراً من جمال الشعر يرجع إلى الوزن ، وإلى نظم الألفاظ في هذا النسق
الذي أصبح الكلام بفضل شعرا ، وأصبح قائله شاعراً . ولست أكنى أقنع بأن
أكون قد قاربت الأصل ، وأرى نفسي قد وفقت إن كنت قد استطعت
الاحتفاظ بروح الشعر وبلهجة من جمال صورته ، وإن كنت قد نجحت
في كشف هذا الستار الكثيف من الألفاظ الغريبة والاشارات المهمة عن
جوهره الدفين ، ونفض غبار الزمن وأكفان الأجيال عن جماله الأصيل .

والله الموفق والمستعان ؟

محمد مسبين

رمل الاسكندرية في ٢ يولية سنة ١٩٤٧

ماهوالمجاء

اصطلح الناس منذ القدم على أن الهجاء فن الشتم والسباب وهو نقيض المدح كما كان يقول قدامة . وهذا تعريف واضح لا يحتاج إلى شرح . ولكننا مع ذلك نريد أن نناقشه وأن نضع لهذا الفن حدوده من جديد . بل نحن نريد أن ننظر في تقسيم الشعر العربي جملة لنرى إلى أي حد كان شيوخنا الأقدمون بمؤلفين . فاحل عقم دراساتنا الأدبية راجع إلى خطأ أساسي في تقسيم الفنون الأدبية وتبويبها .

فلنبداً إذن باستعراض الذين تصدوا لتقسيم الشعر العربي :

أقدم من تعرض لتبويب الشعر العربي فيما وصل إلينا أبو تمام (٢٣١ هـ) حين رتب مختاراته المشهورة بالحماسة في عشرة أبواب هي الحماسة ، والمراثي ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ، والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، ومزمة النساء .

ثم جاء من بعده قدامة بن جعفر (٣١٠ هـ) فكان أول من حدد أقسامه على نسق على أخذه الناس عنه وتأثر به كثير من النقاد الذين خلفوه .

قسم قدامة الشعر إلى ستة أقسام في كتابه « نقد الشعر » وهي : المدح ، والهجاء ، والنسيب ، والمراثي ، والوصف ، والتشبيه . ونجد تقسيماً آخر في كتاب ينسب إليه هو (نقد النثر) يجعل فيه الشعر أربعة أصناف : المدح والهجاء والحكمة واللو . ويجعل لكل صنف منها فروعا تتفرع منه . فمن المدح المراثي والافتخار والشكر واللطف في المسألة . ومن الهجاء النهم والعتب والاستبطاء والتأنيب . ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ . ومن اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون .

ثم خلف من بعده أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ) فألف كتابه (ديوان المعاني) جمع فيه عيون الكلام من شعر ونثر وجعله اثني عشر بابا : الباب الأول في التهاني والمدائح والافتخار. والثاني في الحُصَال المحمودَة، ويمكن أن نضيفه إلى الأول وندخله فيه . والثالث في المعاتبات والهجاء والاعتذار . والرابع في الغزل وأوصاف الحسان . والأبواب الستة التي تلي ذلك كلها في الوصف مقسما بحسب موضوعاته . فالخامس في النار والطبخ وأنواع الطعام وصفات الشراب . والسادس في السماء والنجوم والشمس والقمر . والسابع في السحاب والمطر والثلوج والمياه وصفات البساتين . والثامن في السلاح والحرب . والتاسع في القلم والخط والكتاب وصفة البلاغة . والعاشر في الخيل والإبل والسير والفلوات والسرّاب وصفة سائر الحيوان . أما الباب الحادي عشر فهو في ذكر الشباب والمشيب والعلل والموت والمرأى والتعازي والزهد . والباب الثاني عشر وهو الأخير في صفات أشياء مختلفة لم يرها داخلَة في قسم من الأقسام السابقة . وبجمل هذا التقسيم فيما نرى أن الشعر خمسة أقسام مديح وهجاء وغزل ووصف ورتاء . وهو نفس التقسيم الذي سبق إليه قدامة في (نقد الشعر) . وإجمال هذه الأبواب في خمسة أقسام شيء لم نأت به من عندنا ولكن أباهلال نفسه قد أشار إليه في كتابه حين قال ^(١) « وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمرأى . حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا وهو الاعتذار فأحسن فيه » .

وبلى هؤلاء ابن رشيق (٤٥٦ هـ) . روى آراء الذين سبقوه في تقسيم الشعر ^(٢) فنسب التقسيم الذي وجدناه في نقد النثر بنصه وتفصيله لأستاذه عبد الكريم وروى تقسيم قدامة في نقد الشعر مع شيء من التعديل . ألحق التشبيه بالوصف، فحذف القسم السادس، وجعل الفخر مكان المرأى . ولما أراد

(١) ديوان المعاني ج ١ ص ٩١

(٢) النعمدة ج ١ ص ٩٩ - ١٠٣ ، ص ١٥٧ - ١١٠

بعد ذلك أن يتكلم عن أبواب الشعر في شيء من التفصيل يجعله تسعة أقسام :
النسيب ، والمدح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستئجاز ، والعتاب ،
والوعيد والإنذار ، والهجاء ، والاعتذار . فهو قد زاد الافتخار وقدامة يدخله
في المدح ، وزاد باب الاقتضاء والاستئجاز ، وباب العتاب ، وباب الوعيد
والإنذار ، وقدامة يدخلها في الهجاء . ثم لم يجعل الوصف قسما ، وزاد باب
الاعتذار وهو القسم السادس الذي أشار العسكري إلى أن النابغة قد استحدثته .
هذا عرض سريع للذين تصدوا لتقسيم الشعر العربي . فلنناقش آراءهم
في إيجاز .

أما أبو تمام فهو يخرج الأبيات في كثير من الأحيان عن أبوابها إلى
أبواب لا تليق بها . وقد لاحظ هذا الخلط بعض المتقدمين كصاحب اليتيمة^(١) .
ولعل البحترى قد تنبه لهذا حين ألف حماسته فجاوز بأبوابها المائة والسبعين —
وقد أعرضنا عن تقسيمه فلم نشر إليه لأنه كما ترى لا يصلح أن يكون
تقسما عليا — وفي حماسة أبي تمام عيب آخر . فهو يسلم الأبيات من القصيدة
فيضعها في قسم من أقسامه ، دون نظر إلى وحدة القصيدة وغرضها جملة .
والواقع أن أبا تمام لم يكن ينظر إلى التقسيم بمقدار ما كان يهتم بجودة الاختيار
وسهولة الحفظ والتعليق . ولذلك كانت مختاراته قصيرة . وقد جمعت قبله
مختارات من الشعر العربي كالجمهرة والمفضليات والأصمعيات ، فكان أصحابها
يروون القصائد برمتها . ومع ذلك فأبو تمام أصلح حالا من البحترى . فقد كان
ربما اختار البيت أو البيتين فوضعهما في قسم من هذه الأقسام المترامية التي
لا تحصرها الذاكرة . ونحن مع ما نحرص على الإيجاز لانرى بدا من أن
تتقدم ببعض الأمثلة على خلط أبي تمام في تقسيمه . فهو مثلا يذكر في باب
الحماسة أبيات جعفر بن علبه الحارثي^(٢)

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣ : ٣٦٦ نقلا عن اليتيمة ٣ : ٤١٦

(٢) ص ١١

هو اى مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثماني بمكة موثق
والواقع أنها ليست حماسة خالصة . فالنسيب غالب عليها . ويذكر في هذا
الباب أبيات أمية بن أبي الصلت (١)

غذوتك مولودا وعلتك يافعا تعل بما أدنى إليك وتنهل
وهي ليست حماسة وربما كانت أليق بباب الهجاء أو الأدب . وكذلك
القطعة التي تليها (٢)

رييته وهو مثل الفرخ أعظمه أم الطعام ترى في جلده زغبا
ويذكر في باب المراثي قصائد قيلت في مناسبة قتل ، وهي ليست من
المراثي في شيء ، ليس بينها وبين المراثية من صلة إلا المناسبة التي قيلت فيها .
فمن ذلك أبيات أم الصريح الكندية (٣)

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعوا بجيشان من أسباب مجد تصرما
ومما ذكره في الرثاء وليس منه أبيات أبي الشغب العبسي في سجن
خالد القسرى (٤)

ألا إن خير الناس حيا وهالكا أسير ثقيف عندهم في السلاسل
أما باب الأدب فلعله يقصد فيه إلى الشعر الحكيم (نسبة للحكمة)
أو الشعر التهذيبي ، ولكنه لا يفرق فيه بين الحكمة التي تصدر عن القصد إلى
النصح والتهذيب ، وبين الهجاء الذي يصدر عن الغضب والاشتمزاز والقصد
إلى التشفى والانتقام . فما جاء في باب الأدب وهو هجاء في حقيقة الأمر
أبيات القريعي (٥)

متى ماير الناس الغنى وجاره فقير يقولوا عاجز وجليد
ومنها أبيات العباس بن مرداس (٦)
ترى الرجل النحيف فتزدرية وفي أثوابه أسد مزير

(٢) ص ٣١٦

(٤) ص ٣٨٤

(٦) ج ٢ : ٢١

(١) ص ٣١٤

(٣) ص ٣٨٦

(٥) ج ٢ : ١٨

وكذلك أبيات مالك بن حريم الهمداني^(١)

أنبتت والأيام ذات تجارب وتبدى لك الأيام مالست تعلم
بأن ثراء المال ينفع ربه ويثني عليه الحمد وهو مذموم
وقد اضطر أبو تمام إلى إدخال شعر الخمر في هذا الباب^(٢) وكان حقه أن
يكون في باب مفرد له ، ذلك بأنه لم يجعل في كتابه مكانا لشعر اللهو والمجون.
فهو لم يستوف في تقسيمه كل أبواب الشعر .

أما باب الأضياف والمديح فهو لا يصلح أن يكون قسما من أقسام الشعر
أصلا ، لأن تفريقه على الأقسام الأخرى ممكن ، فعظمه يدخل في الفخر فهو
حماسة ، مثل أبيات قيس بن عاصم المنقري^(٣)

إني امرؤ لا يعترى خلقي دنس يفسده ولا أفن
ومثل أبيات شقران مولى بني سلامان بن سعد بن هذيم^(٤)

لو كنت مولى قيس عيلان لم تجد على لإنسان من الناس درهما
ولكنني مولى قضاة كلها فليست أبالي أن أدين وتغرما
ومثل أبيات عمرو بن الإطنابة^(٥)

إني من القوم الذين إذا اتدوا بدءوا بحق الله ثم النازل
وبعض هذا الباب يدخل في الهجاء مثل أبيات عروة^(٦)

إني امرؤ عافى إنائي شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
ومثل أبيات حطائط بن يعفر^(٧)

تقول ابنة العباب رهم حربتنا
ومثل أبيات جريرة بن النضر^(٨)

قالت طريفة ماتبقى دراهمنا وما بنا سرف فيها ولا خرق

(٢) ج ٢ ص ٨٥ - ٩٠

(٤) ج ٢ ص ٢٧٤

(٦) ج ٢ ص ٣٠١

(٨) ص ٣٤٤

(١) ج ٢ ص ٣١

(٢) ج ٢ ص ٢٦٣

(٥) ج ٢ ص ٢٨٩

(٧) ج ٢ ص ٣٤٢

ومثل قصيدة عارق الطائي (١)

ألا حتى قبل البين من أنت عاشقه ومن أنت مشتاق إليه وشائقه
أما باب الصفات فهو قصير جدا لا يستغرق أكثر من ثلاث صفحات .
مع أنه يتسع لأكثر من هذا . وكان حق الباب الذي يليه (باب السير
والنعاس) أن يضم إليه .

أما باب الملح فبعضه هجاء ، وبعضه وضع للجد موضع الهزل ؛ فهو لاحق
بالهجاء . فمن الهجاء قول امرأة (٢)

فقدت الشيوخ وأشياهم وذلك من بعض أقواله
ترى زوجة الشيخ مغمومة وتسمى لصحبته قالية
ومن أمثله وضع الجد موضع الهزل (٣)

فإنك إذ ترى عرصات جُمِّل بعاقبة فأنت إذا سعيد
لها عينان من إقط وتمر وسائر خلقها بعد الثريد

ومنه :

يارب إن قتلتها فعدلها فلن تموت أو تجيد قتلها

أما باب مذمة النساء وهو آخر أبواب الكتاب فكله داخل في الهجاء .
ومع ذلك فقد كان أبو تمام موفقا من بعض النواحي على ماله من فضل
السبق إلى التقسيم . فما وفق فيه جعل الحماسة قسما من أقسام الشعر . وقد
فرق الذين جاءوا بعده هذا الباب في عدة أقسام ، فجعلوا منه المديح والفخر
وشعر الحروب . ونظرة أبي تمام إلى هذه الأقسام مجتمعة في باب واحد
أشمل وأوضح . فالواقع أنها تصدر جميعا عن الحماسة والإعجاب ، وهي تصور
المثل الأعلى للشاعر ممثلا في ممدوحه أو في نفسه وقبيلته أو في فكرة من
الأفكار . وقد كان لأبي تمام بعض العذر في هذا الخلط لأن معظم مختاراته
جاهلية ، والشعر الجاهلي مختلط ، تجد فيه النسيب والثناء والحماسة والهجاء في
القصيدة الواحدة .

كان اعتماد أبي تمام في تقسيمه على فطرته السليمة وإحساسه الفني، أما قدامة فقد اعتمد على عقله.. وكان أبو تمام شاعرا صاحب ذوق، أما قدامة فكان أعجميا صاحب منطق وفلسفة. أُلِفَ في الفلسفة كتاب السياسة وفي المنطق صناعة الجدل. لذلك كان تقسيمه للشعر متأثرا بهذه الثقافة الفلسفية. فهو يطبق على الشعر صناعة المنطق من ناحية، ويخضعه لقوانين الأخلاق من ناحية أخرى. يبدأ تقسيمه بالمدح ويعتبره أصلا للفنون الأخرى، فالهجاء عنده ضد المدح، والثناء مدح ولكن الشاعر يخلط به شيئا يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أو عدمنا به كيت وكيت أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت، وهو يعني أول ما يعني بتعريف الفن الذي يتحدث عنه تعريفا منطقيا سليما في أقل لفظ ممكن، ثم يأخذ في شرح تعريفه، فإذا فرغ من ذلك استخلص من التعريف ما ينبغي أن يتوافر في هذا الفن من الشروط والأركان، ويمضي في ذلك تاركا نفسه إلى حيث يسوقه هذا المنطق. فهو يقول في النسيب بعد التعريف. (وإذ قد بان أن الذي قلناه على ما قلناه، فيجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهلك في الصبابة، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة). ويقول في المدح (إنه لما كانت فضائل الناس من حيث أنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك، إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا) وعلى هذا الأساس الأخلاقي المحدد بحدود منطقية عنيفة تدور الأقسام الثلاثة: المدح والهجاء والثناء. ومادام الهجاء عنده ضد المدح فينبغي إذاً أن يعتمد على نقض الفضائل النفسية. وكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى. ثم يقول (ثم ينظر أقسام المديح وأسبابه، فيجري أمر الهجاء بحسبها في المراتب والدرجات والأقسام. ويلزمه ضد المعنى الذي يدل عليه. إذ المديح ضد الهجاء) ومادامت المديحة لافرق بينهما إلا أن

الأولى لهالك والآخرى لحي ، فيجب أن تعتمد على الفضائل النفسية . فهو يقول في الرثاء (وإذ قد تبين بما قلنا أننا لا فضل بين المديح والتأبين إلا في اللفظ دون المعنى ، فإصابة المعنى به ومواجهة غرضه هو أن يجرى الأمر فيه على سبيل المديح) وواضح من الأمثلة التي قدمناها من كتابه ما يلوح على دياباجته من المنطق العنيف الذي يفسد الأسلوب ، وواضح أيضاً أن رجلاً كهذا لا صلة له بالشعر بل بالفن جملة . فإنما هو صاحب منطق وأخلاق . والكلام في الشعر يعتمد أول ما يعتمد على الذوق . وقد ذكر ياقوت في ترجمته أنه كان بارعاً في الحساب . والواقع أن براعته في الحساب تعلل لنا طريقة فهمه للشعر فهو يفهمه فهماً حسابياً . فاليست من الشعر لا يدل عنده إلا على أرقام ، فهذا بيت في المدح قد اجتمعت فيه الفضائل الأربع فهو خير من بيت آخر فيه فضيلتان أو ثلاث . وهو يمثل للهجاء الجيد بقول الشاعر :

إن يغدروا أو يفجروا أو ييخلوا لا يحفلوا
وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا

انظر إلى هذا الرجل الذي يفهم الشعر بالأرقام ، ويزنه بموازين الأخلاق . كيف يتصور الجمال فيهما . يقول (فمن جودة هذا الهجاء أن الشاعر تعتمد به أصداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم ، لأن الغدر ضد الوفاء ، والفجور ضد الصدق ، والبخل ضد الجود ، ثم أتى بعد ذلك بضد أجل الفضائل وهو العقل حيث قال : وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا . لأن هذا الفعل إنما هو من أفعال أهل الجهل والبهيمية والقحة التي هي من عمى القوة المنيرة كما قال جالينوس في أخلاق النفس) وما ظنك برجل يعرف الشعر في أول كتابه بقوله (هو كلام موزون مقفى يدل على معنى) .

كان من سوء حظ النقد أن قدامة أول من ألف فيه كتاباً فتأثر به كثير من النقاد الذين جاءوا بعده . وحتى أولئك الذين كانوا ينفرون من المنطق والفلسفة وإيقامها في الدراسات الأدبية لم يستطيعوا أن يتخلصوا من أثر

قدامة ويتحرروا من قيوده . فهذا أبو هلال العسكري وهو شاعر، يعتمد في كتبه في البلاغة والنقد على الذوق ، قد تأثر بكتاب قدامة في نقد الشعر، برغم ما يبدو من أنه نافر من أسلوبه في دراسة الشعر . هو يتجافى في (ديوان المعاني) عن تقسيم قدامة ، ويتبعد عن التحديد المنطقي العنيف في التعريف والتقسيم ، ويضع بين يدي القارئ كثرة من النصوص شعرا ونثرا ، يروض بها ذوقه ، ويصقل ملكاته . ولكنه مع ذلك واقع تحت تأثير قدامة . نحس هذا في كثير من مواضع كتابه . فهو يفرد من ديوان المعاني بابا لخصال الإنسان المحمودة من الجود والشجاعة والعلم والحلم والحزم والعقل وما يجري مع ذلك . وواضح من عنوان هذا الباب أنه ينساق من غير أن يشعر إلى نظرية الفضائل الأربع عند قدامة . وتأثره بهذه النظرية يبدو في مواضع أخرى من كتابه . فهو يقول في بيت أبي العميشل^(١) :

فاصدق وعف وجد وأنصت واحتمل واصفح وكاف ودار واحلم واشجع
(وقد جمع هذا البيت جميع خصال المدح) مع أن البيت كما ترى نظم لا جمال فيه . ويقول^(٢) بعد أن يروى أبياننا للبحترى (لم يبق وجه من وجوه المدح في الجود والشجاعة وتصوب الرأي ومضاء العزيمة والدهاء وشدة الفسك إلا قد اجتمع ذكره في هذه الآيات . ولم أعرف أحدا يستوفي مثل هذه المعاني في أكثر مدائحها إلا البحتري) ويقول في باب الهجاء^(٣)

وأبأغ الهجاء ما يكون بسبب الصفات المستحسنة التي تخص النفس من الحلم والعلم والعقل وما يجري مجرى ذلك . وليس الهجاء بقبح الوجه وضؤولة الجسم وقصر القامة وما في معنى ذلك بليغا مرضيا . وروى في بعض مواضع من كتابه أمثلة قدامة يعينها . فروى في باب المدح أبيات الخطيئة^(٤) .

يسوسون أحلاما بعيدا أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجدة

(٢) ص ٥٧

(١) ج ١ ص ٣٨

(٤) ج ١ ص ٣٨

(٣) ج ١ ص ٢٠٢

ويقول بعدها (ولعمري إن معاني هذه الآيات أبكار ليس للعرب مثلها . وكل من تناولها فإنما استعارها من الخطيئة . وهي جامعة لخصال المدح كلها) ويروى في باب الهجاء بيتي قدامة اللذين أشرنا إليهما منذ قليل (١)
 إن يغدروا أو يفجروا أو ييخلوا لا يحفلوا
 وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا
 ويقول (هذا أبلغ من ذكر الفروج والقول الفاحش المقذع في الأمهات) وبعد فتقسيم أبي هلال يمكن أن يرد آخر الأمر إلى تقسيم قدامة ، فالباب الأول والثاني في المديح ، والثالث في الهجاء ، والرابع في النسيب ، والأبواب الستة التي تليه في الوصف ، والباب الحادى عشر في الرثاء ، والباب الأخير في أشياء متفرقة رآها غير داخلة في باب من أبواب كتابه .

ثم جاء بن رشيق وكان شاعرا صاحب ذوق ممتاز يتجلى في حسن اختياره وفى جمال أمثاله التي أوردتها في كتاب العمدة ، فسار على نهج قدامة وتأثر به تأثراً عميقاً ، فهو يردد في باب المديح كلام قدامة في الفضائل النفسية ، ويمضى على آثاره مبينا ما يفرغ من كل فضيلة منها ، ثم لا يزال يروى آراء قدامة مستقصيا ، حتى يذكر ما ينتج من تركيب بعضها مع البعض ، فالصبر على الملأت ونوازل الخطوب والوفاء بالإيعاد يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة ، والبر وإنجاز الوعد وما أشبه ذلك يحدث من تركيب العقل مع السخاء . . وهكذا إلى أن ينتهى من كل الأمور المنطقية التي تنتج عن هذا التركيب . وكل هذا كلام لا موضع له في النقد .

ولم يقف تأثره بقدامة عند هذا الحد من رواية بعض آرائه واستحسانها ، بل تأثر به في تقسيم الشعر ، فجعل المدح أصلا لتقسيمه كما جعله قدامة . فالفخر عنده هو المدح نفسه غير أن الشاعر يختص به نفسه ، والرثاء مدح أيضا ولكن الشاعر يخلط به ما يدل على أن المقصود به ميت ، والهجاء يعتمد على

المدح أيضا فهو ضده لا يختلف في أصوله عنه ، فليس بينهما من فرق إلا أن الشاعر ينقض في الهجاء ما يقال في المدح ، فهو مثله يعتمد على الفضائل النفسية الأربع . وكلما كثرت أعداد المدح في الشعر كان أهجى .

وابن رشيق إن كان أعجميا كقدامة فهو أصنى ذوقا وأقوم طبعا . فهو صاحب شعر مليح واختيار تتجلى فيه سلامة الذوق . وفي كتابه التفاتات جميلة وملاحظات فنية حسنة . وإنما جنى عليه اعتياده على قدامة في كثير من المواضع ، وفنتته بمنطق أرسطو الذى كان بدع العلماء والمتعلمين في ذلك الحين . ومع ذلك فأكثر ما يعتمد ابن رشيق في كتابه على الرواية ، فهو يعدد آراء الذين سبقوه من النقاد . ويستطيع القارئ أن يستخلص رأيه من بين هذه الروايات بما يعقب عليها مؤيدا أو معارضا ، منها إلى مواضع الخطأ والانحراف عن الصواب .

ولسنا أول من يأخذ على قدامة أسلوبه في دراسة الشعر وتقسيمه . فهذا هو الآمدى يتعرض له في غير موضع من كتاب الموازنة ، فيسخر آراءه ويهجنه ^(١) . بل لقد ألف كتابا في الرد على (نقد الشعر) سماء (تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر ^(٢)) .

لم يقع هؤلاء النقاد على الصفة الأساسية البارزة التي تميز الشعر وهي العاطفة . وعليها وحدها يجب أن يقوم التقسيم ، وخصوصا في الشعر العربي الذى هو في معظمه غنائى . فليس الشعر في حقيقة الأمر إلا إبرازا للعواطف الإنسانية وتصويرا لانفعالات الشاعر وخلجات قلبه . فهو - كما يقول ويردزويرث - فيضان من شعور قوى نبع من عواطف تجمعت في هدوء . فالعاطفة - كما يقول بول فاليرى - هي أول الشعر وآخره ، وأصل الفن وغايته . فالذى يتعرض لتقسيم الشعر يجب أن يعود إلى الأصل الذى صدر

(١) ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) معجم الأدباء ج ٨ : ٨٦

عنه ، وأن يرد هذا الإنتاج إلى مصدره الأول . والواقع أن تقسيم الشعر - والغنائى منه بنوع خاص - مهمة شاقة ليست بالهينة . فموضوع الشعر واسع جدا سعة الحياة نفسها ، وألوانه متعددة تعدد أهواء النفس البشرية وخلجاتها ، ثم هو فى بعض الأحيان غامض مختلط يصعب تحليله وتمييزه وإرجاعه إلى عاطفة خاصة ، فقد يكون مصورا لمزاج من عواطف مختلفة بل ومتناقضة فى بعض الأحيان . وهذا التناقض والغموض قد يكون فى نفسه مصدر جمال ، فالشعر متعدد الألوان والأشكال تعدد ألوان النفوس التى صدر عنها ، حتى ليكاد شعر كل شاعر أن يكون قسما قائما بنفسه مختلفا عما عداه من الأقسام . والناظر فى كتب النقد الغربى يجد أنه لم يبرأ من الخلاف الذى قدمنا بعض صورته عند نقادنا . ونحن نكتفى فى هذا المقام بتحديد القسم الذى سندرسه فى هذا الكتاب وهو الهجاء .

الهجاء أدب غنائى يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء . وسواء فى ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق والمذاهب . فالهجاء لا يصطنعه - كما يقول برونوتير^(١) - إلا وسيلة للتعبير عن طريقته فى الحس والتفكير ، معارضا طرق الآخرين فى حسهم وتفكيرهم ، تلك الطرق التى تثير بالمعارضة ذاتها غضبه أو سخطه واستشعاعه أو خوفه واحتقاره أو استهزائه . وواضح أننا قد تعمدنا فى تعريف الهجاء أن لا نجعله شعرا غنائيا فهو أدب غنائى أى أنه شامل للشعر والنثر . فهو غناء أولا وتصوير لعواطف شخصية ، وليس الشعر هو السبيل الوحيد لمثل ذلك . ونحن فى هذا التعريف نخالف المشهور عند نقاد العرب من وجهين . الوجه الأول أننا نجعله شاملا للشعر والنثر والمشهور أنه لا يكون إلا شعرا ، والوجه الثانى أننا نجعل موضوعه شاملا للفرد والجماعة والأخلاق والمذاهب والمشهور عندهم أنه مقصور على الأفراد . ولكننا لانعدم ما يؤيد مذهبنا عند نقاد العرب ومؤلفيه . فالجاء

يسمى بعض رسائله النثرية هجاء فيقول في مقدمة كتاب الحيوان^(١) وعبثني بكتاب الأوفاق والرياضيات . . . وبكل ما كتبت إلى إخواني وخطائي من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوفيق ، ومن هجاء لا يزال ميسمه باقيا ، ومديح لا يزال ناميا . . الخ ، وصاحب العقد الفريد يجعل في القرآن هجاء فيقول^(٢) « قال الله تبارك وتعالى في هجو المشركين (والشعراء يتبعهم الغاؤون . الآية) » . وأبو هلال العسكري يروى في باب الهجاء شعرا أخلاقيا لا يدخل في الهجاء بمعناه الضيق عند قدامة وأشياعه . ويذكر في هذا الباب نثرا مسجوعا في أغلب الأحيان ولكنه يسميه ذما .

فمن أمثلة الهجاء الأخلاقي الذي ينصب على الجماعة ولا ينصب على الفرد ما يروى لنفسه^(٣)

كم حاجة أنزلتها بكريم قوم أو لثيم
فإذا الكريم من اللثيم أو اللثيم من الكريم
سبحان رب قادر قد البرية من أديم
فشریفهم ووضعهم سيان في شرف ولوم
قد قل خير غنيهم فغنيهم مثل العديم
وإذا اختبرت حميدهم ألفيته مثل الذميم
لا نفع فيه للصغيـر من الأمور ولا العظيم

ومن أمثلة الهجاء نثرا قول بعضهم لرجل استضاف بخيلا (نزلت بواد غير ممطور ، ورجل غير مسرور ، فأقم بندم ، وأرحل بعدم) . وقول أعرابي دخل بغداد (فإذا ثياب أحرار على أجساد عبيد ، إقبال حظهم إدبار حظ السكرم ، شجر فروعه عند أصوله ، شغلهم عن المعروف رغبةهم في المنكر^(٤)) والنويري في نهاية الأرب يجعل النثر والهجاء الأخلاقي في باب الهجاء فيقول^(٥)

(١) ج ١ : ٣
(٢) ج ٦ : ١٤٥
(٣) ديوان المعاني ١ : ١٩١
(٤) ديوان المعاني ٢ : ١٠٣
(٥) ج ٣ : ٢٦٩

« وإن للشعراء والبلغاء في الذم والهجاء نظماً ونثراً سنورد منها طرفاً ». وهو يروى أبيات أبي هلال السابقة ويجعلها « مما هجى به أهل الوقت على الإطلاق ». ويجعل من الهجاء قسماً هو هجاء أخلاقى ، كهجاء الحسد والسعاية بالبغي والغيبة والنميمة »

وبعد فدلّول الكلمة اللغوى واشتقاقها يعيننا على ما نذهب إليه ويتسع له . فالمرأة تهجو زوجها وتهجو صحبته أى تذمه وتشكو منه . وقد ورد في الحديث (اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وهو يعلم أنى لست بشاعر فافهمه اللهم والعنه عدد ما هجانى ، أو مكان ما هجانى) والهجاء عند الزمخشرى مأخوذ من هجاء الحروف فهو تعديد للعياب . فالمرأة تهجو زوجها هجاء قبيحاً إذا ذمت صحبته وعددت عيوبه . وهو تفريع غريب . فالكلمة جاهلية قديمة ، وهى بأن تكون سابقة للهجاء بمعنى تعديد حروف الكلمة أشبه . على أنه إن كان كل ما لحظ فى نقلها هو التعميد فلم لم يكن تعديد المفاخر والفضائل هجاء أيضاً ؟ الواقع أن فى المادة معانى أخرى هى أقرب لأن تكون أصلاً للمعنى الأدبى . فالهجة والهاجة الضفدع وهجو يومنا اشتد حره . وفى اليائى من المادة هجى البيت هجياً انكشف ، وهجيت عين البعير غارت . ومما هو قريب من المادة الهياج بمعنى الغضب والقتال والحرب ، والهوج بمعنى الحق والطيش والتسرع ، والهوجاء الريح التى تقتلع البيوت .

ونحن لا نستطيع أن نرجح معنى من هذه المعانى على أنه أصل للمادة فقد يكون الهجاء بمعناه الأدبى مأخوذاً من الضفدع فهو قبيح الشكل بشع الصوت . وقد يكون مأخوذاً من اشتداد الحر فيه معنى التنكيل والتعذيب . وقد يكون مأخوذاً من الأصل اليائى فهو يكشف عن سيئات المهجو . ولعل الهجاء بمعنى تعديد حروف الكلمة مأخوذ من المعنى الأخير ، فالذى يعدد حروف الكلمة يكشف عنها كما تكشف الريح عما بداخل البيت . معانى المادة على كل حال تدور حول البشاعة والشدة والنكال والكشف . والكلمة مرنة

تحتمل الزيادة . وليس هناك ما يمنع من توسيع مدلولها الأدبي بحيث يشمل غيرها من المعاني القرية جداً من المعنى الأول . وهى وإن كانت قد أخذت شكلاً ثابتاً بهذا المعنى الذى اصطلح عليه القدماء فما ينبغى لها أن تجمد على هذا الشكل إن فرض عليها تطور الفنون الأدبية أن تتسع أو تضيق . والواقع أن الجاهليين حين قصروا الهجاء بمعناه الأدبي على شكله الشخصى كانوا محقين . فهم لم يعرفوا من أنواع الهجاء إلا هذا اللون . وقد نشأ الهجاء عندهم كما نشأ عند غيرهم من الأمم تنديداً بالمعائب الشخصية أول الأمر . ثم تقدم الهجاء عندهم كما تقدم عند غيرهم ، وارتفع عن الأحقاد الخاصة إلى عنصر الحياة العامة ، فكان منه السياسى ، وكان منه الأخلاقى ، وكان منه الدينى . ولما ارتقى النثر وأخذ مكانه بين الفنون الجميلة التى يتأتق فيها أصحابها ، وببالغون فى صقلها وتهذيبها ، وأصبح أداة صالحة لتصوير العواطف ونقلها قوية مؤثرة ، كان منه الهجاء ، كما كانت منه فنون أخرى هى فى أصلها مواضع للشعر كالحماسة والوصف والثناء . وكل ما فى الأمر أن النقاد لم يسمحوا للمدلول اللفظ أن يتطور بتطور الفن الذى يدل عليه ، أو هم لم يلتفتوا لذلك ، فظلوا يطلقون الهجاء إطلاقه القديم ، وسموا ما تفرع عنه وامتد منه ذماً أو تهجيناً أو زهداً أو أدباً . فإذا اكتشفنا نحن هذا الخطأ أو النسيان فما ينبغى لنا أن نتخرج ونزعم أن اللغة ليست ملكاً لنا . فالقدماء أنفسهم قد سمحوا للمدلولات الألفاظ أن تتطور . والأدب نفسه قد تطور مدلوله منذ الجاهلية إلى عصرنا فضاقت واتسع مرات .

الهجاء يصور مثله الأعلى ، ولكنه يصوره خلال سخطه وغضبه أو اشمئزازه واحتقاره ، فهو يصوره بطريق غير مباشر حين يصوره المادح أو شاعر الحماسة — وليس المدح إلا حماسة فى حقيقة الأمر — بطريق مباشر . فهذا الفن الأدبى الذى يصور المثل الأعلى للشاعر بالسخرية من نقيضه ، ينبغى أن يدرس مجتمعةً بعضه إلى البعض ، لأنه يصور ظاهرة فنية واحدة ، ولأنه

يصدر عن عاطفة واحدة ، ويتجه إلى هدف واحد . ونحن لانبألى إذا جمعت هذه الأنواع الأدبية تحت جنس واحد أن تسمى ما تسمى . فلنسمها هجاء إن شئنا ، ولنبحث لها عن اسم آخر إن أردنا أن نطلق لفظ الهجاء على هذا الشكل الأدبي الذى تعود القدماء أن يطلقوه عليه . فليست التسمية بالشئ المهم ، إنما المهم أن يقوم تقسيم الشعر ودراسته على أساس صحيح ، فلا نفرق منه ما ينبغى أن يجتمع ، ولا نجتمع ما ينبغى أن يفرق .

والأساس فى هذا الشكل الأدبي الذى نريد أن نسميه هجاء — لأننا لا نرى مانعا من هذه التسمية — أن الأديب يصور فيه مثله الأعلى لأن شيئا قد عارض هذا المثل . وهذا الشئ قد يكون شخصا من الأشخاص أو نظاما من النظم أو فكرة من الأفكار . فإذا صور الشاعر عاطفته فقد يصورها منصبة على هذا الشخص أو هذا النظام ، وقد يعم بها الجنس أو النوع الذى يجمع هذا الفرد وغيره من الأفراد التى تخضع لنفس الحكم التى تثير عند الشاعر نفس العاطفة بتعارضها مع مثله الأعلى .

وهنا يجب أن نشير إلى فرق دقيق بين نوعين من الأدب لا ينبغى أن نخطئ بينهما : هما شعر الهجاء والشعر التهذيبي (أو الأدب) كما كان يسميه بعض نقادنا القدماء . فالشعر التهذيبي يقصد به الوعظ والإرشاد ، أما الهجاء فيرمى به صاحبه إلى العقوبة والانتقام . فالأول يقدم درساً فى الأخلاق أو الدين أو الفلسفة ، فى هدوء المعلم أو الواعظ والمبشر ، يزجيه الأمل فى الإصلاح . أما الهجاء فهو شريعة القصاص — كما يقول أرنولد — من المجرمين الذين لا تنالهم يد القانون القصيرة . فالهجاء يرى أن هناك طائفة من المجرمين ، قد غلظت طبائعهم بما أشربوا فى قلوبهم الباطل والإثم والغرور ، حتى ما يؤثر فيهم نصيح أو تحذير . فهو ينشر على الناس مخازيهم ، ويجعلهم أضحوكة ومثلة ، وقد لا يرجو من وراء عمله هذا أن يصلحهم أو يطهرهم . فالعلاقة بين الشعر التهذيبي والشعر الهجائى هى كالصلة بين المدرسة والمحكمة . أحدهما يسعى

لتسكين الفضيلة ونشر الحكمة . والآخر ينزل عقابه بالذيلة ويهتك الستر
عن الحماقة والسفه . دافع الشاعر التهذيبي رغبة صادقة في الإصلاح ، ودافع
الهجاء شهوة الغضب والانتقام . وقد تصور الهجاء الانجليزي (Pope)
مهمة الهجاء تصوراً حسناً حين قال : —

Hear this and tremble, you who scaped the laws ;
Yes, while I live, no rich or noble Knave,
Shall walk the world in credit to his grave ;
To virtue only and her finds a friend ;
The world beside may murmur or commend.

استمعوا إلى هذا وارعدوا أيها الهاربون من القانون
فلن يستطيع الأغنياء والمخادعون من النبلاء — ما دبت في الحياة —
أن يقطعوا حياتهم إلى القبر في ثقة واطمئنان
للفضيلة وحدها ولأصدقائها أنا صديق
ما أبالي ضج الناس من حولي ساخطين ، أو أثنوا مادحين .

ولكي يستبين الفرق واضحاً بين النزعة التهذيبيّة والنزعة الهجائية ، نقدم
قطعتين من الشعر ، إحداهما لأبي العتاهية ، والأخرى للمتنبّي ، ثم ننظر في
الفرق بينهما .

يقول أبو العتاهية :

الحرص داء قد أضـ ربحن ترى إلاقليلا
كم من عزيز قد رأيـ تالحرص صبحه ذليلا
فتجنب الشهوات واحـ ذر أن تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزناً طويلا
من لم يكن لك منصفاً في الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعها واكسب لها فعلا جميلا

والمتنبى يقول :

فؤاد ما تسليه المدام	وعمر مثل ما تهب اللثام ^(١)
ودهر ناسه ناس صغار	وإن كانت لهم جث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم	ولیکن معدن الذهب التّرغام ^(٢)
أرانب غير أنهم ملوك	مفتحة عيونهم نيام ^(٣)
بأجسام يحرق القتل فيها	وما أقرانها إلا الطعام ^(٤)
وخيل ما يخزلها طعين	كأن قنا فوارسها ثمام
خليك أنت لا من قلت خلى	وإن كثر التجل والكلام
ولو حيز الحفاظ بغير عقل	تجنب عنق صيقله الحسام ^(٥)
وشبهه الشئ منجذب إليه	وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعمل إلا ذو محل	تعالى الجيش وانحط القتام
ولو لم يرع إلا مستحق	لرتبته أسامهم المسام ^(٦)

الفرق واضح بين الشاعرين، فالأول يقدم النصيح للناس في هدوء، ليس في نفسه أثر لحقد أو غضب، لأن عيوب الناس لا تثير فيه إلا العطف، فهو يحاول أن يأخذ بيدهم لينجيهم من العذاب، ويدلهم على طريق السعادة، وكله أمل في النجاح. أما المتنبى فهو محقق مغيط، وهو كالأب الذي يعالج أخطاء

(١) يقول إن آماله ضخمة عريضة ولكن عمره قصير لا يتسع لتحقيقها وهو يشبه عمره في قصره. بعلية البخل اللثيم.

(٢) الرغام التراب يقول إنه بين الناس كالذهب في التراب.

(٣) يصف الناس بالغلظة ويشبههم بالأرانب تنام وعيونها مفتوحة.

(٤) يقول إنهم لا يموتون في حرب ولكنهم يهيمون تقتلهم التخم والشره للبائل الذي لا يحفلون بغيره.

(٥) يقول إن الناس لا عقول لهم ولذلك فهم لا يحافظون على حق ولا يراعون ذمة. ولو جاز أن يكون الحفاظ لغير العاقل لبنا السيف عن عنق صاقله وصانه إذا ضرب به.

(٦) يقول لو أن الأمور تجري على الحق والعدل لكان الملوك سوقة والسوقة ملوك.

ابنه بالضرب بدل أن يعالجها بالنصيحة . ولكن الأب قد يرجو أن يصلح ابنه بالقسوة ، أما المتنبئ فهو لا يفكر إلا في نفسه . هو يريد أن يتشفى وينفس عن غضبه ، ثم لا يبالي بعد ذلك شيئاً .

وليس يفهم من هذا أننا نغض من قيمة الهجاء والهجائيين بما نصورهم في هذه الصورة البشعة التي لا يستجيون فيها إلا لشیطان الغضب . فالواقع أن في الهجاء قوة بئائية إلى جانب هذا المظهر الهدّام ، الذي هو أول ما يطالع المتصفح له . فهو حين يهاجم شخصاً من الأشخاص أو نظاماً من النظم أو نزعة من النزعات ، يتصور في حقيقة الأمر حياة أخرى بأشخاصها ونظامها وأسلوبها ، هي مثله الأعلى الذي يطمح إليه ويدعو له . فالهجاء له فلسفة في الحياة يريد أن يؤديها إلينا . على أن الزمن الذي كانت تقاس فيه الفنون بمقدار ما تنفع وتفيد من الناحية المادية قد مضى ، وأصبح الشعور الصادق في اللفظ الجميل هو قوام الشعر الصحيح — كما يقول فاليري — ولم يعد الفن وسيلة لشيء ، ولكنه أصبح غاية في نفسه . وكل ما يطالب به الشاعر أن يكون دقيقاً قوياً في المزاجية بين إحساسة الفن وبين السكّات ، بحيث ينبجس شعره أنشودة رائعة وأثراً كاملاً لما في نفسه .

يقسم النقاد الهجاء إلى ثلاثة أقسام : هجاء شخصي وهجاء أخلاقي وهجاء سياسي .

فالهجاء الشخصي يعتمد على مهاجمة الأفراد . وهو أقدم أنواع الشعر الهجائي . وهو في معظم الأحيان متأثر بالأهواء الشخصية ، بعيد عن العدل والإنصاف ، لأنه لا يرتقي إلى عناصر الحياة العامة إلا في القليل من نواحيه ، فهو أقرب للسباب ، وأدنى إلى أن يتورط في الفحش . ومثل هذا الشعر قد يعجب المعاصرين ويستزعي انتباههم ، فيرددونه شامتين أو ساخطين ، ولكنه يفقد جزءاً كبيراً من قيمته بتداول العصور ، فلا يتحمس له الناس ولا يجدون فيه المتعة ، إلا بمقدار ما يشتمل عليه من نادرة طريفة ، أو سخرية مسلية

أو نكتة مضحكة . وأكثر ما يكون الهجاء الشخصي ناجحاً إذا استطاع فيه الشاعر أن يخفي حقه نحو الأفراد ، فيبدو غضبه منصبا على رذائل سائدة وحماقات منتشرة ، لا تعرض فيها أسماء الأشخاص إلا على سبيل التوضيح والمثال ، كالذي نجده عند الجاحظ في «البخلاء» . ولسنا بحاجة إلى تقديم أمثلة شعرية لهذا القسم ، فهي كثيرة معروفة في الشعر العربي القديم .

أما الهجاء الأخلاقي ، فموضوعه الجرائم الأخلاقية أو الدينية ، والمفاسد الاجتماعية ، والعادات القبيحة ، والعيوب الإنسانية على وجه العموم . وقد يعم به الهجاء جنسا من الأجناس لا يعين منه أفراداً ، كالذي نجده في شعر المعري من السخط على المرأة أو رجال الدين ، فهو لا يعنى فيه امرأة مقصودة أو رجلا يعينه من رجال الدين ، ولكنه يرى رذائل مصورة في بعض من عرف من أولئك وهؤلاء ، فيدفعه السخط والاشمئزاز إلى التعميم . وبعض شعر المعري يبدو مظلما ملاملا لا يروق المتفائلين ، لأنه يبدو وكأنه لا يصدر عن سخط أخلاقي ، ولكن عن كراهية ونفور من الجنس البشرى .

انظر ما يقول في هجاء رجال الدين (١)

لهم نُسْكٌ وليس لهم رياء	وقد قنشت عن أصحاب دين
تقيم لها الدليل ولا ضياء	فألفيت البهائم لا عقول
كأنهم لقوم أنبياء	وإخوان الفطانة في إختيال
وأما الأولون فأغبياء	فأما هؤلاء فأهل مكر
فأعيار المذلة أتقياء (٢)	فإن كان التقى بلسها وعياً

ولاحظ ما يسودها من سخط على الجنس البشرى كله . فهو لا يصب سخطه على المتدينين وحدهم ، ولكنهم يشمل به المتدينين وغير المتدينين . فالمتدين أبله موصوم بالرياء ، وغير المتدين ما كرم يملأه الكبر والغرور .

(١) اللزومات ١ : ٤٢

(٢) الأعيار جمع غير وهو الخمار . يقول لو كان كل ما يتطلب في التقى أن يكون أبله غيباً لكان الخمار أحق شيء بأن يوصف بالتقوى .

وانظر مايقول عن الوعاظ في موضع آخر^(١)

رويدك قد غُررتَ وأنت حر
يحرم فيكم الصبياء صباحا
تَحْسَاهَا فَنَ مَزَجَ وَصَرَفَ
يقول لكم غَدوتَ بلا كساء
إذا فعل الفتي ما عنه ينهى
بصاحب حيلة يعظ النساء
ويشربها على عمد مساء
يُعلُّ كَأَنَّمَا وَرَدَ الحَسَاءُ
وفي لذاتها رهن الكساء
فَنَ جَهْتَيْنِ لَا جَهَةَ أَسَاءُ

وفي موضع ثالث^(٢)

أقيمي لا أعد الحج فرضا
وفي بطحاء مكة سرُّ قوم
وإن رجال شَيْبَةً سَادَنِهَا
قيام يدفعون الوفد شفعا
إذا أخذوا الزوائف أُولجُوهم
على عجزِ النساءِ ولا العذراي
وليسوا بِالْحِمَاءِ وَلَا الْغِيَارَى
إذ راحت لِكَعْبَتِهَا الْجَارَا
إلى البيت الحرام وهم سكارى
ولو كانوا اليهود أو النصارى

أما تحامله على المرأة فهو معروف مشهور منه^(٣)

خصاؤك خير من زواجك حرة
وإن كتاب المهر فيما انتمسته
فلا تُشْهَدَنَّ فِيهِ الشُّهُودَ وَأَلْقِهِ
ولبسك ثوب السقم أحسن منظرا
وإنك إن تستعمل العقل لا يزل
فكيف إذا أصبحت زوجا لمومس
نظير كتاب الشاعر المتلس^(٤)
إليهم وعد كالعائر المتشمس^(٥)
وأبهج من ثوب الغوى المنمَّس^(٦)
مبيتك في ليل بعقلك مشمس

(١) اللوزيات ١ : ٥٠

(٢) اللوزيات ١ : ٦١

(٣) اللوزيات ٢ : ٣٥

(٤) المتلس شاعر جاهلي حقد عليه عمرو بن هند ملك الحيرة لهجأته فاحتمل لقتله بأن أرسله بكتاب

إلى عامله في البحرين يأمره بقتله : ولكن المتلس توجس الشر ففرض الكتاب في الطريق وقرأه فتجا بنفسه

(٥) العائر الغرس الذي أفلت من صاحبه من عار القرس يعبر إذا أفلت وذهب على وجهه .

والمتشمس المستعصى المتنع

(٦) المنس المحال

وله في اللزوميات قصيدة طويلة تبلغ ستة وتسعين بيتا معظمها في هجاء المرأة . فهي أشبه بأهجية جوفينال السادسة . ومنها (١)

لقينك بالأساور معلبات	فوارس فتنة أعلام غي
ركابك في مهالك مقدمات	ولكن الأوانس باعثات
أصابك من أذاتك بالسمات	صحنك فاستفدت بهن ولدا
بذلك من نواب مسقمات	ومن رزق البنين فغير ناء
وأرزاء يجئن مصممات	فمن ثكل يهاب ومن عقوق
تبين في وجره مقسمات	وإن تُعطَ الأناث فأى بؤس
ويلقين الخطوب ملوحات	يردن بعولة ويردن حليا
ولا في غارة متغشات	ولسن بدافعات يوم حرب
أمانا من غوارر مجرمات	وليس عكوفهن على المصلى
بأيد للسطور مقومات	ولا تحمد حسانك إن توافت
بهن من اليراع مقلبات	فحمل مغازل النسوان أولى
فلسن عن الضلال بمنجمات	وإن جئن المنجم سائلات
من اللائى فغرن مهمات	ليأخذن التلاوة عن عجوز
إذا قلن المراد مترجمات	فما عيب على الفتيات لحن
فقد ألفتِهِنَّ مذممات	فلا يدخلن دارك باختيار
بمعصرة من المتنعات	ولا يتأهلن شيخ مقل
إليه السن جاء بمعظات	فإن الفقر عيب إن أضيفت

وواضح في كل هذه الأهاجي ما يغشها من تشاؤم وكرهية للنوع البشرى .
ومن الهجاء الأخلاقي قول بشار :

خير إخوانك المشارك في المـــــر فأين الشريك في المرأينا
الذى إن شهدت سرك في الحـــــس وإن غبت كان أذنا وعينا

مثل سر الياقوت إن مسه النار جلاه البلاء فازداد زينا
أنت في معشر إذا غبت عنهم بدلو كل مايزينك شينا
وإذا مارأوك قالوا جميعا أنت من أكرم البرايا علينا
ما أرى للأنام ودا صحيحا عاد كل الورا زورا ومينا

والفرق واضح بين المرارة القاسية التي تسم شعر المعرى، وبين النقد الذي هو أدنى للحكمة الأخلاقية عند بشار :

والنوع الثالث من الهجاء هو الهجاء السياسي . وهو يتميز عن سابقه بأن صاحبه يرى مثله الأعلى في حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف أو مذهب من المذاهب ، فهو يهاجم كل ما يتعارض مع هذا المثل من نقائص ومعايب تتمثل في أنصار حزب آخر . وهو يزعم في كل هذا — صادقاً أو متصنعاً — أنه يهاجم في سبيل الفضيلة والحق . ونستطيع أن نلحق بهذا القسم الهجاء الديني والهجاء القبلي . أما الهجاء الديني فنجد له أمثلة فيما كان بين شعراء المسلمين وشعراء قريش أول ظهور الاسلام . وأما الهجاء القبلي فهو في الواقع ليس شعراً سياسياً بالمعنى الدقيق ، ولكنه يصور الشعر السياسي في طوره البدائي عند العرب . فالعرب في جاهليتهم لم يعرفوا نظام الدولة ، ومن ثم لم تكن لهم أحزاب منظمة تنقيد ببرايج خاصة . ولكن العربي مع ذلك كان يحمل لقبيلته من القداسة والاجلال ، مثل ما يحمل المواطن لوطنه بل أشد . وكان للفرد على قبيلته من الحقوق ، ما يشبه حق المواطن على وطنه . فهي مكلفة بحمايته من كل اعتداء . وهو بعد هذا مسئول أمامها ، مرتبط بها ، لا رأى له إلا مآرات ، وهو يضع سيفه ولسانه في خدمتها . ولها أن تحرمه من جنسيته بأن تبرأ منه وتعلنه طريداً .

فمن الشعر السياسي قول ابن بقليلة (وهو من اليمنية الذين ارتدوا عن الإسلام عصبية على نزار^(١) :

أبعد المنذرين أرى سواماً
وبعد فوارس النعان أرى
فصرنا بعد هلك أبي قبيس
تقسمنا القبائل من معد
وكنا لا يرام لنا حريم
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى
كذلك الدهر دولته سجال
تروح بالخورنق والسدير
قلوصاً بين مرة والحفير
كجرب المعز في اليوم المطير
علانية كأيسار الجزور
فنحن كضرة الضرع الفخور
وخرج من قريظة والنضير
فيوم من مساء أو سرور

ومنه قول حنظلة الكاتب في فتنة عثمان^(١)

عجبت لما يخوض الناس فيه
ولو زالت لزال اختير عنهم
يرومون الخلافة أن تزولا
ولاقوا بعدها ذلاً ذليلاً
وكانوا كاليهود أو النصارى
سواء كلهم ضلوا السبيل

وقول حسان^(٢):

أتركتهم غزو الدروب وراءكم
فلبئس هدى المسلمين هديتم
وغيرتمونا عند قبر محمد
ولبئس أمر الفاجر المتعمد
إن تقدموا نجعل قرى سرواتكم
أو تدبروا فلبئس ماسافرتكم
وكان أصحاب النبي عشية
أبكى أبا عمرو لحسن بلائه

ومنه قول الشاعر يخاطب أم المؤمنين في فتنة علي، حين طالبت بدم

عثمان، وكانت قد حضت على قتله^(٣)

منك البداء ومنك الغير
وأنت أمرت بقتل الإمام
ومنك الرياح ومنك المطر
وقلت لنا إنه قد كفر

(٢) الطبرى ٢: ٤٤٧

(١) الطبرى ٣: ٤١٧

(٣) الطبرى ٣: ٤٧٧

فهبنا أطعناك في قتله وقتاله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرأ يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها وما من وفي مثل من قد غدر

ومنه قول الشاعر العلوى في يوم صفين^(١)

ألا أبلغ معاوية بن حرب فإنك من أخى ثقة ملهم
قطعت الدهر كالسدم المعنى تهدر في دمشق فما تريم
وإنك والكتاب إلى على كدابة وقد حلم الأديم
يمنيك الإمارة كل ركب لأنقاض العراق بها رسم
وقومك بالمدينة قد أيبدو فهم صرعى كأهم الهشيم
وليس أخو الترات بمن تواني ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتل وكان حيا لجرد لا ألف ولا سئوم
ولا نكل عن الأوتار حتى يبيء بها ولا برم جشوم

ومنه قول الشاعر الخارجي عيسى بن فأنك التيمي^(٢)

فلما أصبحوا صلوا وقاموا إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم فظل ذوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتى أتاها سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاها بأن القوم ولوا هاريننا
ألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بأسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكبيرة ينصروننا

(١) الطبرى ٣ : ٥٦٣

(٢) الكامل ٢ : ٥٧

ومنه قول أعشى همدان في فتنه المختار (١)

وأني بكم باشرطة الشرك عارف	شهدت عليكم أنكم سبئية
وإن كان قد لفت عليه اللفائف	وأقسم ما كرسيكم بسكينة
شيام حواليه ونهد وخارف	وأن ليس كالتابوت فنيا وإن سعت
وتابعت وحيا ضمته المصاحف	وإني امرؤ أحبت آل محمد
عليه قریش شمطها والخطارف	وتابعت عبد الله لما تابعت

الخصائص الفنية للشعر الهجائي

الهجاء ناقد بطبعه عياب، تسترعيه حماقات الناس وأخطاؤهم بأكثر مما تسترعيه فضائلهم، فهو لا يحسّ مثله الأعلى بطريق مباشر، ولا يفتن إليه إلا عن طريق ما يعارضه ويثيره، فكأنه لا يهتدى لنفسه إلا بالقدر الذي يدفعه إليه حقه وغضبه. فهو لا يكتشف ذوقه ومواهبه إلا عن طريق السخط، فإذا مات في نفسه السخط، وسكت عنه الغضب، فقد معهما كل ظل من ملكاته. محاسن الناس لا تثيره ولا تحرك نفسه. فهو يقول الشعر لأنه مغيط. وقد تساءل جوفينغال في أبحاثه الأولى عن السبب الذي يدعو إلى الهجاء، ثم أجاب عن ذلك بأن الغضب يدفع إلى الشعر. ولقد يكفي أن يفتح إنسان عينيه في بساطة، ليعرف أن من الصعب أن لا يقول هجاء.

الهجاء ساخط على المجتمع نأثر على ما فيه ضيق به. وهذا الشعور مركز في نفسه، مستقر في باطنه. فهو يحول بينه وبين إدراك الجانب المضى من الحياة. فهو كالثور الذي لا يحركه إلا منظر الدم. هو جلاد لا يرى من عمله تعليق النياشين على صدور الأكفاء، ولكنه يصب سوطه على ظهور المجرمين. ولو تتبعنا تاريخ الهجائيين في الآداب المختلفة لرأيناهم قد قاسوا من الحياة ما بغضها إليهم، وحقرها في نظرهم، وجعلهم يتطيرون بكل شيء فيها. فالهجاء نتيجة عقدة نفسية، وربما كان في كثير من الأحيان نتيجة لمركب نقص.

كان الحطيئة دميم الخلقة مغموز النسب. وكان جرير متواضع النشأة والنسب. وكان بشار مشوه الخلق وكان أبوه مولى مهينا. وكان الجاحظ أسود قصيراً دميماً. ولو تتبعنا شعراء الموالى في العصر الأموي لوجدناهم في معظمهم هجائيين. منهم أبو عطاء السندی^(١) وزياد الأعجم^(٢) والرماح

(١) الشعر والشعراء ٢٩٦، الأغاني ١٦ : ٨١

(٢) الشعر والشعراء ٢٩٨، والأغاني ٢ : ٢٦٣

ابن يزيد^(١) وأبو العباس الأعمى^(٢) وبشار . وكذلك شأن الهجائيين في مختلف الآداب . ففي الأدب اللاتيني نجد أن جوفينال كان موتوراً لاقى في نشأته الأولى كثيراً من الاستخفاف والاحتقار ، حين اضطره فقره إلى الاعتماد على بعض السادة من الأغنياء ، يضع نفسه تحت حمايتهم وينال عطاءهم لقاء شعره . وقد علم أن له من المواهب والذكاء ما يفضل به هؤلاء السادة الذين يعتمد عليهم في حياته . فترك ذلك في نفسه مرارة لاذعة ، تبدو في قوله (إنه خير للإنسان أن يكون كل ما يملكه ضياعاً واحداً من أن يكون له قصر في روما) . وكان مارشال مضطرباً معذباً مدة إقامته في روما ، وقد اضطر آخر الأمر أن يعود — غير آسف — إلى وطنه في اسبانيا . أما استاذهما هوارس فقد كان أبوه رقيقاً معتقاً . وقد مرت بحياته أزمات كاد يموت فيها جوعاً . ولم يستطع أن يحصل على عيشه إلا كاتباً للنائب الذي يتولى تحقيق قضايا القتل والإفلاس (Quaester) .

وكذلك كان شأن الهجائيين في الأدب الإنجليزي . كانت حياة بوب (Pope) مرضاً طويلاً كما يصفها هو . فقد كان عاجزاً عن أن يرتدى ملابسه بغير مساعدة . وكان شديد الحساسية بالبرودة إلى حد أنه كان مضطرباً أن يلبس نوعاً مزدوجاً من الفرو تحت قميصه المبطن الكشيف . وكان أحد جنبيه متقلصاً لا يستطيع الوقوف منتصباً إلا إذا شدَّ وسطه بنطاق من نسيج صلب . وكان لنحول ساقيه يضطر للبس ثلاثة أزواج من الجوارب ، لا يستطيع ارتداءهما أو نزعهما بغير مساعدة . وكان ينتابه مع ذلك كله صداع منهك يحطم ما بقي من قواه . وقد قضى بعد موت أمه حياة مؤحشة مقفرة لأنه لم يتزوج .

وكذلك كانت حياة صديقه سويفت (Swift) مؤلف رحلات جاليفر (Galliver's Travels) . فقد نشأ يتيماً مات أبوه قبل مولده ، فتولى عمه

ثريته ولم ينل لقمة العيش في أول حياته إلا بعد تعب شديد . وقد قضى الأعوام السبعة عشر الأخيرة من عمره في وحشة حزنة، ويأس من الحياة شديد ، بعد أن فقد أعز أصدقائه ، وتعاورته الأسقام والأوجاع . وفي هذه الوحدة الموحشة والضيق الشديد، كتب قصته الهجائية التي هي أروع ما كتب، فكانت أقسى ما رمى به الجنس البشرى من هجاء . وأى هجاء هو أقسى، وأى سخرية هي أنكى، من القسم الرابع الذى يتصور فيه أرضاً تحكمها الخيول، ويقوم فيها الآدميون ، أو (الياهو) كما يسميهم السادة الخيول، مقام الخدم ويعتبرونهم أخط أنواع الحيوان .

ولم يكن حظ جونسنون (Johnson) أحسن حظاً من زميله، فقد كان طفلاً سقيماً، وأول ماتعيه ذاكرته من حياته المشؤمة أن الملكة آن لمسته لتشفيه من مرض خبيث كان الناس يزعمون أنه لا يشفى إلا بلبس الملوك (King-evil داء الملوك) . وكان بصره يعانى من الأمراض الرمدية . وكان جسمه موضوعاً للأمراض العصبية والتشنجية . وقد بدء محاولته الأولى في سبيل العيش حاجباً أو عريفاً في مدرسة .

كل هذا يعلل لنا الميول الهجائية في الهجائين، ولكنه لا يعلل لنا نبوغهم . فالسخط وحده قد يخلق هجاء، ولكن هذا الهجاء لا ينبغ ويتفوق حتى تتوافر فيه صفات أخرى . وأول هذه الميزات وأبرزها دقة الملاحظة . فالهجاء طلعة بصير يفطن إلى أدق التوافه والطفها مما يحيط به ، وهو ينظر إلى كل ما حوله بعين الناقد الذى يلمس العيوب، فهو سئ الظن بالناس في معظم الأحيان . وقد لا يحتاج الهجاء إلى أن يكون عميق التفكير أو ممتاز الخيال، ولكنه لا يكون ناجحاً إلا إذا رزق العين الناقدة التى تحسن اختيار مواطن الضعف ، وتعرف أين تضرب فريستها . والهجاء لا يرزق الذبوع والشهرة إلا إذا كان في أسلوبه لدع يعتمد على الذكاء والفظنة . فهو لا يردى فكرته أداء مباشراً صريحاً ، ولكنه يشير إليها فى حذق، ويلجأ إليها فى لباقة،

ويسخر من فريسته مداعبا . فجزير حين يهجو تيماء بالجن لا يقول في صراحة
إنهم يفرون من ميدان القتال، ولكنه يقول :

ترى الأبطال قد كلوا وتيماء صححو الجلد من أثر السكوم
وابن الرومي يقول في نفس المعنى .

لا يعرف القرن وجهه ويرى قفاه من فرسخ فيعرفه
وابن الرومي من الهجائيين الممتازين بالبلاغة ويقظة النكتة . انظر إلى
هذه الدعابة المضحكة والفكاهة الحلوة ، التي هي خليقة أن تغري الناس
بالحرص على الشعر في قوله .

عشقنا قفا عمرو وإن كان وجهه يذكرنا قبح الخيانة والغدر
قبي وجهه كالهجر لا وصل بعده وأما قفاه فهو وصل بلا هجر
ثم انظر إلى ما يصف به نفسه من دمامة الحلقة .

شغفت بالخرد الحسان وما يصلح وجهي إلا لذى ورع
كي يعبد الله في الفلاة ولا يشهد فيه مساجد الجمع

ومارسىال يهجو شاعرا بتفاهة شعره فلا يقول له ذلك بصراحة ، ولكنه
يتلطف في أدائه فيقول :

تسألني بأبوميليانوس كيف فاتني
أن أبعث إليك بشعري الكثير
وعذري أنك في مقابله
قد تبعث إلي ببعض شعرك

والهجاء مع هذا ماهر في التماس وجوه الشبه بين موضوع هجائه وبين
أقبح الصور ، وأبعثها على الضحك والاستهزاء . ومن الهجائيين من يرزق
إلى جانب هذه الموهبة عبقرية في الحس اللفظي تلتم فيها الألفاظ (من
حيث هي حروف تتوالى) بالصور التاماء عجيباً . ولانكاد نعرف هجاء عربيا

يعدل جريراً في هذه الناحية . فهاؤه يستفز القارئ للضحك قبل أن يروى في معناه ويحققه . انظر إلى قوله .

ترى التيمى يزحف كالقربى إلى سوداء مثل قفا القيدوم
واعتبر غرابة الصورة وقبحها المضحك ، والتأثم هذا مع الألفاظ التي
تستجمل القارئ بالضحك أول ما تصافح سمعه . ولعل تكرار القاف
ودورانها في البيت مما يعين على ذلك ، ثم انظر إلى قوله :

كأنى إذ فزعت إلى أحبح فزعت إلى مقوقية بيوض
أوزة غيضة لقحت كشافاً لقحقحها إذا درجت تفيض
واعتبر دوران القاف في هذه الأبيات أيضاً . ثم استمع إلى قوله في
أم الأخطل

تغلى الخنايص والفول الذى أكلت فى حاوياوى ردوم الليل مجمار
كيف يضحكك البيت قبل أن تتفهم معناه ، فإذا تعرفت إليه لم تجده شيئاً .
فهى تأكل الفول وصغار الخنازير فتضطرب في أمعائها .

والهجاء — مع هذا كله — يعتمد على التأثير السريع والوضوح الخلاب .
فأسلوبه يمتاز بالبساطة التي لا اثر فيها للتكلف . وقد يحمل فيه الإسفاف والهبوط
إلى مستوى النكتة العامة والحديث الشائع المتداول بين العامة . أما الفكرة
العميقة ، والفن الشعري السامى ، الذى يصدر عن الجهد الطويل ، والإمعان فى
التروى والتفكير ، فهو يذهب بشطر كبير من قوته وتأثيره . لم يفسد هجاء
الفرزدق شيئاً كالتكلف . ولم يضعف هجاء أبى تمام شيئاً كالعمق والإبعاد فى
الخيال ، ولعل هذا هو ما يعنيه صاحب زهر الآداب بقوله (وأصحاب المطبوع
أقدر على الهجاء من أهل المصنوع ، إذ كان كالإدارة التي إذا حدثت على سجية
قائلها ، وقربت من يد متناولها ، وكان واسع العطن ، كثير الفطن ، قربت
القلب من اللسان ، والتهبت بنار الإحسان^(١) .

الهجاء نقد للحياة . فهو يأخذ مادته من الواقع ولا يستمدّها من الخيال أو التفكير . ولذلك كانت أبرز صفاته الواقعية البعيدة عن الإسراف في الصناعة، والتي تقوم على تجارب الحياة ودقة الملاحظة لما يجري فيها من أحداث . فهجاء المعرى في لزومياته ليس إلا ملاحظات من صميم الواقع ، يندد فيها بالضعف الإنساني في شتى مظاهره من خداع ونفاق وغرور ورياء وقسوة وأنانية . فهذا رجل غليظ القلب يحمل حمارة المسكين فوق ما يطبق ، فإن عجز عن الحمل فرزح تحته أو وني وفتر ، أحال عليه ضرباً وجلدا :

لقد رابنى مغدى الفقير بجعله على العير ضرباً ساء ما يتقلد
يحمّله مالا يطبق فإن وني أحال على ذى فترة يتجلد
يظل كزان مُفتر غير محصن يقام عليه الحد شفعا فيجلد
تظاهر أبلاد الرزايا بظهره وكشحيه فاعذر عاجرا يتبلد
وهذا آخر يحتضر ، ولكن الغرور لا يفارقة ، فهو يحرص على أن يوصى قبل موته ، وكأنه سيعود إلى الدنيا بعد أيام . .

يوصى الفتى عند الحمام كأنه يمر فيقضى ساعة ويعود
وما لبست من رجعة نفس ظاعن مضت ولها عند القضاء وعود
وذاك واعظ منافق يجلس إلى الناس ، فيحرم عليهم الخبائث ، وينهاهم عن الشر . وهو يأتى أغلظ الآثام عن عمد :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبها ويشربها على عمد مساء
تحسأها فمن مزج وصرف يعل كأنما ورد الحساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
وتلك امرأة مغرورة تؤمل أن يكون ابنها شيئاً مذكوراً ، وترجو من حياته خيراً كثيراً ، فهي تأتى به إلى المنجم تسأل كم تراه يعيش ، والمنجم أجبل الناس بالغيب ، ولكنه حريص على أن يطيل في عمره ليشبع غرورها ، فهي

لا تجزل له العطاء إلا إذا سخا في تقدير سنه . فيزعم لها أنه سيعيش مائة سنة ، ثم تنصرف الأم بوليدها ، فيأتى عليه الموت لشهره . وهذه فتاة تسعى جاهدة لتجد زوجا ، ظنا منها أن في ذلك الخير ، وهى إن كانت عفة طاهرة فلعلها أن لا تقع على طاهر عف ! والناس يكرهون البنات ويحبون البنين ، ويتصور أحدهم أن هذا الابن سيعلى من قدره فى الحياة ، وأنه سيسبق به الدنيا ، فكانه المهر ينزل به إلى السباق محتالا ، وإنما هو وهم الإنسان وسفه ، فليس أعدى للرجل من ولده . . .

سألت منجمها عن الطفل الذى	فى المهد كم هو عائش من دهره
فأجابها مائة ليأخذ درهما	واتى الحمام وليدها فى شهره
قلب الزمان قرب خود تبتغى	زوجا وتبذل غاليا فى مهره
إن كانت امرأة الفتى فى طهرها	فلعله لم يأتها فى طهره
كره الجهول بناته وسيله	أجنى لما يغتاله من صهره
أعدى عدو لابن آدم خلته	ولد يكون خروجه من ظهره
وسفاهة الإنسان موهمة له	بذ القوارح فى الرهان بمهره

هذا هجاء لا يقوم إلا على تقرير الواقع ، وتقديم صور من الحياة ، كل قيمتها فى صدقها ، وفى قدرة الشاعر على التقاطها من شتى الصور المتشابكة فى الحياة ، وانتشالها من بين أخلاط المناظر ، وأكداس المحسوسات . يبرزها للقارئ ماثلة مجسمة ، فكأنه يراها للمرة الأولى ، وهى تحت بصره وسمعه ، يمر بها فى كل يوم .

وإذا أعدنا النظر فى كل هذا الهجاء لم نجد فيه نصيبا كبيرا للخيال أو الصناعة الشعرية ، فهو كلام أشبه بالنثر ، يقرر الأشياء كما هى ، كل عمل الخيال فيها هو التلفيق ، وجمع أجزائها المبعثرة من هنا ومن هناك ، يلائم بينها ليخلق منها صورة كاملة .

والواقع أن التعمق فى الخيال ، والإسراف فى الصناعة الشعرية ، وفى تكلف

الجزء القوي سمو العبارة، يضعف الهجاء ويفقده قيمته، لأنه يباعد بينه وبين الواقع، ولذلك كان أصحاب الصنعة من الشعراء أقل الناس توفقاً وإصابة في هذا الفن، فهجاء أبي تمام فاطر لأنه يقوم على الصناعة، ولا يقوم على تقرير الواقع. انظر إليه كيف يبعد في التكلف حين يهجو أبا المغيث فيقول :

هب من له شيء يريد حجابَه ما بال لا شيء عليه حجاب
ما إن سمعت ولا أراي سامعا أبداً بصحراء عليها باب
من كان مفقود الحياء فوجهه من غير بواب له بواب

وحين يتناول نفس المعنى في موضع آخر فيقول :

لا تكلفن - وأرض وجهك ضحرة - في غير منفعة مؤونة حاجب
ما كنت أول آخر في قدرة أثرى فصغر قدر حق الواجب
خذي من غدي الجائي بخزيك ضعف ما أعطيتني في صدر أمسي الذاهب

ثم أنظر إليه في هجائه لعياش لما يئس من عطائه، وإلى إفساده هجاءه بالإغراب في التشبيه والتعمق في الخيال :

محت نكباته سبل المعاني وأطفاً ليله سرج العقول
رجاء حل من عرصات قلبي محل البخل من قلب البخيل
فأجدى موقفي بنداك جدوى وقوف الصب في الظلل المحيل
وأعكفت المنى في ذات صدري عكوف الدمع في الخلد الأسيل

فهذا شعر لا يفهم إلا بعد تدبر وروية وإعمال فكير. والهجاء يعتمد في تأثيره على الوضع الخلاب الذي يضحك القارئ أول ما يقرأه، فهو كالنسكته، إذا لم تفهم إلا بعد تفكير فترت وبردت وذهب بريقها.

وقد كان الأخطل — مع مكاتته الشعرية — أقل زملائه الثلاثة حظاً من هذا الفن، لأنه كان يجود شعره ويعنى بتسويته، ويذهب به مذهب الفخامة والتسامي. فهو لا يعيش مع الناس، ولا يستمد هجاءه من خصمه، ولكنه

يأخذه من . فنه الشعري . فينما نرى جريرا يعتمد على الواقع وعلى دقة الملاحظة حين يهجو بالبخل فيقول :

والتغلبى إذا تنحج للقرى حك استه وتمثل الأمثالا
نجد الأخطل يعتمد على فنه وخياله حين يتناول نفس المعنى فيقول :
قوم إذا استنبح الأضياف كلهم قالوا الأهم بولى على النار

بيت جرير يستند إلى الواقع . فالصورة التي يقدمها حية لأنها من صميم الحياة . هذا الرجل البخل قد تولته الحيرة ، وتملكه الاضطراب ، حين نزل به الضيف ، ولذلك فهو يكثر من هذه الحركات العابثة ، التي تصور رجلا لا يدري ماذا يصنع . فهو يتنحج لأنه لا يدري ماذا يقول . قد حل به الرجل في موعد الطعام ، وهو لا يريد أن يطعمه ، فبأى حيلة يصرفه ؟ فهو يحك بيده بعض أجزاء جسمه في اضطراب ظاهر . ويصرف الضيف إلى التمثل ببعض الأمثال ، لعله يجد في ذلك مخرجا . هذه صورة حية لاشك ، تستند إلى الملاحظة الدقيقة لما خفي من الحركات النفسية ومظاهرها الجسمية ، تجعل الهجاء صورة ناطقة متحركة من الحياة .

أما بيت الأخطل فهو يقوم على الصناعة وحدها ، وليس فيه من الواقع شيء . فهو يستوحى خياله هذه الصورة الغريبة التي تجمع ألوانا من معاني البخل والامتهان والدناءة . لا يكاد قوم جرير يسمعون نباح الكلب ، حتى يعلموا أن ضيفا قد طرقتهم ، فيسرعون إلى النار يطفئونها . وهم يطفئونها بطريقة عجيبية ، يطلبون إلى أمهم العجوز أن تبول عليها ، مع ما في ذلك من الامتهان لها والابتذال لحرمتها . والنار من الضئولة والتفاهة بحيث تكفي بولة عجوز لإطفائها . وهذه صورة — على ما فيها من البراعة الفنية — أبعد الأشياء عن الحياة وعن الذي يحدث فيها بالفعل .

ويهجو الأخطل ابن بدر معيرا إياه هربه في بعض الوقائع ، فينصرف إلى فنه الشعري ، يجوده ويختارله أروع الألفاظ ، ويصف الفرس وراكبها

أجمل وصف وأبرعه . ولكنه ينسى أنه يهجو وأنه يهجو ليو جمع خصمه
ويشهر به . يقول :

ونجى ابن بدر ركضه من رماحنا	بنضاحة الأعطاف ملهبة الحضر
إذا قلت نالته العوالى تقاذفت	به سوحق الرجلين سابحة الصدر
كأنهما والآل ينجاب عنهما	إذا هبطا وعثا يعومان فى غمر
كان بطيها ومجرى حزامها	أداوى تسح الماء من حور وفر
فضل يفديها وظلت كأنها	عقاب دعاها جنح ليل إلى وكر
وظل يجيش الماء من متفصد	على كل حال من هزأته يجرى
يسر إليها والرماح تنوشه	فدى لك أمة إن دأبت إلى العصر
وبالله لو أدركته لاضطررته	إلى صعبة الأرجاء مظلمة القعر
فوسد فيها كفه أو لحجلت	ضباع الصحارى حوله غير ذى قبر

وهذا شعر رائع من الناحية الفنية ، ووصف ممتاز ، ولكنه هجاء
ضعيف لا يترك فى الخصم أثرا . وأين هو من هجاء جرير فى بساطته الواقعية
الموجعة وتهكمه اللاذع، حين يقول :

حملت عليك حماة قيس خيلها	شعثا عوايس تحمل الأبطالا
مازلت تحسب كل شىء بعدهم	خيلا تشد عليكم ورجالا
زفر الرئيس أبو الهذيل أبادكم	فسى النساء وأحرز الأموالا
قال الأخیطل إذ رأى راياتنا	يامار سرجس لا نزيد قتالا
هلا سألت غناء دجلة عنكم	والخامعات تجمع الأوصالا
ترك الأخیطل أمه وكأنها	منحاة ساقية تدير محالا
ورجا الأخیطل من سفاهة رأيه	ما لم يكن وأب له لينالا
خل الطريق فقد رأيت قرومنا	تنفى القروم تخمطا وصيالا
إن حرموك لتحرم على العدا	أو حللوك لتؤكلن حلالا

والواقعية فى الهجاء تستند فى كثير من الأحيان إلى دقة الملاحظة، التى

تجعل أجزاء الموضوع واضحة ، وتعين الشاعر على اختيار الصور اللاذعة التى تؤذى خصمه ، وتجعله أضحوكة بين الناس . فمن أمثلة هذا الشعر الهجائى الذى يقوم على دقة الملاحظة ، قول يحيى بن نوفل :

وأما بلال فذاك الذى يميل الشراب به حيث مالا
يببت يمس عتيق الشراب كمص الوليد يخاف الفصلا
ويصبح مضطربا ناعسا تخال من السكر فيه أحوالا
ويمشى ضعيفا كمشى النزيف تخال به حين يمشى شكالا

هذا هجاء يقوم على الملاحظة الدقيقة لحالات التمل ، واستخراج الصور اللاذعة من هذه الملاحظة . فهو يصور ذلك السكير الذى يلصق كأس الخمر بفمه ، ولا يزال يرشفها فى تؤدة ، ولا يطبق بعدها عنه ، كأنه الطفل الرضيع لا يطبق الفطام . ثم يصوره فى اضطرابه إذا أصبح مدوخ الرأس مطرقا ، وقد أثقل الخمار أجفانه ، فبدا وهو يقاوم النوم ويحاول فتح عينيه الثقيلتين وقد رنق فيهما النعاس ، كأنه أحوال . وهو إذا مشى لم يكذب يستطيع نقل رجله فهو يمشى متدأ كالذى ألح عليه النزيف فأضعفه ، تضطرب رجلاه وتتداخلان ، كأنه دابة قيدت رجلاها بشكال .

ومن هذا الشعر الذى يقوم على دقة الملاحظة قول شاعر الحماسة :

وإذا مررت به مررت بقانص متشمس فى شرقه مقرر
للقمل حول أبى العلاء مصارع من بين مقتول وبين عقير
وكأنهن لدى دروز قيصه فذ وتوأم سمس مقشور
ضرج الأنامل من دماء قتيلا حنق على أخرى العدو مغير

فقد استطاع الهجاء أن يرسم صورة هزلية حية لهذا الرجل القذر ، الذى جلس فى الشمس ينتفض من البرد ، وقد خلع عنه ملابسه ، وراح يطارد هذه الحشرات التى لا تكاد تنتهى ، وقد التصقت بمواضع الخياطة من رداءه فرادى وجماعات كأنها سمس مقشور . وهو مستغرق فى عمله قد تضرجت

أنامله من دماء هذه الحشرات التي يفركها بينها ، ولكنه حنق قد أصابه الملل لهذا الجيش الضخم من الحشرات الذي لا يكاد يستطيع أن يفرغ منه ، فهو لا ينفك ينقض في غيظ على ما تبقى منها .

ومن هذا النوع قول شاعر الحماسة :

لا تتكحّن الدهر ماعشت أيمّاً مخرمة قد ملّ منها . وملت
تحكّ قفاها من وراء خمارها إذا فقدت شيئاً من البيت جُنّت
تجود برجليها وتمنع درها وإن طلبت منها المودة هرت
فقد صور هذه العجوز الدميمة الفانية أدق تصوير وأبشعه . فيجن
تصور اضطرابها حين تحاول أن تتذكر شيئاً أودعته في هذا المكان أو ذاك
من البيت ، فلا تسعفها ذاكرتها التي أضعفتها الشيخوخة . فيجن جنونها ،
وتظل في حريرتها واضطرابها تحكّ قفاها من خلف الخمار الذي يغطي رأسها
المتهدج فيزيدها قبحاً على قبح ، ويضاعف ما كساها الهرم من بشاعة المنظر .
ويهبجو المتنبي ابن كيغلاغ فيقول :

وجفونه ما تستقر كأنها مطروقة أو فئت فيها حصرم
وإذا أشار محدثاً فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم
وتراء أصغر ما تراه ناطقاً ويكون أكذب ما يكون ويقسم
فقد صور هذا الرجل أبعد الناس عن الرزانة أو الوقار الذي ينبغي لمن
في مثل مقامه . فهو كثير الحركة في غير موجب ، تضطرب عيناه في حركة
عصبية دائمة ، كأنهم مطروفتان ، أو كأنما أصابه ما حصرم ، فهو جاهد في
تحليل صهامنه بموالاتة فتحهم ما وإغلاقهم ما . وهو كثير الإشارات ، لا يكاد يستقر
في مجلسه إذا تحدث . فإذا ضحك قام وقعد ، وماج واضطرب ، مصوتا مغربا في
الضحك ، كأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم . وهو أصغر ما يكون في نظر جلسيه
إذا تكلم ، لأن كلامه يكشف عن جهله وتفاهة عقله . وهو كثير الحلف ،
وأكثر ما يحلف أبعد ما يكون عن الصدق .

كل هذه الصور تقوم على الملاحظة الدقيقة لأدق الحركات وأطفيها .
وهي مستمدة من صميم الواقع ومن قلب الحياة الجارية .
ومن مظاهر هذه الواقعية في فن الهجاء ، أن المثل التي يقوم عليها ويستند إليها مستمدة من تقاليد العصر ، ومن العرف الجارى بين الناس . فالهجاء — والشخصى منه بنوع خاص ، وهو شطر كبير من شعر الهجاء في الأدب العربي — لا يبالي أن يخالف القيم الأخلاقية ، فيهجو بالدمامة والراثثة والفقر ، وأن يتورط في الفحش والسباب ، ويهبط إلى التبذل في المعاني والألفاظ . ذلك لأنه يقصد إلى الإيحاء والتشهير بالمهجو بين أهل عصره . وهذا هو النجاشي يهجو تميم بن أبي بن مقبل ، بمالا بأس عليه منه عند أصحاب الأخلاق فيقول :

قيّلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يرون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل
وأبعد منه في المناقضة لأصحاب الأخلاق ، ما يهجو به قريط بن أنيف قومه حين يقول :

لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق نخشيتته سواهم من جميع الناس إنسانا
واستناد الهجاء إلى قيم الحياة الواقعة يجعله عرضة لأن يفقد قيمته بتغير الزمن واختلاف الظروف ، فلا يخلد منه إلا ما يستند إلى عاطفة إنسانية عامة ، أو نكتة مضحكة ، أو دعاية ساخرة . ومن أمثلة ذلك الهجاء هجاء الحطيئة الذي يقوم على المفاضلة ، والذي هو في معظمه تقرير لوقائع كانت معروفة في ذلك العصر ، مثل قوله في هجاء الزبرقان :

أتحصر قوما أن يجودوا بالمهم فهلا قتل الهرمران تحاصره
فلا المال إن جادوا به أنت مانع ولا العز من بنيانهم أنت عاقره

ولا هادم بنيان من شرفت له قريع بن عوف حلفه وأكابره
 فإن تك ذا عز قديم فإنهم ذوو إرث مجد لم تخنهم زوافره
 وإن تك ذا شاء كثير فإنهم ذوو جامل لا يهدأ الليل سامره
 وإن تك ذا قرم أزب فإنهم يلاقى لهم قرم هجان أباعره
 قروا جارك العيمان لما تركته وقلص عن برد الشراب مشافره
 هموا لاحموني بعد فقر وفاقة كما لاحم العظم الكسير الجبار

هذا شعر ليس فيه إلا تقرير الواقع والاستناد إلى القيم الاجتماعية التي كان يعيش عليها الناس في ذلك الوقت . وهو شعر لا نجد فيه اليوم من الروعة ما كان يجده فيه أهل عصره . ومع ذلك فقد كان يوجع الزبرقان ويمضه ألماً ، حتى لقد استعدى على الخطيئة عمر فسجنه . وكان موضع الإيلام في هذا الشعر أن الشاعر يستغل ما بين المهجو وبين بني عمومته من تنافس في الشرف فيفضلهم عليه ، ويقرر أنهم خير منه ، وأنهم آووه وأطعموه حين قصر هو عن ذلك . وهذا هو مذهب الخطيئة الذي اشتهر به في أهاجيه ، والذي نهاه عنه عمر ، وهو استغلال لما عرف به العرب من التنافس والتكاثر والتفاخر .

ولما كان الهجاء الشخصي بعيداً جداً عن الاستناد إلى عاطفة إنسانية عامة ، كان أخله وأبقاه ما غلبت عليه الدعابة التي تغرى الناس بروايتها والتندر به . والدعابة شيء موهوب غير مكسوب . فهي مركبة في طباع الهجائيين الممتازين ، الذين لا تكاد عينهم تقع على الشيء ، حتى تندفق عليهم ألوان من الصور الفكاهية ، والأخيلة الساخرة ، التي تسعفهم بها البديهة . وهي خاصة لا تدر على التفكير وإعمال العقل وكد الخيلة . فالصورة تلح في ذهن الهجاء الساخر الفطن ، فتسعه بالنسكة الصائبة ، بمجرد وقوع عينه على موضوع هجائه أو تخيله . وهذه الخاصة تصور ذكاء لماحا ، وهدوء في الطبع ، وبروداً في الأعصاب ، يحتفظ بروح المرح بعيدة عن أن يطغى عليها الغضب فيفسدها ويذهب بها .

يرد ابن الرومي على شاعر هجاء فيقول له : لماذا تهجوني ؟ أليس يكفيك

في هجائي أن آدم بجمعني وإياك؟ ثم يزعم أن إبليس لم يمتنع عن السجود لآدم إلا لأن هذا المهجو كان في صلبه

أبي وأبوك الشيخ آدم تلتقي مناسبنا في ملتقى منه واحد
فلا تهجنني. حسبي من الخزي أنني وإياك ضمتني ولادة والد
فلو لم تكن في صلب آدم نطفة خثر له إبليس أول ساجد

ويهجو آل وهب لبخلهم فيزعم أنهم كثيرو الضراط . ثم هو يعجب لتناقضهم . فهم يسمحون بالضراط ولا يشدون رباطه ، بينما يشحون بالمال فيشدون عليه الرباط . ثم هو يمضي في دعايته الساخرة فيقول : هلا صررتكم على الضراط وحبستموه كما تصرون على الدراهم وتحبسونها ! فإن لم تفعلوا فاسمحوا بتلك كما سمحتم بهذي . ولكن هيهات فأنتم لا تنشطون للعتاء . وإنما تفرطون في شيء واحد هو الضراط . فعدلاً في الحكم وسووا بين الأشياء .

يا آل وهب حدثوني عنكم لم لاترون العدل والإقساطا
ما بال ضرطتكم يُحَل رباطها عفوا ودرهمكم يُشَد رباطا
صروا رباطكم المبدد صرکم -عندالسؤال-الفلس والقيراطا
أو فاسمحوا بنوالكم وضراطكم هيهات لستم للنوال نشاطا
لكنكم أفرطتم في واحد وهو الضراط فعدلوا الأسفاطا

والمتنبي يهجو كافورا فيداعبه هازلا ، ويسخر منه متشمتا ، فيقول : من أين يتعلم هذا الأسود المخصي المكارم ؟ أمن قومه البيض ؟ أم من آباءه الصيد ؟ أم من النخاس تدمي أذنه في يده إذ يعرضه للبيع طالبا فيه فلسين ، فيستكثرهما المشتري ، ولا يراه أهلا لأن يدفع فيه مثل هذا القدر ؟ ويمضي في هذه السخرية معتذرا عنه فيقول : إن كوفييرا أولى الناس بعذر . فإن كرام الناس من البيض لتعجز عن الجميل وتقصر همهم دونه ، فكيف نطالب به كافورا وهو عبد خصي !

من علم الأسود المخصي مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد

أم أذنه في يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود
أولى اللثام كويفير بمعدرة في كل لئرم وبعض العذر تفنيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

ويذهب به هذا المذهب في قصيدة أخرى فيقول : إني لأداريك فأريك
الرضا وفي النفس ما فيها من الهم . ثم يعجب لهذا اللئيم ، كيف جمع الله فيه
الكذب وإخلاف الوعد والغدر والخسة والجبن . ويقول : كل هذه المخازي
في واحد ! (أشخصا لحتلى أم مخازيا ؟) إني لأبتسم في حننرتك ، فيخيل لك
غبائك أني أضحك اغتباطا برؤياك ، وما أنا ضاحك إلا من نفسي إذ أرجو من
مثلك الخير ! ويمضى في التندر به فيقول : ما أعجب رجلحك في سوادهما !
إنهما لتبدوان في نعل وإن كانتا عاريتين . وإن قبح كعبيهما ليذكرني ما ضحك
يوم كنت عبدا يسخرك سيدك في حمل الزيت . وكأني أراك في ثوبك الخلق ،
تحمل الزيت ، وقد لطن جسدك ، وبدت رجلاك عاريتين مشققتين . فإن لم أكن
قد استفدت بالرحلة إليك مالا ، فقد استفدت التاهي بالنظر إلى مشفريك ! ومثلك
حقيق أن يرحل إليه من بلاد بعيدة ! ومثلك حقيق أن يضحك البراكي من
ربات الحداد الثالكات !

أريك الرضالو أخفت النفس خافيا وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا
آميناً وإخلافا وعدرا وخسة وجبنا . أشخصا لحتلى أم مخازيا !
تظن ابتساماتي رجاء وغبطة وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبني رجلاك في النعل إنني رأيتك ذا نعل وإن كنت حافيا
ويذكرني تخيط كعبك شقه ومشيك في ثوب من الزيت عاريا
فإن كنت لا خيراً أفدت فإني أفدت بلحظي مشفريك الملاهيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

ويهجو أبو نواس رجلا اسمه إسماعيل بالبخل ، فيقول إن أحدا لا يستطيع أن
يزعم أنه رأى خبز إسماعيل . فهو كآوى لا وجود له ، وإنما يعرف الناس ابن آوى !

على خبز إسماعيل واقية البنخل فقد حل في دار الأمان من الأكل
وما خبزه إلا كآوى يرى ابنه ولم ير آوى في حزون ولا سهل
ويتندر بهذا الرجل في موضع آخر، فيزعم أنه يجمع أنصاف الأرغفة
وما يتبقى على المائدة من كسر الخبز، فيلفقها بعضها إلى بعض ويرفوها، حتى
تصبح أرغفة من جديد. وهو يعجب لبراعة الرفاء الذي رفاها. ثم يزعم أن
لهذا الرجل البخيل مذهباً جديداً في الماء أيضاً، فهو لا يسقى ضيفه الماء
العذب خالصاً كما يشربه هو، ولكنه يقدمه له مخلوطاً بماء البئر، ويخص
نفسه بالماء الصرف!

خبز إسماعيل كالوشى إذا ما شُقَّ يرفاً
عجباً من أثر الصنعة فيه كيف يخفى
إن رفاءك هذا ألطف الأمة كفا
وله في الماء أيضاً عمل أبدع ظرفاً
مزجه العذب بماء البئر كي يزداد ضعفاً
فهو لا يعطيك منه مثل ما يشرب صرفاً

ومن مظاهر هذه الدعابة وصورها، التسلح إلى المعنى والإشارة إليه، في
رفق يكشف عن المقصود دون التصريح به. وهو أسلوب تظهر فيه هبة
الفنان ولطف صناعته في علاج موضوعاته. فجزير حين يتهم نساء مجاشع،
لا يسمى فعلهن باسمه، ولكنه يلح إليه بما يكشف عنه. فهو يقول إنهن
يقرن بعد أن ينام الناس فتنبجن الكلاب. وليس قيامهن لصلاة الوتر.

إذا قامت لغير صلاة وتر بعيد النوم أنبجت الكلابا

ويتساءل: خبروني ما شأن برزة إذ نذرت لله أن تصوم شهر محرم كله
إن لم يطلع القمر؟ وهي تتمنى غياب القمر — بالطبع — لأنه يفضحها،
ويكشف عما تفعل.

ما بال برزة في المنتحة إذ نذرت صوم المحرم إن لم يطلع القمر؟

ويهبجو شاعر الحماسة رجلاً بالقصر ، فلا يصرح بذلك ، ولكنه يتصور أن بيضة قد خرجت منه فسقطت على الأرض ، ثم يزعم أن هذه البيضة لا تنكسر لقربها من الأرض :

وأقسم لو خرت من استك بيضة لما انكسرت لقرب بعضك من بعض
ومن مظاهر هذه الموهبة أيضاً ، براعة الربط بين الصور . لا يكاد ابن الرومي يرى رجلاً ذا لحية طويلة ، حتى تستدعي إلى مخيلته صورة حمار قد ربطت في رقبته مخللة :

إن تطل لحية عليك وتعرض فالحال معروفة للحمير
علق الله في غداريك مخللة ولكنها بغير شعير
لو غدا حكمها إلى لطارت في مهب الرياح كل مطير

ويتصور الأخطل طفلاً من بني العجلان يبكي في طلب الطعام ، وقدملت أمه صياحه فألقته في أقصى الخباء ، فراح يدلك عينيه وهو منستمر في صياحه ، فيذكره ذلك بمنظر خفاش قد انكش في ركن مظلم منطوياً على نفسه :

وقد غبر العجلان حيناً إذا بكى على الزاد ألقته الوليدة في الكسر
فيصبح كالخفاش يدلك عينه فقبح من وجه لئيم ومن حجر
وينظر جرير إلى الرجل القصير من بني مجاشع ، الممتلىء سمناً ، وقد ضخمت عجيزته حتى أثقلته عن السير ، فينفرج فمه عن ضحكة عريضة ، إذ يذكره ذلك بمنظر بردون خصي ، قد تردى في الوحل ، فراح يقارع رجله ويخلص نفسه منه جاهداً :

يفيش ابن حمراء العجبان كأنه حصي براذين تقاعس في الوحل

أو يستدعي إلى مخيلته صورة بغل ضخم قد جثم فوقه خرجان . وكأن هذا الرجل القصير المكتنز ، في عجيزته الكبيرة ، بغل قد حمل خرجين ، لا يكاد ينهض للسير بهما إلا في مشقة .

من كل منتفخ الوريد كأنه بغل تقاعس فوقه خرجان

✱ ✱ ✱

كل هذه الخصائص التي قدمناها تباعد من وجوه كثيرة بين الهجاء وبين الشعر عامة، فبينما يصدر الشعر عن السكد والإجهاد، فيزيده عمق الخيال جمالا في الصور، وتضفي عليه الصناعة والملاءمات اللفظية حلاوة في الموسيقى، نجد أن الهجاء يقوم على البساطة في التعبير، تتلفه المعاني الغريبة والأخيلة البعيدة والصور المختارة والملاءمات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة. وبينما تقوم الصناعة الشعرية على التأنى والروية، والترفع عن ألفاظ السوق وعبارات الدهماء، نجد أن الهجاء يقوم على التصوير اللماح، ونقل الحياة الواقعية بغير تهذيب، وبلغتها الشعبية في بعض الأحيان. وقد يحسن الغموض في الشعر إذا كان ملهما مثيراً، كالذي نجده في صور الشعر الرمزي، ولكن مثل هذا الغموض متلف للهجاء، لأنه يقوم على الوضوح الخلاب.

لذلك كله، كان طبيعياً أن يتحول هذا الفن — الذي يقوم على نقد الحياة كما قدمنا — شيئاً فشيئاً من الشعر إلى النثر، حتى ينتهي به الوضع إلى أن يصبح فنناثر يا خالصاً في هذا العصر، فيأخذ شكل المقالة حيناً، وشكل القصة أو التمثيلية الكوميديّة في حين آخر.

الهجاء والسحر

جاء في دائرة المعارف الإسلامية في مادة « الهجاء »^(١)

« الهجاء في أصله سحر أو لعنة، واشتقاق الكلمة غير معروف بالضبط. ولكنها قد تعني في أصلها شيئاً قريباً من الرقية. وأصول الهجاء مرتبطة بفكرة قديمة، تزعم أن بعض الأفراد الذين لهم نفوذ خاص، إذا تلفظوا بكلمات، كان لها من القداسة والسلطان، ما يجعل لها تأثيراً دائماً على الأفراد أو الأشياء التي تنصب عليها كلماتهم. وعلى ذلك فقد كان الشاعر في أصل الهجاء، يطلع على الناس بقوة شعره السحرية، التي يوحىها الجن إليه ».

هذا رأى يربط بين الهجاء والسحر. ويقتضينا تحقيقه أن نتصور الظروف التي أحاطت بنشأة الشعر، والأطوار المختلفة التي تناوبته.

مر الفن الكلامي في أطوار مختلفة قبل أن يستوى شعراً كاملاً الأوزان، على الصورة التي وصلتنا قبيل الإسلام. وفق الإنسان في زمن من الأزمنة لانكاد نعرفه، ولا نستطيع تحديده، إلى ضرب من ضروب القول، امتاز من بين سائر الكلام، بنوع من التنعيم والنظام، ترتاح له الأذن، وتهتزله النفس، ففرح به، ولهج بتكريره، وتناقله الناس، فأغراه ذلك بتجويده وتنقيفه، لا يخضع في ذلك إلا لقانون الحس الفطري والذوق البدائي، والناس من ورائه يشجعونه، بما يرى من أثر كلامه فيهم، وتعلقهم به، وتردده على ألسنتهم. ولم يكن ذلك عمل فرد أو أفراد، ولكنه كان عمل الأجيال على يد طائفة ممتازة موهوبة، وجدت في نفسها القدرة على أن تصوغ تجاربها وعلمها بما يحيط بها، أحياناً في حدود مدلولات الألفاظ ومعانيها التي تواضع عليها الناس.

(١) اعتمدت هنا على النسخة الانجليزية.

ولم يكن العربى فى هذه الأزمان يفهم من مدلول الشعر ما نفهم منه اليوم، بعد أن حددناه بحدود من الأوزان والقيود . فقد كان مدلوله فى نفسه أعم وأشمل . كان الشعر عندهم ضرباً من الكلام المنغم المثير ، تتعاطاه طائفة ممتازة من بينهم ، اصطالحوا على تسميتهم بالشعراء ، لأنهم علموا ما لا يعلمون ، وفطنوا إلى ما لا يفطنون ، فقد كان كل علم شعراً — كما يقول صاحب القاموس — ولم تكن فتنتهم بهذا الضرب من ضروب القول الذى سموه شعراً ، لما فيه من وزن وتنظيم ، ولكنهم فتنوا أيضاً بما تميز به من النفاذ إلى حقائق الأشياء ، وأسرار الكون ، وحكمة الدهور . فلم يكن عجباً أن يسموا هذه الطائفة « شعراء » . فقد كانوا هم العلماء حقاً . فالحكيم الذى ينطق بالعبرة والأمثال شاعر . والكاهن الذى ينفذ إلى حجب الغيب شاعر . والرجل الذى يصور ما خفى ودق من مواطن الجمال وخفايا النفوس شاعر أيضاً . وظل الناس يحفظون هذه الآثار ويتناقلونها معجبين بها ، حتى جاء عصر التدوين ، واكتشف الدارسون أن فى شعرهم نوعاً من الوزن، حاولوا تحديده وضبطه ، فسموا ما استقام على هذه الموازين شعراً ، وأخرجوا ما لم يستقم عليها فسموه سجعاً أو أمثالاً ، وأصلحوا بعضه حتى يستقيم على ما عرفوا من أوزان . فالأمثال كقولهم : « إن البغاث بأرضنا يستنسر » ، « إن البلاء موكل بالمنطق » ، « قطعت جبهة كل خطيب » . والسجع مثل خطبة قس المشهورة إليها الناس :

إسمعوا ووعوا .
أنظروا واذكروا .

من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .
ليل داج ، ونهار ساج ، وسما ذات أبراج .
ألا إن أبلغ العذات، السير فى الفلوات ، والنظر فى محل الأموات .

إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعلوا .
 ما لي أرى الناس يذهبون ، فلا يرجعون .
 أرضوا هناك بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟
 يا معشر إباد :

أين الآباء والأجداد ، وأين المريض والعواد ، وأين الفراغنة الشداد .
 أين من بنى وشيد ، وزخرف ونجد ، وغره المال والولد .
 أين من طغى وبغى ، وجمع فأعوى ، وقال أنا ربكم الأعلى .
 ألم يكونوا أكثر منكم أمولا ؟ وأطول منكم أجالا ؟
 في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر .
 لما رأيت موارداً للهوت ليس لها مصادر .
 ورأيت قوى نحوها تمضى الأصاغر والأكابر .
 لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقيين غابر .
 أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر ^(١) .

مثل هذا كان شعراً في عرف العربي الجاهلي . والقرآن أيضاً كان شعراً في نظره . وقد احتاج النبي إلى أن ينفي ذلك أكثر من مرة ،
 ونزل به القرآن في أكثر من موضع ، مما يدل على تمكن هذا الوهم
 من نفوسهم .

ولم تكن أوزان الشعر الذي عرفه الجاهليون مستقيمة في كل الأحيان
 على المقاييس التي وضعها أصحاب العروض فيما بعد . روى ابن إسحق في بناء
 مسجد المدينة : « وارتجز المسلمون وهم يبنونه : « لا عيش إلا عيش الآخرة .
 اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة » وليس هذا عند العروضيين بشعر ولا رجز .
 ولكنه كان شعراً في عرف الجاهليين . ودليلنا على ذلك ما يروى صاحب
 السيرة من عدول النبي عنه — وقد كان لا يقول الشعر ولا يرويه — فكان

(١) راجع الملزمة الثانية من الروائع للبستاني في كلامه عن الانشاد .

يقول معهم : « لا عيش إلا عيش الآخرة . اللهم ارحم المهاجرين والأنصار (٢) »
وروى ابن إسحق في السيرة قصيدة لأمية بن أبي الصلت يبيكي زمعة بن
الأسود وقتلى بدر ، ثم يقول ابن هشام : « هذه الرواية لهذا الشعر مغلطة
ليست بصحيحة البناء » . ثم يرويها مستقيمة الأوزان عن خلف . ولعل
الرواية الأولى هي الصحيحة والرواية الثانية قد أصلحها خلف .

ولا يزال لدينا مع ذلك آثار قليلة تصور بعض الشعر الذي لم تسكتمل
أوزانه . مثل قول سويد بن أبي كاهل اليشكري :

بسطت رابعة الجبل لنا فوصلنا الجبل منها ما اتسع
ومثل قول المرقش الأصغر .

لابنة العجلان بالجو رسوم لم يتعفين والعهد قديم
ومثل قول امرئ القيس :

رب طعنة مسحنفرة ، وطعنة مشعنجرة ،
وجفنة مستحيرة ، حلت بأرض أنقره .
وقوله :

تطاول الليل علينا دمون ، دمون إنا معشر يمانون .
وإننا لقومنا محبوب

وكذلك قول الشماخ :

قالت ألا يدعى لهذا عراف لم يبق إلا منطق وأطراف
وريطتان وقيص هفهاف وشعبتا ميس براها إسكاف

وليس هذا الذي يسميه العروضيون زحافات وعلا ، إلا تفسيراً لشذوذ
هذا الشعر في بعض الأحيان ، عن الأوزان التي استبطنها العروضيون فيما بعد .
وجد الناس السجع أولاً فتغنوا به . ورددوه في حروبهم أفراداً
وجماعات ، مصوراً لما يجيش في صدورهم من حمية وحماس ، يشحنون به
الهمم ، ويشيرون به النفوس . ورددوه في عملهم اليومي ، وهم على الآبار

يتمتحن الماء ، أو في الفلوات يسوقون الإبل ، يروحون به عن نفوسهم .
ويخففون بنغائته الحلوة ووقعه المريح ما يعالجون من نصب وتعب .
وأخذ هذا السجع يتطور نحو الكمال ، حتى استوت فقره رجزاً ، مثل
قول الكاهن (١) .

« مصباحه مصباح ، وقوله صلاح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح ، وقرنه
نطاح ، ذلت له البطاح ، ماينفع الصياح ، لو وقع الذباح ، وسلت الصفاح ،
وموت الرماح » فكله من وزن مستفعلن مستفعل . وقد أعان السجع على
هذا التطور عاملان : العامل الأول ملاءمته لهذه الحركات المنتظمة ، التي
يلازمها ويرتبط بها . والعامل الثاني الترفع الذي ينشأ عن طبيعة الموضوعات
التي يعالجها ، وهي أسمى من الواقع المسف ، وأكثر تعلقاً بالخيال السابح ،
والطرب المستخف الراقص ، الذي يدفع إلى نوع من النظام الموسيقي ، في أدنى
صوره إلى الكمال .

وعند ذلك فطن الناس إلى أصل من أصول النظم أخذوا أنفسهم به ،
وهو تساوى الفقر وتوازيها . ثم راحوا يتسابقون في حدود هذا القيد الجديد ،
كلما اهتدى أحدهم إلى ضرب من ضروب الوزن مضى فيه ، وسار الناس على
أثره من بعده ، حتى استقرت الأوزان بحوراً مختلفة ، على الشكل الذي وصل
إلينا قبيل الإسلام .

ولما تعقد الفن الكلامي ، ووصل إلى هذه الدرجة من الكمال ، لم يعد
كل الناس قادرين عليه ، ولم يعد القادر عليه يستطيع أن يجمع بينه وبين عمله
اليومي ، فاقتصت بالشعر طائفة موهوبة ، وقفت عليه جهودها . وعرف الناس
لهم مكانهم منه ، فأعظموا فيهم قدرتهم عليه . وأصبح الشعر صناعة كسائر
الصناعات ، يتلمذ فيها الناشئ على الأستاذ ، فيلازمه ، ويروض أذنه وحسه
بما يعي ويروى من شعر أستاذه ، حتى تنضج فيه الملكة الشعرية .

كان الشاعر كما قلنا عالم القوم الذى ينفذ ببصيرته إلى مالايرون ، ويصوغ بحكمته تجارب الأيام وموعظة الأزمان ، ويتسلط ببيانه على نفوسهم ومشاعرهم ، فيتصرف فيها ، ويذهب بها شتى المذاهب ، غضبا وحماسة ، وصباة وحزنا . وكانت هذه الطبقة تتميز عندهم بشيء من الغرابة تشذبه عن سائر الناس . كانوا يستعينون على الشعر بالتفرد والوحدة . وكان الليل أحب الأوقات إليهم ، يعالجون فيه الإنتاج ، وقد هدا الليل ، وسادته وحشة الظلام الرهيب . وربما استجاب الشعر للشاعر واثال عليه اثثالا عند أول نداء ، وربما هاج وماج ، واضطرب اضطراب الوحش الجائع قد حبسه القفص ، يلتمس إخراجا من نفسه ، فلا يدرّ درّه ، ولا يسيل سيله . ذلك بأن فى الشعر قدرا من الإلهام غير منسكور . والنفس الإنسانية غريبة فى ملكاتها ، غامضة فى حالاتها ، وفيما يطرأ عليها من صفاء وإظلام ، وانطلاق وانقباض . فربما صفت النفس الإنسانية فانطلقت فى سحاء ، ونفذت إلى الحقائق فى سهولة ويسر . وربما انقبضت فإذا هى جذبة مظلمة لا تجود بشيء . وهذه حالات لا تجرى على نظام ثابت أو قانون معروف تستجاب به ، فليس يتنبأ للشاعر أن يصفو ويسخو حين يريد ومتى شاء ، ولا هو حين يصفو ويجود يكون صفاءه بقدر واحد فى كل حال . وقد يما قال الفرزدق : أنا أشعر الناس عند الناس ، وقد يأتى على حين وقاع ضرر أهون عندي من قول بيت شعر^(١) . لذلك دخل فى وهم هذه الطائفة من الشعراء أن الشعر يأتى من مصدر خفى ، ويهبط من عالم بعيد . فتصوروا أن وراءهم شياطين يمدونهم بما يقولون . ورسخ هذا الوهم فى نفوسهم ، واستقر فى أذهان الناس ، فأكسبهم عندهم رهبة وجلالا . واختلط فى أذهانهم الشاعر والساحر والكاهن ، فهم جميعا ينتمون إلى دولة الظلام الغامضة الرهيبة ، ومن وراء كل واحد منهم قوة خفية تمدّه وتعينه . وأعان على هذا الاضطراب والخلط

ما كان يجرى على ألسن السحرة والسكهان من كلام شعري منمق، يصوغون فيه أحكامهم ونبؤاتهم . فالسحر يقوم أول ما يقوم على التأثير في النفوس واسترهابها . والساحر يستعين على إلقاء الرهبة في صدور الناس بالبخور، وبالتلاوات الغريبة التي يسمونها « التعاويذ » أو « العزائم »، يستغل بها مافي الكلام من خواص صوتية ، فيشغل بها الحواس ، ريثما ينفذ إلى النفوس ، فيقر فيها ما يشاء ^(١) . وقد كان الشعر عندهم شديدا بهذا في تأثيره ونفاذه .

والقارىء للقرآن وللنصوص العربية القديمة يجد الأدلة الكثيرة على صحة ما نذهب إليه . فالعرب أولا لم يفرقوا بين القرآن والشعر وتعاويذ السحرة . فكان النبي في وهمهم شاعرا وساحرا وكاهنا في آن معا . تشهد بذلك الآيات القرآنية الكثيرة :

« ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا لسحر مبين »
(الأنعام ٧ مكية)

« أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين »

(يونس ٢ مكية)
« نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا »
(الإسراء ٤٧ مكية)

« ما يأتهم من ذكر من ربهم إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم . وأسروا النجوى الذين ظنوا : هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأتم تبصرون ؟ قل ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام . بل افتراء . بل هو شاعر . فيأتنا بآية كما أرسل الأولون »
(الأنبياء ٢-٥ مكية)

« وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ! لولا أنزل

إليه ملك فيكون معه نذيرا؟ أو يلقى إليه كنز؟ أو تكون له جنة يأكل منها؟
وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » (الفرقان ٧-٨ مكية)

« وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع
لمعزلون » (الشعراء ٢١٠-٢١٢ مكية)

ثم يحىء بعد ذلك بيضع آيات « قل أُنذِكم على من تنزل الشياطين؟
تنزل على كل أفك أثم . يلقون السمع وأكثرتهم كاذبون . والشعراء يتبعهم
الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون .
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد
ما ظنوا . وسيعلم الذين ظنوا أى منقلب ينقلبون . »

(الشعراء ٢٢١-٢٢٧ مكية) . (١)

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم
عما كان يعبد آبائكم . وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى . وقال الذين كفروا
للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » (سبا ٤٣ مكية)

« وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من
كان حيا ويحق القول على الكافرين » (يس ٦٩-٧٠ مكية)
« وإذا رأوا آية يستسخرون . وقالوا إن هذا إلا سحر مبين »

(الصافات ١٤-١٥ مكية)

« إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أنا لناركو
آلهتنا لشاعر مجنون » (الصافات ٣٥-٣٦ مكية)

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون هذا سحر كذاب . أجعل
الآلهة إلهًا واحدا؟ إن هذا لشيء عجاب » (ص ٤-٥ مكية)

(١) يجب ملاحظة أن الآيات ٢٢٤ — ٢٢٧ مدنية والساق لها مكي . فالملكى ينتهى عند الآية
و يلقون السمع وأكثرتهم كاذبون ، والتالى لذلك مدنى . وهو يصور شعراء النبي الذين يدافعون عن
الاسلام متنصرين من شعراء قريش الذين يهاجمون الدعوة . والآية الأولى واضحة الدلالة فى الإشارة
إلى ما كانت تعتقد العرب من أن لكل شاعر شيطانا .

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون .
 أتواصوا به ! بل هم قوم طاغون » (الذاريات ٥٢ — ٥٣ مكية)
 « يوم يدعون الى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون .
 أفسحر هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون » (الطور ١٣ — ١٥ مكية)
 « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر
 فتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين »

(الطور ٢٨ — ٣١ مكية)
 « اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر
 مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم . وكل أمر مستقر »

(القمر ٢ — ٣ مكية)
 « ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا
 غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون »
 (القلم ١ — ٦ مكية)
 « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر . قليلا ما تؤمنون .
 ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين »

(الحاقة ٤٠ — ٤٣ مكية)
 « إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين .
 وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين .
 وما هو بقول شيطان رجيم . فآين تذهبون ! إن هو إلا ذكر للعالمين »
 (التكويد ١٩ — ٢٧ مكية)



كل هذه الآيات واضحة الدلالة فى اختلاط مفهوم الشعر والسحر فى
 أوهام العرب ! وواضحة الدلالة أيضا فى أن العرب لم يفهموا من الشعر إلا أنه
 كلام منمق ، يؤثر فى المشاعر ، ويهز النفوس ويحركها . ولذلك سمو القرآن

شعراً، وسموه سحراً . والسحر لغة هو كل ما لطف مأخذه ودق . وسحر كمنع خدع . فالملحوظ في اشتقاق السحر اللغوى ، الخداع وقوة التأثير ، وهو واضح في الشعر . ويعين على ماذهب إليه قول لبيد ، وقد انقطع عن الشعر بعد إسلامه (في سورة البقرة وآل عمران غناء عن الشعر) والقارىء للسيرة يلاحظ أن النبي كان يتلو القرآن على الذين يعرض عليهم الإسلام فيتأثرون به . فكان العرب يرون أن له من قوة التأثير ما للتعاويد والسحر . وربما فرّوا من سماعه ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ، خشية التأثير به والوفوع تحت سلطانه . وهذا هو الطفيل بن عمرو السدوسى ، يقدم مكة ورسول الله فيها — وكان رجلاً شريفاً شاعراً ليبياً — فنستقبله قريش وتصدده عن لقاء النبي ، وتحذره من سماعه قائلين « وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته . وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا . فلا نكلمنه ، ولا تسمعن منه شيئاً . ويستمع الرجل إلى نصيحة قريش ، فيجعل في أذنيه قطناً وقد غدا إلى المسجد ، حتى لا يبلغه شيء مما يقول . ولكنه لا يلبث أن يقبل على النبي ، فلا يكاد يتلو عليه القرآن حتى يؤمن ^(١) . وقد وصف العرب النبي بحلاوة المنطق ، والغلبة على قلوب الرجال بما يأتى به ^(٢) ، ولم يفرقوا بين حالة الوحي التى ربما اعتزته فيها الغيوبة فتصبب وجهه عرقاً ، وبين ما يصيب السحرة والكهان من مثل هذه الحالات . وهذا هو عتبة بن ربيعة ، يلقي النبي فيقول له فيما يقول : « وإن كان هذا الذى يأتيك رئيساً لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه . فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه . وهذا هو الرسول يستمع إليه ، حتى إذا فرغ من حديثه تلا عليه : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم

(١) السيرة ٢ : ٢٢

(٢) السيرة ٢ : ١٢٦

كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) ويمضى فيها يقرأها، حتى إذا بلغ السجدة سجد، وعتبة ينصت إليه كلما أخذ، وقد ألقى يديه خلف ظهره، معتمدا عليهما، يسمع منه. فإذا عاد إلى قومه قالوا له: «سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه»^(١).

وأمام ما ذهب إليه العرب من أن القرآن شعر، اضطرب النبي أن يعدل عن الشعر، لا يقوله ولا يرويه. وإذا رواه خالف بينه، وقدم فيه وآخر، حتى يخل بوزنه. فهو إذا روى مثلاً قول ابن عباس^(٢):

فأصبح نهي ونهب العبيد بين عينيه والأقرع

يقول: فأصبح نهي ونهب العبيد بين الأقرع وعينه

وإذا ترنم مع المسلمين في بناء مسجد المدينة قال: «لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار»، وهم يقولون: «الأنصار والمهاجرة»^(٣).

* * *

وقد كان فن الهجاء من أكثر الفنون الشعرية ارتباطاً بالسحر في أوهم العرب. ذلك لأن الحفاء والغموض اللذين لازما فن الشعر، كانا أليق بالشعر، وأدنى أن يبعثا الرهبة والخوف في قلوب الناس. فقد كانت العرب تزعم أن لكل شاعر رثياً من الجن يسمونه تابعا أو هاجسا، وذلك واضح في قصصهم وفي شعرهم، وواضح في القرآن أيضا. قال عمرو بن كلثوم:

وقد هرت كلاب الجن منا وشذبنا قنادة من يلينا

وقال أبو النجم في مراجعة العجاج من أرجوزته (تذكر القلب وجهلا ما ذكر):

(١) السيرة ١: ٣١٣-٣١٤.

(٢) السيرة ٤: ١٣٧.

(٣) السيرة ٢: ١٤٢.

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
وقال الأعشى ، في هجاء جهنم ، يذكر (مسحلا) شيطانه ، وما يهدي له
هن شعر :

فلما رأيت الناس بالشر أقبلوا وثابوا إلينا من فصيح وأعجم
وصيح علينا بالسياط وبالقنا إلى غاية مرفوعة عند موسم
دعوت خليلي مسحلا ودعوا له جهنم جدعا للهجين المذمم
حباني أخي الجنى نفسى فداؤه بأفح جياش العشيات خضرم
وقال في موضع آخر يذكر شيطانه :

وما كنت شاحرداً ولكن حسبتني إذا مسحل سدّى لى القول أنطق
شريكان فيما بيننا من هوادة صفيّان جنى وإنس موفق
يقول فلا أعبي لشيء أقدر له كفاني لا عى ولا هو أخرج
وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري :

فرّ منى هاربا شيطانه حيث لا يعطى ولا شيئا منع
وأتاني صاحب ذو غيث زفيان عند إنفاد القرع
قال ليك وما استصرختُه حاقرا للناس قوال القذع
ذو عباب زبد آذيتُه خَمِط التياريرى بالقلع
زغرني مستعز بحره ليس للباهر فيه مُطْلِع
وجرير يهجو الراعى وابنه بالقصيدة المشهورة (أقلّ اللوم عاذل والعتابا)
التي يقول فيها :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
فيرحل الراعى وابنه ، حتى إذا وصل إلى قومه ، وجد الشعر قد سبقه
إليهم فيما يقول الرواة ، فيقسم الراعى ما بلّغها إنس ، وإن جرير لأشيعا
من الجن ، ويتشاءم قومه به وبابنه (١) .

ووجه الشبه بين السحر والهجاء واضح . فالسحر كلمات تقال فيصيب شرها المسحور، وينصب ما تضمنت من لعنة على المقصود بالإيذاء، والهجاء كذلك كلمات تقال فيها معنى الشر واستمطار اللعنة . والساحر يتوسل إلى شياطينه وأرواحه الشريرة أن تعينه على إلحاق الأذى بالمسحور، والهجاء يستلهم شيطانه الهجاء ويستعينها على المهجو . ولذلك غلب ذكر شياطين الشعر في الهجاء بنوع خاص كما هو واضح في الأمثلة التي قدمناها . ولأمر ما نسب الناس هذه القوة الخفية التي تمد الشاعر بالشعر للشرو لم ينسبوها للخير، فقالوا (شيطان الشعر) ولم يقولوا (ربة الشعر) كما تعود اليونان أن يقولوا .

وقد كان الشاعر إذا هجا ربحا خرج على الناس في زى غريب غير مألوف، وبالع في مسخ شكله وتشويه خلقته . قال الرافعي في تاريخ الأدب ^(١) نقلا عن أمالي المرتضى ١ : ١٣٥ (وكان القيسيون قد صدوا وجه النعان عنهم . فأرادوا تقديم لبديد ليرجز بالربيع بن زياد رجزا مؤلما مضيا — وكان هو الذي صرف الملك بالطعن فيهم وذكروا معايبهم — فخلقوا رأسه ، وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حلة . وغدوا به معهم فدخلوا على النعان ، فقام وقد دهن أحدشقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعل واحد . قال : وكذلك كانت الشعراء تفعل في الجاهلية إذا أرادت الهجاء ^(٢) .

ونقل الرافعي كذلك عن الأغاني ج ٤ : ٣ : وكان زى حسان بن ثابت في خضابه فكان يلوث شاربيه وعنقفته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم . وروى الألوسى في بلوغ الأرب ^(٣) (والشاعر منهم كان إذا أراد الهجاء دهن إحدى شقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعل واحد) . لذلك كان العرب شديدي الخوف من الهجاء . وكانوا يرون بيت الهجاء متضمنا قوة خفية ، ولعنة تصيب من تحل به . يقول مزرد بن ضرار الذبياني

(١) تاريخ الأدب للرافعي ٣ : ٢٣

(٢) وقد نقل نكسبون نفس الخبر في كتابه (تاريخ الأدب العربي) .

(٣) بلوغ الأرب ٣ : ٤٠٧

(أخو الشماخ بن ضرار) في رجل من بني عبد الله بن غطفان خدع غلاما من قومه فاشترى إبله بغم - وهو هنا يندد بخدعة الرجل، طالبا إليه أن يرد الإبل، وقد صورها مصابة بالجرب وبمختلف الأدوية، وكأنه يريد أن يشأمها وينزل بها اللعنة والبوار :

فيا آل ثوب إنما ذودُ خالد كسار اللظى لا خير في ذود خالد^(١)
 بهن دروء من نَحَاز وغدة لها ذربات كالثدى النواهد^(٢)
 جربن فما يُسَهَنَان إلا بغلقة عطين وأبوال النساء القواعد^(٣)
 فلم أر رزعا مثله إذ أتاكم ولا مثل ما يهدي هدية شاكد^(٤)

ويُريد ذلك ما روى صاحب السيرة، من أن أبا سفيان بن حرب ألقى ابنه معاوية أرضا، فرقا من دعوة خبيب، حين قال وقد أخذوه ليصلبوه « اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا » وقد كانت العرب تزعم أن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه^(١). وشبهه بهذا ما روى ابن الأثير في يوم الكلاب الثاني، من أن بني تميم أسروا أحد شعراء بلحارث، فلما أخذوه ليقتلوه شدوا لسانه قبل قتله لئلا يهجوهم^(٢). وكان الشاعر ربما عجز عن دفع مظلة، أو رد حق غصب منه، فلا يستعين على ذلك إلا بلسانه، فيهاب الناس هجاء أكثر مما يخافون سيف الفاتك الجبار. وهذا هو زهير تنهب إبله، فلا يجد في نفسه القوة على استردادها، فيهدد بالهجاء، وكأنه يهدد بشيء خطير :

لئن حللت بجو من بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فدك
 ليأتينك مني منطق قذع باق كما دنس القبطية الودك

(١) الذود الجماعة القليلة من الإبل.

(٢) الدرء جمع درم بفتح فسكون وهو الترم. النحاز دام يأخذ الدواب والإبل في رثاتها فتسعل سعالا شديدا. الغدة طاعون الإبل. الذربات جمع ذربة بفتح فكسر وهو رأس الخراج.

(٣) جربن أصابهن الجرب. يهنأ يطلن. الغلقة شجر يدبغ به. عطين معطون لأنها لا يدبغ بها إلا بعد عطنها.

(٤) الشاكد المهدى والشكد الإهداء.

(٦) ابن الأثير ١ : ٣٨١

(٥) السيرة ٣ : ١٨٢

الشاعر والقبيلة

لم يزل أمر الشعراء يكبر في عيون الناس ويعظم في نفوسهم ، حتى احتلوا من قبائلهم مكاناً ممتازاً ، وصار الناس يقدون على القبيلة مهئين إذا نبغ فيها الشاعر وذهب صيته ^(١) . وأصبح الشعراء جزءاً مهماً من النظام القبلي ، يتغنون بمفاخر القبيلة ، ويمجدون بطولتها في حروبها ، وما آثرها في سلمها ، ويصورون آمالها ومطامعها ، وما بينها وبين جيرانها من حلف أو عدا . يهاجمون هذه ويمجدون تلك . وأفراد القبيلة جميعاً من وراءهم يحفظون هذا الشعر ويزيغونه ، مفاخرين به ومكاثرين . وربما عظم أمر الشاعر في قومه ، حتى يصبح زعيمهم الذي يشير عليهم بالرأى فلا يخالفون ولا يشذون عنه . يقول ابن هشام في إسلام الأنصار ^(٢) : « فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل فواقف — وتلك أوس الله ، وهم من الأوس بن حارثة — وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت — وهو صيفي — وكان شاعراً لهم قائداً ، يستمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام » . ويقول ابن الأثير إن زهير بن جناب الكلبي كان أحد من اجتمعت عليه قضاة ، وكان يدعى الكاهن لصحة رأيه ، ثم روى له شعراً في الحماسة ^(٣) . والشعراء الذين سادوا في قبائلهم كثير ، منهم الكلجة العرفي كان أحد فرسان بني تميم وساداتها ، والجميع أحد فرسان يوم جلبة ، وبشامة بن عمرو خال زهير بن أبي سلمى ، كان أحزم الناس رأياً ، وكانت غطفان تستشيرُه إذا أرادت الغزو ، والحصين بن الحمام المري ، كان سيد قومه وذا رأيهم وقائدهم ورائدهم ، وهو من أوفياء

(١) العمدة ١ : ٤٩

(٢) السيرة ٢ : ٨٠

(٣) ابن الأثير ١ : ٢٩٩

العرب ؛ وسلامة بن جندل ، كان من فرسان العرب المعدودين ؛ وعمر بن
اللاهث السعدى ، كان من سادات قومه ؛ وكان خطيباً شاعراً وفد على النبي .
في وفد تميم ؛ وذو الإصبع العدواني شاعر فارس ، وهو أحد الحِجاء
المشهورين ؛ وعبد يغوث بن وقاص الحارثى كان فارساً ، وكان سيد قومه
بنى الحرث بن كعب وقائدهم في يوم الكلاب الثاني إلى بنى تميم ، وهو من
أهل بيت معروف بالشعر في الجاهلية والإسلام ؛ والحرث بن ولة الجرمي ،
كان هو وأبوه ولة من فرسان قضاة وأنجاده وأعلامها وشعرائها ؛
وعوف بن الأحوص ، كان أبوه الأحوص سيداً في قومه ، وذو رأيهم ،
شهد يوم جلة وهو شيخ كبير ، فكان يدبر الناس ، وكان ابنه عوف
من زعمائهم وقوادهم ؛ والمرقشان الأكبر والأصغر ، كان لهما موقع في
بكر بن وائل وحروبها مع بنى تغلب ؛ وأبو قيس بن الأسلت الأنصارى ،
كانت الأوس قد أسندت أمرها إليه وجعلته رئيساً عليها ؛ والحرث بن
ظالم المري ، كان من أشرف بنى مرة وساداتهم ، وكان أفتك الناس
وأشجعهم ؛ وضمرة بن ضمرة النشلى كان خطيباً فارساً شاعراً شريفاً
وسيداً ، وكان أحد حكام بنى تميم المشهورين ؛ وسنان بن أبي حارثة
المري كان فارساً شريفاً ، وكان رأس غطفان وبنى مرة ، وابنه هرم من
أجواد العرب ؛ وعامر بن الطفيل كان شاعراً سيداً . وغير هؤلاء كثير .
ونحن لا نقصد إلى الاستقصاء ، وإنما أكثرنا لنزيل ما استقر في أوهام
كثير من الناس من أن الشعر كان يضع من قدر الأشراف ، كما يروى في
أخبار امرئ القيس والنابغة . فالواقع أن الشاعر كان عزيزاً في قومه منيعاً ،
ما عاش مستغنياً كريماً يضع لسانه في خدمة قبيلته . وإنما كان يسقط قدره بينهم
إذا احتاج لغيره ، وقبل على شعره الهبات ، شأنه في ذلك شأن الناس جميعاً
إذا مدوا أيديهم للسؤال . ومعظم الشعراء الذين ذكرناهم فيمن سادوا مقلون^(١) .

لأن شعرهم محدود في نطاق القبيلة وما يتصل بها . روى الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء « كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، فيهاهم شاعر غيرهم ويراقب شعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (١) . » وأصدق ما يصور مكان الشاعر من القبيلة قول هذبة بن الحشرم :

وإني من قضاة من يكدها أأكده وهي منى في أمان
ولست بشاعر السفساف منهم ولكن مدره الحرب العوان
سأهجو من هجاهم من سواهم وأعرض منهم عن هجائي

وقول عبيد بن الأبرص :

إذا كنت لم تعبأ برأى ولم تطع لنصح ولا تصغى إلى قول مرشد
فلا تتقى ذم العشيرة كلها وتدفع عنها باللسان وبأليد
وتصفح عن ذى جهلها وتحوطها وتقمع عنها نخوة المتهدد
وتنزل منها بالمكان الذى به يرى الفضل في الدنيا على المتحمد
فاست وإن عللت نفسك بالمنى بذى سوءدد باد ولا كرب سيّد

وكانت القبائل تعتمد في حروبها على الشعر اعتمادها على السلاح . ولم يكن الهجاء أخف وقعا على الأعداء من وقع الرماح ، كما يقول عبد القيس ابن خفاف البرجمي :

وأصبحت أعددت للنائي — أت عرضا بريئا وعضبا صقيلا (٢)
ووقع لسان كجد السنان ورما طويل القناة عسولا (٣)

(١) البيان والتبيين ١ : ١٧٠

(٢) العضب السيف .

(٣) عسولا كثير الاضطراب جيئة وذهابا .

وكما يقول حيان بن ربيعة الطائي:

لقد علم القبائل إن قومي ذر وجود إذا لبس الحديد
وأنا نعم أحلاس القوافي إذا استعر التنافر والنشيد
وإنا نصرب الملحاء حتى تولى والسيوف لنا شهود
لقي جرير الراعي فقال له: إن أهلك بعثوك مائرا وبش والله المائرا أنت .
وإنما بعثني أهلي لأقعد لهم على قارعة هذا المربد فلا يسبهم أحد إلا سببته .
فإن على نذرا إن كحلت عيني بغمض حتى أخزيك ^(١) . وقد بلغ من حرص
المحاربين على الشعر، بما يثير في نفوسهم من حمية وحماس ، وما ينال من عدوهم ،
أن استصحبوا معهم الشعراء في حروبهم . فهذا هو صفوان بن أمية يقول
لعمر و بن عبد الله الحمصي « يا أبا عزة إنك أمرؤ شاعر فأعنا بلسانك فاخرج
معنا ^(٢) » . وقد خرج أعشى همدان على فرس بين يدي عبد الرحمن بن الأشعث ،
حين خرج من سجستان مقبلا إلى العراق ، وهو ينشد الشعر ^(٣) . وقال عمر
ابن الخطاب للنبي في أسرى بدر « يا رسول الله دعني أنزع ثيابي سبيلا لعمرو ،
ويدلح لسانه ، فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا ^(٤) » .
ولما كانت المهمة الأساسية للشاعر هي الدفاع عن القبيلة ، غلبت الحماسة
على شعرهم . حتى سمي أبو تمام مختاراته الجاهلية المشهورة بالحماسة ، لغلبة هذا
الباب على سائر شعرهم ، فقد كان الشاعر يتغنى بقوة القبيلة ، ويشيد بمجدها ،
وقديم عزها ، ومكانة منها ، ويتعرض في أثناء ذلك لأعدائها هاجيا ، ولخلفائها
مثنيا مادحا . لذلك اختلط الهجاء في العصر الجاهلي بالحماسة فكان الشعر
مزاجا قويا من الحماسة والغضب، يصور المثل العليا للحياة في ذلك الوقت
إيجابا وسلبا .

(١) الأغاني ٢٠ : ١٧٠

(٢) السيرة ٣ : ٦٥

(٣) الطبري ٥ : ١٤٧

(٤) السيرة ٢ : ٣٠٤

وكان في نُظْمهم قدر كبير من الاشتراكية التي تلغى شخصية الفرد ،
وتجعل إرادة القبيلة ومصلحتها فوق إرادته ومصلحته ، فليس له وجود حقيقى
إلا باندماجه وفنائها فيها . فكان الشعر مزاجا عجيبا من الغناء والقصص ،
لا هو بالذائق الخالص ، ولا هو بالموضوعى المحض . هو موضوعى إن اعتبرنا
فيه تصوير القبيلة وحروبها وتاريخ أبطالها ، فالشاعر هنا مؤرخ أو قصاص
يحيط بالأنساب والمثالب وتاريخ الحروب بين القبائل ، ويتسقط الأخبار من
هنا ومن هنالك ، فيها التافه ، وفيها الخطير ، وبعضها يمس الجماعة ، وبعض
بالأفراد . ثم هو شعر ذاتى إن اعتبرنا الشاعر جزءا لا يتجزأ من القبيلة ،
فهو إذ يصور هذا كله ، إنما يصور نفسه وعواطفه ، التي لا يمكن أن تعتبر شيئا
مستقلا عن عواطف الجماعة التي يعيش بينها ويفنى فيها .

وقد اعتمد الشعر في معظمه — الهجائى منه والحماسى — على العصبية
وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية ، كالكرم ، والشجاعة ، والوفاء للجاز ،
واتصال السؤدد فى الأجداد ، وعزة الأهل ، ومنعة القبيلة ، وشدة بطشها .
لذلك كان لا بد لدارس هذا الشعر من أن يحيط بالأنساب ويتصور المثل التي
مجدوها وأكبروها . أما الأنساب فهي مبسطة فى مراجعها . وأما القيم
الأخلاقية والاجتماعية فى الجاهلية فهو ما سنتحدث عنه الآن .

القيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب في الجاهلية

لم تكن الصحراء العربية سخية ولا رحيمة بأهلها ، ولم يكن أهلها رحماء بينهم ولا متنافسين . فالحياة تقوم على التنافس الشديد ، والعنف الذى لاهوادة فيه ، والقسوة التى لاتلين . والقارىء لشعرهم وآثارهم يستطيع أن يرى بوضوح أن القوة فى كل صورها هى المثل الأعلى الوحيد الذى آمنوا به وحرصوا عليه . فكل مانالته يد القوى فهو حق له . الفضيلة عندهم هى الرجولة ، والشجاعة والإقدام ، وركوب المخاطر والأهوال ، والتجديد المكاره . والخطوب . للقوى صفوة الحياة ومتاعها ، وللضعيف الفضل والعفو ، فالضعف فى كل مظهره هى الجريرة الوحيدة التى يعير بها الرجل ، ويدوق من جرائها الهون والنكال . لم يكن للخيرين الوادعين مكان . وإنما كان المكان الأول للظالم العاشم ، الذى ينتزع نصيبه من معترك الحياة جريئاً معتدياً ، ويستخلصه عزيزاً مقتدراً .

يقول زهير :

ومن لا يذُدُّ عن حوضه بسلاحه
يهدمُ ومن لا يظلم الناس يُظلم
ويقول طرفه :

فلو كنت وغللاً فى الرجال لضررتنى
ولكننى عنى الرجال جرائتى
عداوة ذى الأصحاب والمتوحد
عليهم وإقدامى وصدقى ومحتدى
ويقول سعد بن ناشب :

تُمنّنى فيما ترى من شراستى
فقلت لها إن الكريم وإن حلا
وشدة نفسى أم سعد وما تدرى
ليُلفنى على حال أمر من الصبر
ومن لم يهب يُحمّل على مركب وعر
وفى اللين ضعف والشراسة هيبة

وما بى على من لان لى من فظاظة . ولكننى فظ أ بى على القسّر (١)
أقيم صغاذى الميل حتى أرُدّه وأخطمهُ حتى يعود إلى القدر (٢)
فإن تعذلى تعذلى بى مُمرزءاً كريم ثا الإعسار مشترك اليسر (٣)
إذا هم ألقى بين عينيه عزمة وصمم تصميم السُرّ نجى ذى الأثر (٤)
يغير النفر القوى على النفر الضعيف، فيجليه عن الماء، ويغصبه ماله وإبله
ومتاعه، ويخلفه على نسائه. كما يقول معاوية بن مالك :

إذا نزل السحاب بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غصابا
ويقول جُمّع بن هلال :

وعائرة يوم الهيمسى (٥) رأيتها . وقد ضمها من داخل القلب مفرع
لها غمائل فى الصدر ليس يبارح شجى نَشَبٌ والعين بالماء تدمع
تقول وقد أفردتها من حليلها تعست كما أتعستى يا مُجمّع
فقلت لها بل تعس أم مجاشع وقومك حتى خدك اليوم أضرع (٦)
وربما أعوزهم الذهب، فأغاروا على إخوتهم وأبناء عمومتهم، كما يقول القطامى:
وكن إذا أغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول وضبة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا
ويلقى الرجل الرجل، فيسلبه إبله ومتاعه. ويرد القوى الماء فيشرب
صفوه، وينتظر الضعيف خلو المورد، قانعا بالطين والسكدر، كما يقول عمرو بن كلثوم:

(١) القسّر القهر على كره .

(٢) أقيم صغاذى الميل أى أقيم عوجه . خطم الدابة أمسكها بالخطام يقصد أنه يكبح جماحه .

(٣) العذل اللوم والتعنيف . الثا الخبر . يقول إن افترقت حفت سيرتى ولم يروا الناس عنى إلا كل
خير، وإن أثرت أشركت الناس فى ثرائى ولم أفرد به

(٤) السريجى السيف . الأثر فرند السيف .

(٥) الهيمى اسم اليوم الذى أسرت فيه هذه المرأة .

(٦) يقول لها بل تعس قومك (مجاشع) وتعت الأم التى ولدتهم ، لأنهم ضيعوك وتركوك

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدراً وطنينا
وكما يقول جرير :

إن الزحام لغيركم فتحينوا ورد العشيّ إليه يخلو المنهل
ويقضى القوى الأمر، والضعيف مخلف لا تصغى له أذن، ولا يقام
لرأيه وزن، كما يقول الأخطل :

مخلفون ويقضى الناس أمرهم وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا
وكما يقول جرير :

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
وهذا هو قُرَيْبُ بْنُ أَنَيْفٍ، لا يعير قومه إلا الحلم والإحسان، وأنهم ليسوا
أصحاب شر وعدوان :

لكنّ قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرّ في شيء وإن هاناً
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحساناً
كأن ربك لم يخلق لحشيتيه سواهم من جميع الناس إنساناً
وإنما يريد قُرَيْبُ بْنُ أَنَيْفٍ من قومه أن يكونوا كالذين وصفهم بقوله :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحداناً
لا يسألون أحاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهاناً

قال عبد الملك بن مروان لجعيل بن علقمة الثعلبي : ما مبلغ عزمك ؟ قال :
لا يُطْمَعُ فينا ولا نُؤْمَنُ . قال فما مبلغ حنناظكم ؟ قال يدفع الرجل منا
عن استجار به من غير قومه ، كدفاعه عن نفسه . قال عبد الملك مثلك من
يصف قومه . وقال عبد الملك بن مروان لابن مُسْتَطَاعِ العَنْبَرِيّ أخبرني
عن مالك بن مسمع . قال لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف ،
لا يسألونه في أي شيء غضب (١)

كان تميم بن أبي بن مقبل يهاجى النجاشى الشاعر ، فهجاه النجاشى فأوجعه ،
فاستعدى عليه عمر بن الخطاب . فاستدعاه عمر فسأله : يانجاشى ما قلت له ؟
قال : يا أمير المؤمنين قلت ما لا أرى فيه عليه بأساً . وأنشده :

إذا الله جازى أهل لؤم بذمة لجازى بنى العجلان رهط ابن مقبل
فقال عمر : إن كان مظلوماً استجيب له . وإن لم يكن مظلوماً لم يستجب له
قالوا : وقد قال أيضاً :

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدُرُونَ بَذْمَةً وَلَا يَظْلُمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ
فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك .
قالوا : فإنه قال :

وَلَا يَرُدُّونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشِيَّةً إِذَا صَدَرَ الْوُرَادُ عَنْ كُلِّ مَنَهِلٍ
قال عمر : ذلك أقل للزحام .
قالوا : فإنه قال :

تَعَاَفَ الْكَلَابُ الضَّارِيَاتِ لِحَوْمِهِمْ وَتَأْكُلُ مِنْ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ وَنَهْشَلٍ
فقال عمر : يكفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه .
قالوا : فإنه قال :

وَمَا سَمِيَ الْعَجْلَانِ إِلَّا لِقَوْلِهِ خَذَا الْقَعْبُ وَاحْلَبَ أَيُّهَا الْعَبْدُوْا عَجَلٍ
فقال عمر : كنا عبد ، وخير القوم خادمهم .
قال تميم : فسله يا أمير المؤمنين عن قوله :

أُولَئِكَ إِخْوَانُ اللَّعِينِ وَأُسُوءِ الْهَجِينِ وَرَهْطِ الْوَاهِلِ الْمَتَذَلِّ
فقال عمر : أما هذا فلا أعذركَ عليه . وجلده ثم حبسه .

فالعربُ لا يحقرون الظالم لظلمه ، ولكنهم يعيرون المظلوم لضعفه .
فهذا رجل ينتصر لجاره له نهبت إبله ، ثم يضعف عن حمايته ، إذ يعدو عليه
المغتصب بقومه ، ويسترد ما اغتصب ، فيعيره الشاعر قائلاً :

أَغْرَكَ يَوْمًا أَنْ يَقَالَ ابْنُ دَارِمٍ وَتُقَصَّى كَمَا يُقَصَّى مِنَ الْبَرْكِ أَجْرُبُ
قضى فيكم قيسٌ بما الحقُّ غيرُهُ كذلك يخزوك العزيز المَدْرَبُ

فأدَّ إلى قيس بن حسان ذو دَهَ وما نيل منك التمرُّ بل هو أطيب
فإن لاتصل رحم ابن قيس ابن مرثد يعلِّمك وصل الرحمِ غضبٌ مجرَّب
هو لاء قوم لا يسألون الضارب لم ضربت ، ولكنهم يسألون الباكى لم
بكيت . وهم لا ينظرون إلى المغتصب هذه النظرة المهينة التى نرمق بها اللص
وقاطع الطريق . ولكنهم ينظرون إليه نظرة البطولة والإعجاب ، ما دام
يسعى جهرة ، ولا يدب ديبيا ، ويتستر متزاورا .

ولم يكن يستغيث بالسلطان إلا الضعيف العاجز . أما القوى فهو كما
يقول الشَّمَيْذَرُ الحارثي :

فلسنا كمن كنتم تصيدون سَلَّةً فنقبل ضيما أو نُحْكِمَ قاضيا (١)
ولكن حكم السيف فينا مُسَلِّطٌ فرضى إذا ما أصبح السيف راضيا
وكما يقول عروة المرادى :

أرجل جُمْتى وأجر ذيل وتحمل شكَّتى أفنٌ كَيْتٌ (٢)
وأمشى فى سراة بنى غظيف إذا ما ساءنى أمر أبَيْتُ
وإن أحدهم ليرفض حكم الملوك . وهذا هو شبيب بن عوانه الطائي يقول :
قضى بيننا مروان أمْسَ قضية فما زادنا مروان إلا تنائيا
فلو كنت بالأرض الفضاء لعَفَّتْها ولكن أتت أبوابه من ورائيا
وقد صورت جماعة الصعاليك المثل العربية العليا فى ذلك الوقت أصدق
تصوير . فعروة بن الورد لا يتصور الفضيلة والمجد إلا فى ركوب المخاطر
والأهوال ، ولا يرى الحياة الهادئة الوادعة خليفة بالرجال .

لحى الله صعلوكا إذا جَنَّ ليله مضى فى المشاش ألفاً كلَّ مجزَر (٣)
يعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قِراها من صديق مُمَيَّسَّر
ينام عشاء ثم يصبح ناعساً يحْتِ الحصى عن جنبه المتعفر

(١) سلة أى سرقة فى تستر وخفاء . (٢) الشكَّة السلاح .
(٣) المشاش الأرض الوعرة . يذم الرجل الذى كلَّ همه الطعام ، يركب الوعر باحثاً عن مواضع الذبح .

يَعِينُ نَسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعِينُهُ وَيَمْسِي ظَلِيحاً كَالْبَعِيرِ الْمُحْسَرِ (١)
 وَلَكِنْ صَعْلُوكَا صَحِيفَةٌ وَجْهَهُ كَقُضْوَى شَهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَسَوِّرِ (٢)
 مُطْلَاقٌ عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمُشْهَرِ (٣)
 إِذَا بَعْدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ تَشَوُّفَ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنْظَرِ
 فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِيَةَ يَلْقَاهَا حَمِيداً وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْمَاً فَاجْدُرَ
 وَلَيْسَتْ حَيَاةُ الرِّجَالِ عِنْدَ تَأْبِطِ شَرِّهِ إِلَّا تَلْبَسُ لِلْقِتَالِ وَالْزَّالِ، وَأَضْطَرَّ ابَا
 فِي الصَّحَارَى وَالْقَفَارِ، وَيَقْظَةُ مُسْتَمِرَّةٍ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. إِنْ نَامَتْ الْعَيْنَانِ
 فَالْقَلْبُ يَقْظَانِ. فَالرَّجُلُ الْعَظِيمُ :
 قَلِيلٌ غَرَارُ النَّوْمِ أَكْبَرُ كَهْمِهِ دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يَلْقَى كَهْمِيَاً مُسْفَعَاً (٤)
 يُمَاصُّهُ كُلُّ شَيْءٍ قَوْمُهُ وَمَا ضَرَبَهُ هَامُ السَّعْدِ إِلَّا شَيْخَجَا (٥)
 قَلِيلٌ ادِّخَارُ الزَّادِ إِلَّا تَعَلَّاتُ فَقَدْ نَشَزَ الشُّرُوفُ، وَالتَّصْقُ الْمَعَا (٦)
 يَبِيتُ يَمْغْنِي الْوَحْشُ حَتَّى أَلْفَنَهُ وَيَصْبِحُ لَا يَحْمِي لَهَا الدَّهْرُ مَرْتَعَاً (٧)
 عَلَى غُرَّةٍ أَوْ نُهْزَةٍ مِنْ مَكَانٍ أَطَالَ نَزَالَ الْقَوْمِ حَتَّى تَسْعَسَعَا (٨)
 وَمَنْ يَخْزُرْ بِالْأَعْدَاءِ لَا بَدَأَهُ سِيلَتِي بِهِمْ مِنْ مَصْرَعِ الْمَوْتِ مَصْرَعَاً
 وَإِنِّي وَإِنْ عَمَّرْتُ أَعْلَمُ أَنَّنِي سَأَلَتِي سَنَانَ الْمَوْتِ يَبْرُقُ أَصْلَعَاً

- (١) المحسر المبيد وكذلك الطليح . يقول إنه لا عمل له طول يوم إلا خدمة النساء والجلوس بجوارهن . فلا يأتي المساء إلا وقد أنهكه التعب .
- (٢) القابس الذي يقتبس النار ، والمتور الذي يطلبها من بعيد . يصف وجهه بالتهلل والبريق الذي يصور المضاء والعزم .
- (٣) المنيح والسفيح والوغد أسماء قذاح لانصيب لها في الميسر ، وإنما توضع ليكثر بها القذاح . وهو يشبه زجر الناس لهذا الصعلوك بزجر اللاعين لهذا القذح الذي لاحظ له ، لا يريد أحد أن يكون من نصيبه .
- (٤) الكمي المتكبي بالسلاح أو المتستر به . المسفع المتغير لون الوجه من كثرة الأسفار .
- (٥) يماصه يجالده وينازله .
- (٦) الشرسوف مقاطع الأضلاع التي تشرف على البعان . المعاء الأمعاء . يصفه بالتحافة وبالتجلد على الجوع .
- (٧) المغنى مكان الإقامة من غنى بالمكان أقام به . يقول إن الوحوش قد أنفتحت لطول صجته لها .
- (٨) الغرة الغفلة والتهرة الفرصة . وتسمع ولي أى أنه قد نحل ومضى مظهله .

أما أبو النشاش فهو يفتخر باللصوصية ، ويعجب من الفتي يرضى بالفقر ،
والمغانم مبدولة للمغامر ، ومن راكب ليل يخفق ، وفي سواده عون لكل فاتك .
ونائية الأرجاء طامسة الصوَى خَدَتْ بِأَبِي النَشَّاشِ فِيهَا رَكَائِبُهُ (١)
ليكسب مجداً أو ليدرك منها جزيلاً وهذا الدهر جَمٌّ عَجَائِبُهُ
وسائلة ، بالغيب عني وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذهبهُ؟
فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتي ولا كسواد الليل أخفق طالبه
فالعربي يعيش للنزال والقتال ، ويحارب من أجل الحياة . المكان الأول
للفارس المقاتل ، وللسوقة حياة الصناعة والزراعة المستقرة الآمنة ، التي
لا تكلف صاحبها مغامرة ولا زحاما . وهذا هو الأعشى يعير إياداً أنهم أهل
زرع فيقول :

لسنا كمن جعلتْ إِيَادُهُ دَارَهَا تَكَرَّيْتُ تَنْظُرُ حَبَّهَا أَنْ يَحْصَدَا
قوماً يعالج قَمَلاً أَبْنَاؤُهُمْ وسلاسلاً أَجْدَاً وَبَابَا مَوْصَدَا
وعير جرير الفرزدق أن جده كان حداداً في كل مكان من النقائص ..
وعير الفرزدق آل الملهب أنهم يمنية أصحاب سفن وتجارة .

وكم لك يا ابن دُحْمَةَ من قريب مع التَّبَّانِ يُنْسَبُ وَالزِّيَارِ (٢)
يظل يدافع الأَقْلَاعَ مِنْهَا بِلْتَزَمِ السَّفِينَةِ وَالْحِثَارِ (٣)
إِذَا نُسِبَتْ عُمانُ وَجَدَتْ فِيهَا مَذَاهِبَ لِلْسَّفِينِ وَاللِّصْرَارِ (٤)
أولئك معشر أَقْعَوْا جميعاً عَلَى لُؤْمِ الْمُنَاقِبِ وَالنَّجَارِ

(١) الصوى الأعلام من الأحجار توضع على الطريق في الصحراء ليهتدى بها السالك إلى الطريق .
يقول إن هذه الصحراء غيقة لأن الرمال قد طمست أعلامها .
(٢) دحمة أم يزيد بن الملهب . التبان سراويل قصيرة يلبسها التوتية لاستتر إلا العورة . الزيار
القلس وهو جبل السفينة .
(٣) الحثار من كل شيء حرقه وما استدار به وحلقة الدبر . يقول إنه يدافع الأقلع بهذا الموضع
من جسمه .
(٤) الهراوى الملاح .

وافتنخر الأخنس بن شهاب التغلبي بأن قومه لا يركنون إلى المدن كما يفعل
المستضعفون، ولكنهم يتنقلون في الصحراء، يفرضون أنفسهم على منازل
الغيث بقوتهم، تحيط بهم خيلهم، يكرمونها فلا يسقونها إلا اللبن في الصباح
وفي المساء.

ونحن أناس لاجاز بأرضنا مع الغيث ما نألني ومن هو غالب
تري رائدات الخيل حول بيوتنا كمعزى الحجاز أعجزتها الزرائب
فيُنبقن أحلاباً ويُبسحن مثلها فهن من التعداد قب شواذب^(١)
وإنها لمفخرة للعربي أى مفخرة أن يموت على فرسه محارباً. وأبغض
شيء إلى نفسه أن يموت على فراشه. يقول السموئل بن عاديا :

وما مات منا سيد حَتَفَ أنفه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
تسيل على حر الظُّبَات نفوسنا وليست على غير الظُّبَات تسيل
وننكر أن شئنا على الناس قوهم ولا ينكرون القول حين نقول
من أجل ذلك كان أعز شيء على العربي فرسه وسلاحه. وإن أحدهم ليطعم
فرسه، ويجمع عياله. وهذا رجل من تميم يتحدث عن فرسه (سكاب) فيقول:
أبيت اللعن أن سكاب علقُ نفيس لاتعار ولا تباع
مُفدَّةٌ مكرمة علينا يجاع لها العيال ولا تجاع
بل لقد بلغ من إعزاز العربي لفرسه أن يفضلها على زوجته. فالأعرج
المعنى يخاطب زوجته حين لامته في أن سقى فرسه (الورد) بعض اللبن،
فيقول: إن فرسه يفضلها ساعة الفزع، فهي تجرى نخيب القواد، حاسر الرأس،
قد أخذ منها الفزع. أما هو فيجده طوع أمره مُيسراً يجزيه ما أسلف عنده.
وما صنع له :

أرى أم سهل ما تزال تَفَجَّعُ تلوم وما أدري علام تَوَجَّعُ
تلوم على أن أمنح الورد لقحةً وما تستوى والورد ساعة تفزع^(٢)

(١) القب جمع أقب وهو دقيق الخصر. الشراذب جمع شازب وهو الضامر.

(٢) اللقحة الناقة التي بها لبن والورد إسم فرسه.

إذا هي قامت حاسراً مُشَمَّعَةً نخب الفؤاد رأسها ما يُقْنَعُ (١)
وقت إليه باللجام مُيَسَّرَا هنالك يجزيني بما كنت أصنع
ومن أجل ذلك أحب العرب كثرة النسل واعتزوا به ، فكانت المرأة أكرم
ما تكون على زوجها إذا كثرت نسلها من البنين . فهي في نظرهم مصنع حربى
لإنتاج الذخائر . قال تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر
بينكم وتكاثر بالأموال والأولاد) :

ويقول أنسيف بن زبَّان الطائى فى وصف قومه .

أبى لهم أن يعرفوا الضيمَ أنهم بنو نائق كانت كثيراً عيالها
وقد كانت هذه الحياة المضطربة الكثيرة الحركة تتطلب الخفة والنشاط ،
لذلك كرهت العرب فى الرجل أن يكون سمينا مكتنزاً ، ورأوا فى السمن
والاكتناز آثار النعمة والترف ، والركون إلى الكسل والخمول . وأحبوا فيه
أن يكون نحيلاً خفيف اللحم ، من أثر السهر ، واقتحام الأهوال ، وطى الرمال ،
والصبر على المكارِه ساعة النزال . فالرجل ذو الخطر كما يقول تأبط شرا :

سَبَّاقَ غَايَاتِ مَجْدٍ فى عشيرته مرجعُ الصوت هَدًّا بين أرفاق (٢)
عارى الظنائب مُمْتَدِّ نَوَاشِرُهُ مدُّ لاج أدهم وأهى الماء غَسَّاق (٣)
أو هو كما تقول زينب بنت الطثرية فى رثاء أخيها يزيد بن الطثرية :

قَتَّى قَدَّرَ قَدَّرَ السيفَ لامتضائل ولا رهل لبساته وأباجله (٤)

ويقول شاعر الحماسة معتذراً عن سمنه :

ألا قالت الخنساء يوم لقيتها عهدتك دهر أطاوى السكشع أهضما
فإما ترينى اليوم أصبحت بادنا لديك فقد ألقى على البزلِ مرجحاً (٥)

(١) مشمعة مسرعة فى الجرى . يصفها فى فزعها وقد سقط الحار عن رأسها وجدت فى الحرب .

(٢) الأرفاق الرفاق يقول إن صوته يجلجل بينهم مدوياً حين يأمر وينهى .

(٣) الظنوب عظم الساق . يقول إن عظم ساقه عار من اللحم لنحوه . النواشر عروق ظاهر
الذراع . وهى ظاهرة لقلة لحمه . الادلاج سير الليل كله يقول إنه كثير الأسفار فى الليل . الأدهم الليل

المظلم . وهى الماء شديد المطر . غساق شديد الظلمة .

(٤) الأباجل العروق .

(٥) البازل الناقة التى ظهرت أنيابها وأجمع بزل .

ويقول الأعشى في مدح قيس بن معد يكرب :

ولم تسع للحرب سَعَى امرئ إذا بطنته راجعته سكر
ترى همه نظراً خصره وهمك في الغزو لا في السمن^(١)

قال عبد الملك بن مروان^(٢) ما كنت أحب أن أحدا ولدني من العرب
إلا عروة بن الورد لقوله :

أتهزأ مني أن سمئت وأن ترى بجسمي مسَّ الحق والحق جاهد
لأنى إمرؤ عافى إنانى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد^(٣)
أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد
وعكس هذه الصورة التي يحبونها في الرجل كان يستحب في المرأة . كانوا
يصورونها وقد تراكم عليها الشحم ، فهي لا تكاد تقوى على حمل جسمها .
وكانوا يرون هذا السمن مظهر الترف والنعمة . فالمرأة المترفة يحميها رجل
قوى ، يستطيع أن يدفع عنها كل عدوان ، ويكفيها أن تتمن وتهان ، ويجلب
لها الثروة والمال من كل مكان .

يقول المُرَّارُ بن مُنْقِذ في وصف النساء :

قَطُفُ المشى قريبات الخطى بُدْنَا مثل الغام المزْمَرِ^(٤)
يتزاورن ككتطاء القطا وطعن العيش حلوا غير مر^(٥)
فهي هيفاء هضم كشحها نخمة حيث يُشدُّ المؤتَزَرُ
يَبْهَظُ المِفْضَلُ من أردافها ضفَرُ أُرْدَفِ أنقاء ضفر^(٦)

(١) يقول : حين يكون هم الحامل أن ينظر في خصره ليرى هل سمن أم لا ، لا يكون همك
ولا الغزو .

(٢) العقد ألفريد ١ : ١٨١ .

(٣) يقول إن هذا الرجل المعجب بسمته إنما أمتلا لحما لأنه يأكل وحده ، أما أنا فأشرك
الناس في طعامي .

(٤) القطف المتقاربة الخطو . المزمر المرتفع . والغام إذا ارتفع رق وصفا .

(٥) القطف تقارب الخطو .

(٦) يبظه يملؤه . المفضل الثوب الذي تلبسه المرأة وحده في خلوتها .

وإذا تمشى إلى جاراتها لم تكذب تبلغ حتى تنهر
يُضْرَبُ السبعون في خلخالها فإذا ما أكرهته ينكسر
ناعمتها أم صدق برة^(١) وأب برها غير حكر
فهي خذواء بعيش ناعم برَدَ العيش عليها وقصر
ويقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تفارق أو تهونا
أخذن على فوارسهن عهداً إذا لاقوا فوارس معلّمين
ليستلبن أبدانا ويضنّ كما أضربت متون الشاريننا
إذا مارحن يمشين الهويننا بعولتنا إذا لم تمنعنونا
يقشن جيانا ويقلن لستم لشيء بعدهن ولا حيننا
إذا لم نحمن فلا بقينا ترى منه السواعد كالقُلُيا^(٢) وما منع الضعائن مثل ضرب

ولقد بلغ من تمكن صورة الشراسة والعنف في نفس العرب ، أنهم كانوا يزعمون أن المرأة إذا حملت ، وهي مكرهة على ذلك غير مدفوعة بالشهوة العنيفة ، كان ابنها أنجب . وكان الرجل منهم إذا أراد أن ينجب من زوجته أغضبها . ويقولون (إن ولد المذعورة لا يطاق) . وقد وصفت أم تأبط شرا ابنها فقالت : أما والله إنه لشيطان . ما رأيته قط مستثقلاً ولا ضاحكاً ، ولا هم بشيء مذ كان صبيّاً إلا فعله ، ولقد حملت به في ليلة ظلماء ، وإن نطاقاً لمشدود^(٣) . وفي هذا يقول أبو كبير الهذلي :

حملت به في ليلة مزّودة كرها وعقد نطاقها لم يحال^(٤)
فأتت به حش الفؤاد مبطناً سهدا إذا ما نام ليل الهوجل^(٥)

(١) الأبدان الدروع ، والبيض الخوذات .

(٢) القلون جمع قلة وهي خشبة يلعب بها الصبيان .

(٣) شرح الحماسة ١ : ٨٤ ، ٨٥ .

(٤) الزود الذعر والمزود المذعور .

(٥) حوش الفؤاد وحشيه لحده وتوقده . مبطن ضامر البطن . سهد كثير السهر . الهوجل الثقيل .

الكسلان أو الأحمق .

ولكن رحلناها نفوساً كريمة تُتَحَمَّلُ مالا يستطيع فتحمل
وقيئنا بحسن الصبر منا نفوسنا فصحت لنا الأعراض والناس هُزِّل
وإنا لنجد الجاهلي يتغزل ، فيصور صاحبه ولها زوج قد غلبه عليها ، أو
يصورها وحوها حراس غلاظ شداد ، لا يخلص إليها إلا بعد إعمال حيلة
وجهاد . حتى الحب لم يكن إلا نوعاً من المقاتلة والصراع ، ورغبة في الظفر
والامتلاك .

يقول الأعشى :

وَمَصَابِغَادِيهَ كَأَنَّ تَجَارَهَا نَشَرَتْ عَلَيْهِ بَرُودَهَا وَرَحَالَهَا
قَدِ بَتُّ رَائِدَهَا وَشَاةَ مُحَاذِر حَذَرَ أَيْقُلُ بَعِينَهُ أَغْفَالَهَا
فَطَلَّتْ أَرْعَاهَا وَظَلَّ يَحُوطُهَا حَتَّى دَنُوتَ إِذَا الظَّلَامُ دَنَاهَا
فَرَمِيتْ غَفْلَةً عَيْنَهُ عَنْ شَاتِهِ فَأَصْبَتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطَحَالَهَا

لم يكن التمدح بالخير والميسر والنساء لما فيها من متع الجسم ، ولكنه كان
عندهم مظهراً من مظاهر الفتوة والشباب — والشباب قوة ، ولا امتلاك للذة
نشوة — كان العربي يتمدح بالخير لأنها ، كما يقول عمرو بن كلثوم :

تَجُورُ بِذِي اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا
تَرَى اللَّحْزَ الشَّجِيعَ إِذَا أُمِرَّتْ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا
إِذَا صَمَدَاتٌ حُمِيَّاهَا أُرِيَا مِنَ الْفَتَيَانِ خَلَّتْ بِهِ جُنُونَا
أو كما يقول حسان :

وَنَشْرِبُهَا فَتَرَكْنَا مَلُوكَا وَأُسْدَاءَ مَا يُنْهِنُنْهُنَا اللَّقَاءُ

فالعربي إذا تحدث عن لذاته وتغنى بها ، رأيت في حديثه حماسة وقوة ، هي
حماسة الفاتك القادر ، وقوة المنتصر الظافر . يقول جمع بن هلال :

وَخَيْلٌ كَأَسْرَابِ الْقَطَا قَدِ وَزَعَتْهَا لَهَا سَبِيلٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْعُ
شَهِدَتْ وَوَعْنِمُ قَدِ حَوِيَتْ وَلَدَةً أَصْبَتْ . وَمَاذَا الْعَيْشُ إِلَّا التَّمَتُّعُ

ويقول الأعشى .

ولقد لبست العيش أجمع وارتديتُ من الإبرة
وأصبتُ لذات الشباب مُرفلاً ونعمتُ ناره
ولقد شربتِ الراح أسقى من إناء السطهر جاره

ويقول طرفة :

ألا أيها اللائي أحضر الوغى وأن أشدّ اللذات هل أنت مُخلدي .
فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرُها بما مَلَكْتَ يدي
فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عودى (١)
فمن سبق العاذلات بشربة كَمِيتُ متى ماتَ عملُ بالماء مُزبد
وكرى إذا نادى المضافُ مُحْتَبَا كسيد الغضا نَهتَه المتورّد (٢)
وتقصير يوم الدجن والدجن مُعجِبٌ بهكَنَة تحت الطراف المعمّد (٣)

ويقول حسان بن ثابت :

ومسك بصداع الرأس من سُكُر ناديته وهو مغلوب ففدّاني (٤)
لما صحا وتراخى العيش قلت له إن الحياة وإن الموت مشلان
فاشرب من الخمر ما آتاك مَشْرَبُه وإعلم بأن كلُّ عيشٍ صالح فان
ويقول المرقس الأكبر :

ياخولُ ما يدريك رُبَّتْ حُرّة خَوْدُ كريمة حَيْهًا ونسائها
قد بَتَّ مالِكها وشارب رِيّة قبل الصّباح كريمة بسبابها

(١) العود من يعوده في مرضه أو يحضره عند موته . يقول إنه لا يبالي متى يموت لولا حرصه على ثلاث خصال ، فصلها في الآيات التالية ، وهى الخمر وإغاثة المستغيث والنساء . وهذه الخصال الثلاث هى عنده لوازم الفارس وهمّ الفتى .

(٢) المضاف الذى أضافته الهموم يتأديه مستغيثا به . المحبّ الفرس المعوجة الساقين . السيد الذئب والغضا شجر . المتورد الذى يرد الماء .

(٣) الدجن الغلام . البهكة الضخمة التامة الخلق . يلهو فى هذا اليوم الجميل بمثل هذه الحسنة ، يقطع الوقت بمغازلتها تحت خباء مرفوع بالعمد . وكلما ارتفع عمود الخباء كان ذلك أضخم له وأدل على شرف صاحبه ، لأن بيوت السوق والفقراء قصيرة العمدة لاصقة بالأرض .

(٤) مغلوب غلبته الخمر . فداني جعل نفسه فداء لى مجاملة وتأديبا فقال جعلت فداك

لم يكن العربي يرى في اللذات محرماً ومباحاً . كل لذة فهي مبدولة للفائز ، وإنما يفوز باللذة الجسور . فالفرق الأصيل بين حديث الجاهلي عن اللذة ، وحديث العباسي عنها ، أنا نرى في الأول صورة الرجل المالك لها ، المتصرف فيها . بينما نرى في الثاني صورة الرجل الذي تملكه اللذة ، فيستسلم لها منقاداً .

فبينما يتسلى الجاهلي عن حبه كما يقول المسيب بن علس :

فَتَسْلُ حَاجَتَهَا إِذَا هِيَ أَعْرَضَتْ بِخَمِيصَةِ بُرْحِ الْيَدَيْنِ وَسَاعِ
وكما يقول الأعشى :

فِي طِي تَمِطِي بِبُصْلَبِ الْفُؤَادِ وَصُورِ حِبَالٍ وَكَتَادِهَا
نجد العباسي وقد ذل وهان ، وكست حديثه ضراعة من لم يعد يملك أمره ، كما يقول العباس بن الأحنف :

خَذُوا لِي مِمَّا جَرَعَتْ فِي زَجَاجَةٍ أَلَا إِنَّهَا لَوْ تَعْلَمُونَ طَبِيبِي
وَسِيرُوا فَإِنْ أَدْرَكْتُمْ بِي حُشَّاشَةً لَهَا فِي نَوَاحِي الصَّدْرِ وَجَسُ دَيْبِي
فَرُشُّوْا عَلَيَّ وَجْهِي أَفَقٌ مِنْ بَلِيَّتِي يَثْبِيكُمُ ذُو الْعَرْشِ خَيْرُ مَثَبِي
وَأِنْ أَتَمَّ جِئْتُمْ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنِي يَوْمَ الْهِنُونِ عَصِيبِي
وَصَرْتُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى قَعْرِ حَفْرَةٍ حَلِيفَ صَفِيحِ مُطَبَّقِ وَكُثْبِي
فَرُشُّوْا عَلَيَّ قَبْرِي مِنَ الْمَاءِ وَانْدَبُوا قَتِيلَ كَعَابٍ لَا قَتِيلَ حُرُوبِي

ولم يكن الكرم مدوحاً لأنه من آثار الرحمة والعطف ، ولكن لأنه مظهر السيادة والتفضل ، والقوة والاستعلاء . فالكريم هو القوى الذي يوجد مما تجدى عليه السيوف والرماح . وهو لا يدخر المال ، لأنه لا يخشى الفقر ، ولا يشفق من المستقبل ، ما دام يستطيع أن ينتزع الثروة حيث كانت ظالماً ومقتدراً .

يقول الأعشى في مدح هوزة :

وفي كل عام أنتَ جاشمُ غزوة
مورثة مالا وفي المجد رفعة
تشد لأقصاها عزيمة عزائك
لما ضاع فيها من قُروء نساءكا (١)

ويقول في مدح إياس بن قبيصة :

وفي الحرب منه بلاء إذا
فآب له أصلاً جامل
عوانٌ توقدَ أجذالها (٢)
وأسلاب قتلى وأنفالها
إلى بيت من يعتريه الندى
إذا النفس أعجبها مالها

ويقول في مدح قيس بن معد يكرب :

وأبيض كالسيف يعطى الجزيل
تضيئت يوماً على ناره
يجود ويغزو إذا ما عديم
من الجود في ماله أحتكم

ويقول المرقئ الأكبر :

أموالنا نقي النفوس بها
لا يُبْسِد الله التلبُّ والغارات إذ قال الخنيس نَعَم (٣)
من كل ما يدنى إلى الذم

وقال سيرة (٤).

أعيرتَنَا ألبانها ولحومها
نُجاني بها أكفاءنا ونهينها
وذلك عار يا ابن رِيْطَة ظاهر
وتكسبها في غير غدر أكنفنا
ونشرب من أثمانها ونقامر
إذا عُدت يوم الحفظ الدوائر (٥)

(١) القرء الحيض أو المدة بين الحيضين . يقول إن الغزو يورثك مالا ومجداً يعوضك عن هجرانك نسائك في الحرب .

(٢) العوان من الحروب التي قوتل فيها مرة . أجذال جمع جذل بكسر الجيم وهو ما عظم من أصول الشجر .

(٣) يقول إن قيمة المال في أن ينفعه صاحبه فيما يكسبه الحمد . ثم يقول بارك الله لنا في الحروب والغزوات التي نكسب منها هذا المال . النعم الجمال . يصبح الجيش حين يراها هذه نعم . فيغيرون عليها .

(٤) بلوغ الأرب ١ : ٣٠٠

(٥) يقول إنه يكسب هذه الجمال من الغارات — في غير غدر — وينفعها في الهبات وفي إكرام الضيف وفي الخمر والقمار .

ولذلك كان قبول الهبة مظهرآ من مظاهر الضعف . فالقوى لا يستجدى رزقه ، ولكنه يغتصبه اغتصابآ . وهذا هو الأعشى يعير يزيد بن مسهر ما يجرى عليه ملوك العراق من رزق فيقول :

وذرنا وقومآ إن هم وعمدوا لنا أبا ثابت واقعد فإنك ناعم
طعامُ العراق المستفيضُ الذى ترى وفى كل عام حمةٌ ودراهم
وكانت قوة البيان نظير قوة السنان . فالعربي يدفع بالهجاء ، كما يدفع
بالطعنة النجلاء .

يقول طرفه :

ويصد عنك مخيلة الرجل العريض موضةً من العظام^(١)
بحسام سيفك أو لسانك والكلم الأصيل كأرغب الكلم
ولم يزل الشاعر العربي عزيزآ فى قومه منيعآ ما تغنى بالقوة . فإذا سأل
بشعره وقبل الهبات ، سقط عن منزلة السادة والرؤساء . وإنما كان يمدح
الرجل بسيادة الآباء ، وتالد الثراء ، لأن ذلك دليل القوة العريقة فى دمه .
فليس يسود فى قومه إلا الفاتك الشجاع .

وكل ما يهجى به العربي فهو راجع إلى الضعف والخور : يهجى بخمول
النسب ، وبالبخل ، وبالفقر — يرمى المعز والشاء ، ولا يرمى الإبل .
ويركب الحمر ، ولا يركب الخيل . ويمتهن نساءه فى الرعى والسكد خارج البيت —
ويهجى بالجنب والقعود عن الغزو ، وبذهاب الهيبة بين الناس — يجلس فى نادى
القوم ، فلا يسمع صوته ولا يعتد برأيه — وبالقعود عن الثأر وقبول الدية ،
وبالعجز عن حماية الجار ، والتخلص إلى نسائه فى السلم أو الحرب ، والاعتماد
على حماية الأقربين من أبناء عمه وعشيرته ، والاشتغال بما ليس من شأن القوى
كالصناعة والزراعة والتجارة .

(١) موضة عن العظام طعنة عميقة نافذة تقطع اللحم حتى تصل إلى العظم .

فالحياة الجاهلية كانت تقوم على الكفاح الدائم ، والتنافس والتنازع ،
والمسكثرة بكل شيء حتى المصائب . وقد صور القرآن ذلك في أكثر من
موضع (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) (اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب
وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر بالأموال والأولاد) .

كانت الحياة في ذلك الوقت صريحة واضحة ، تعترف بذلك القانون الأزلى
(البقاء للأصلح) . كانوا يمجّدون القوة ، لأنها السبيل الوحيد للحياة والكمال ،
ويحتقرون الضعف ، لأنه مظهر الانحلال ، وسبيل الموت والفناء . ولم يكن
في شعرهم وقوانينهم الأخلاقية هذا الرياء والخداع الذى نسطنعه اليوم في
حياتنا ، فنحن نملاً الدنيا غناء بالرحمة والعدالة ، وحق الضعيف في الحياة .
نملاً الدنيا ضجيجاً بهذا النفاق المخدر ، في شعرنا ونثرنا وخطبنا وصحفنا ،
بينما تسير الحياة في طريقها الأزلى القديم ، لا تتحول عنه ولا تتحيد . فالواقع
يكذب آدابنا ، ويسخر من قوانيننا الأخلاقية . أما الجاهليون ، فقد كان
شعرهم وقوانينهم الأخلاقية ومثلهم العليا صوراً صريحة للحياة ، ليس فيها
غش أو خداع .

أقدم صور الهجاء

المنافرات هي أقدم ما نعرف من صور هذا الفن عند العرب . والمنافرة المحاكاة من النفر ، لأن العرب كانوا إذا تنازع الرجلان منهم ، وادعى كل واحد أنه أعز من صاحبه، تحاكى إلى عالم، فمن فضل منهما قدم نفره عليه، أى فضل نفره على نفره ^(١) . وقيل إنها سميت منافرة ، لأنهم كانوا يقولون عند المنافسة أنا أعز نفراً .

وربما وقعت المنافسة بين رجلين من أبناء القبيلة الواحدة ، يتنازعان الشرف والرياسة ، كمنافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، ومنافرة هاشم ابن عبد مناف وأمية بن عبد شمس ، وربما كانت بين رجلين من قبيلتين يمثل كل منهما قبيلته، فأيهما نفر على صاحبه كانت قبيلته أفضل ، كمنافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي .

وكان الرجلان إذا لج بينهما الخصام ، وادعى كل منهما أنه أشرف من صاحبه، تحدى أحدهما الآخر للمنافرة، كما كان يفعل الناس في العصور الوسطى، حين يتحدى الرجل خصمه للبارزة . وقد يقوم الرجل التياه بحسبه ونسبه في مجمع من القوم، فيزعم أنه أشرفهم وأعزهم بيتاً، داعياً من ينكر عليه ذلك للمنافرة . روى صاحب العقد أن وفود العرب اجتمعت عند النعمان، فأخرج إليهم بردى محرق، وقال ليقم أعز العرب قبيلة فيلبسهما . فقام عامر بن أحيمر ابن بهدلة فاتزر بأحدهما وتردى الآخر . فقال النعمان أنت أعز العرب قبيلة ؟ قال : العزة والعدد من العرب في معد، ثم في نزار، ثم في مضر، ثم في خندف، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في عوف، ثم في بهدلة . فمن أنكر هذا من العرب فلينافرنى . فسكت الناس ^(٣) .

(١) بلوغ الأرب ١ : ٣٠١ .

(٢) بلوغ الأرب ١ : ٢٨٨ .

(٣) العقد الفريد ٦ : ٨ .

وقعد رجل من بني غفار يقال له أبو معشر بن مكرز ، وكان غازيا منيعا في نفسه ، وكان بسوق عكاظ ، فمد رجله ثم قال :

نحن بنو مدركة بن خندف من يطعنوا في عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومه يُغَطَّرَف كأنه لجة بحر مشرف
أنا والله أعز العرب . فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف ^(١) .

وكان المتنافران يضربان للنفارة موعدا ، ويتراضيان بينهما حكما من كهان العرب ، أو أشرفها المسنين المعروفين بالفصاحة والحكمة والعلم بأخبار العرب وأنسابهم . وكانا يضعان بين يدي الحكم جُعلاً يخاطران عليه ، من إبل أو غيره ، يثول بعد الحكم إلى النافر . وربما نحر النافر الإبل فأطعم الناس أنفة واستكبارا . وقد يكون في شرط المنافرة شيء آخر غير المال ، كما حدث في منافرة هاشم وأمية ، فقد تنافرا على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين . فلما نفر هاشم خرج أمية إلى الشام ، فأقام بها عشر سنين ^(٢) . وكانوا يضعون بين يدي الحكم رهنا من رجالهم وأبنائهم ، ضمانا للوفاء بمثل هذه الشروط .

فإذا كان يوم المنافسة ، وافي كل منهم في قومه ، معهم شعراؤهم ، وقد خرجوا في أحسن زى ، وبدوا في أنغر مظهر وأملئة للعين ، مكاثرين بخيلهم وإبلهم وسلاحهم ، ينحرون ويطعمون ، وربما استعان أحدهما أو كلاهما ببعض مشاهير الشعراء من غير قومه . ويجلس الحكم في قبة قد ضربت عليه يسمع ويرى . فيبدأ أحدهما بتعديد مناقبه ومفاخر قومه ، وما لهم من مواقف مشهورة ، مهاجما خصمه ، مشهرا بعبوبه ، معبرا بمثالب قومه ، في كلام مسجوع ، ربما استحال بعد قليل إلى رجز . فإذا انتهى ، وقف خصمه فرد عليه ، ونقض ما قال . ثم يتداول الشعراء الإنشاد متبادلين ، شاعر من هذا الطرف ، وشاعر من ذاك ،

(١) ابن الأثير ١ : ٣٥٩

(٢) النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم المبقرى ص ٢١ .

يتملقون الحكم بمدحه ، ويظهرون مفاخر صاحبهم ومآثر قومه .

وقد اشتهرت عكاظ بمثل هذه المحافل . قال صاحب لسان العرب (قال الليث : سمي عكاظ عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار ، أى يدعك ، وعكظ فلان خصمه بالدد والحجج عكظا ... وقال غيره : عكظ الرجل دابته يعكظها عكظا إذا حبسها . وتعكظ القوم تعكظاً إذا تحبسوا ينظرون في أمورهم . قال وبه سميت عكاظ ... وحكى السهيلي : كانوا يتفاخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا ، ويقال عاكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة . فسميت عكاظ بذلك . وعكاظ اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية . وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ، ويتفاخرون فيها ، ويحضرها شعراؤهم ، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، ثم يتفرقون ... وقال الأصمعي عكاظ نخل في واد ، بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق العرب ، بموضع منه يقال له الأثياد) .

المنافرة خليط من النثر والشعر كما رأينا . ولكنه نثر منمق ، يكاد يصل في جماله وموسيقاه وتوازي فقره وجمال صوره إلى درجة الشعر ، بل هو في حقيقته شعر ، على ما بينا من مفهوم الشعر عند الجاهلين . وكانت الناحية البلاغية هي أبرز ظاهرة في هذه المجتمعات . فالحكم الأخير يتوقف إلى حد كبير على حسن العرض ، وبلاغة الصياغة ، وقدرة المنافر ومن في جانبه من الشعراء على التأثير في الحكم وفي جمهور النظارة .

فالمنافرة هي الصورة البدائية الساذجة لفن الهجاء . والجانب الهجائي منها يعتمد على المثالب الشخصية ، ويدور حول الفرد ، ولكنه لا يرتفع إلى الحياة في أفقها الواسع ، ودأثرتها السكيرة . وقد اعتبرناها صورة بدائية ساذجة ، لأنها لا تسمو من ناحيتها الأدبية إلى الخلق والابتكار ، ولكنها تعتمد على تقرير الواقع ، وصياغته في عبارة منقمة ، فهي هجاء شخصي في أحط صورة وأدنى درجاته . ثم هي لمافها من عنصر الارتجال ، لا تسمو إلى مرتبة الفن الرفيع ، وليس فيها أثر

الجهد والحرص على التجويد . ولكنها تعتمد في معظم الأحيان على حضور البدئية وسرعه الرد ، وتصيد كل شاردة ، وانتهاز كل فرصة تبدر من الخصم . فهي تأخذ شكلها من الظروف المحيطة بها ، في هذا الحوار العنيف ، والنقاش الحاد القصير . ومعظم قيمتها الأدبية راجعة إلى ما تشتمل عليه من تصوير للقيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب في وضوح وفي صراحة .

وكان يحكم بين الناس في هذه المنافرات طائفة من سادة العرب يسمونهم الحكام . وكان لكل قبيلة حكم يرجعون إليه فيما ينشب بينهم من خلاف ، وما يعوزهم من رأى ، في الحرب والسلام^(١) .

وقد اشتهرت هذه الطائفة برجاحة العقل وفصاحة اللسان والشجاعة والنجدة ، ورويت عنهم الأمثال والشعر الحكيم . وكانوا أعلم أهل زمانهم بأنساب الناس ومنازلهم . يقول حُرَيْثُ بْنُ عَتَّابِ النَّهْأَنِي :

تعالوا أفاخركم أعباء وققعس^٢ إلى المجد أدنى أم عشيرة حاتم
إلى حكم من قيس عيلان فيصل^٣ وآخر من يحيى ربيعة عالم^(٢)
ويقول مسكين الدرامي^(٣) :

كلانا شاعر من حي صدق ولكن الرحى فوق الثفال
وحكم دغفلاً وارحل إليه ولا ترح المطى من الكلال
تعال إلى بني الكواء يقضوا بعلمهم بأنساب الرجال
تعال إلى ابن مذعور شهاب ينسب بالسوافل والعوالى
وعند الكيس التمرى علم ولو أضحي بمنخرق الشمال

واشتهرت تميم وقيس بحكامها ، فكانت العرب تلجأ إليهم في منازعاتها . فمن حكام تميم الأقرع بن حابس ، الذى قضى في منافرة جرير بن عبد الله

(١) بلوغ الأرب ١ : ٣٠٨ .

(٢) يقصد هرم بن قطبة ودغفلا .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٢٦ .

البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي . وقد أدرك النبي وأسلم ، وهو من المؤلفة قلوبهم . ومنهم أكتثم بن صيفي ، وهو مشهور بأمثاله ، منها « ويل للشجى من الخلى » ومنها « مقتل الرجل بين فكيه » ومنها « لم يهلك من مالك ما وعظك » ومنهم حاجب بن زرارة ، الذي رهن كسرى قوسه . ومن حكام قيس المشهورين هرم بن سنان الفزاري ، ممدوح زهير ، وهو الذي انتهى إليه الحكم في منافرة علقمة وعامر . ومنهم عامر بن الظرب العدواني ، يروى من أمثاله قوله « رب أكلة حرمت أكلات » وقوله « الرأى نائم والهووى يقظان » وقوله « رب زارع حاصد سواه » ومنهم غيلان بن سلبة الثقفي ، زعموا أنه كان يقسم نفسه بين ثلاثة أيام ، يوم يحكم بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر في جماله . وقد لجأ إليه عامر وعلقمة في منافرتهم فيمن لجأ إليه من الحكام .

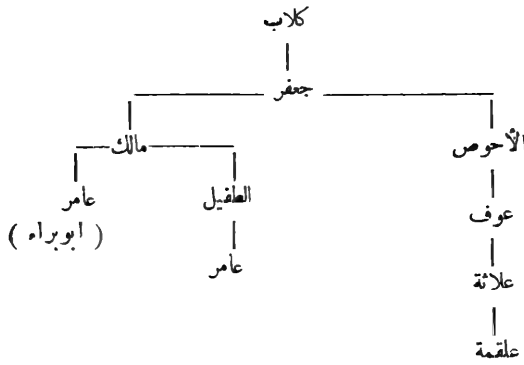
وكان المتنافرون ياجثون في بعض الأحيان إلى الكهان ، فيقضون بينهم بكلام مسجوع ، مثل قول الكاهن الخزاعي في منافرة هاشم وعبد شمس : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر . لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر »^(١) . ونحن ننقل هنا مثلين للمنافرة ، أحدهما يصور المنافسة بين رجلين من قبيلة واحدة ، يتنازعا الشرف والرياسة ، وقد اخترنا لتصوير هذا النوع منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة . والمثل الآخر يصور المنافسة بين قبيلتين ، ممثلتين في رجلين من ساداتهما ، وقد اخترنا له منافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي .

منافرة عامر وعلقمة^(٢)

عامر وعلقمة كلاهما من كلاب بن عامر بن صعصعة . وهما يلتقيان عند الجد الثالث لعلقمة والجد الثاني لعامر . وقد كانت السيادة في بني كلاب خاصة ،

(١) بلوغ الأدب ١ : ٣٠٨

(٢) الاغانى ١٥ : ٥٥ - ثعلب (شرح ديوان الاعشى) ص ١٦٥ - بلوغ الأدب ١ : ٢٨٧ .



وفي عامر بن صعصعة عامه، للأحوص جد علقمة. فلما مات الأحوص انتقلت السيادة إلى ابن أخيه عامر بن مالك، وهو أبو براء ملاعب الأمنة. فلما أسن أبو براء تنازع عامر وعلقمة الرياسة، عامر يرى أنها يجب أن تنتقل إليه لأنها في عمه، ثم هو يرى نفسه أحسن بلاء في الحرب من علقمة. وعلقمة يرى أنها كانت في جده الأحوص، وأنها انتقلت إلى أبي براء بسببه، لأنه ابن أخيه. وشرى الشر بينهما حتى صار إلى المنافرة. تراجعاً أول الأمر متفاخرين ينثر مسجوع، ثم تنافرا بخيرهما وأقربهما للخيرات على مائة من الإبل. وانحاز الأعشى وليد إلى عامر، والحطيئة وبعض بني الأحوص، وفيهم السندري، إلى علقمة. واحتكموا إلى خزيمة بن عمرو بن الرعيد، ثم إلى أبي سفيان بن حرب، ثم إلى أبي جهل بن هشام بن المغيرة، ثم إلى غيلان بن سلمة الثقفي، ثم حرملة بن الأشعر المريء، وكلهم يتخرج من الحكم فلا يقول بينهما شيئاً، إلى أن صار الأمر إلى هرم بن سنان، فاحتال للأمر، واستدعى كلا من الخصمين على حدة، فكان يصور لكل واحد منها أن خصمه أفضل منه، فيتخيل أحدهما أنه سيفضل صاحبه ويرجوه أن لا يفعل، وأن يكتفى بالتسوية بينهما. فلما كان يوم الحكم قام هرم فسوى بينهما قائلاً (أتما كركبتى البعير الأدرم الفحل، يقعان الأرض معاً، وليس فيكما واحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه، وكلاكما سيد كريم). وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى جزر كان قد

أوصاهم أن ينحروها إذا نطق بحكمه، فنحر بعضهم عشرة عن علقمة، ونحر بعضهم عشرة عن عامر، وفرقوا بين الناس.

بدأت المنافرة حواراً عذيفاً بين عامر وعلقمة.

قال عامر: والله لأننا أكرم منك حسباً، وأثبت منك نسباً، وأطول منك قصباً.

قال علقمة: والله لأننا خير منك ليلاً ونهاراً.

قال عامر: والله لأننا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك.

قال علقمة: أنا فرك أنى لبر وأنتك لفاجر، وأناى لولود وأنتك لعافر.

وأنى لعف وأنتك لعاهر، وأناى لواف وأنتك لغادر.

قال عامر: أنت رجل ولود وأنا رجل عقيم، وقد وفيت لبنى عمرو

ابن تميم، وقد زعموا أنى غدرت بهم، وهم كاذبون. ولكنى أنا فرك أنى أنحر منك للقاح، وخير منك فى الصباح، وأطعم منك فى سنة الشياح.

قال علقمة: أنت رجل تقاتل والناس يزعمون أنى جبان، ولأن تلقى

العدو وأنا أمامك، أعزك من أن تلقاهم وأنا خلفك. وأنت رجل جواد

والناس يزعمون أنى بخيل، ولست كذلك. وأنت تعطى العشيرة إذا ملت.

ولكنى أنا فرك أنى خير منك أثراً، وأحدمك بصرأ، وأعز منك نفراً،

وأشرح منك ذكراً.

قال عامر: أنت رجل ثار. وليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك

فى العدد. وبصرى ناقص وبصرى صحيح. ولكنى أنا فرك أنى أسن منك

سنة، وأطول منك قة، وأحسن منك لمة، وأجعد منك جمّة، وأسرع منك

جمّة، وأبعد منك همة.

قال علقمة: أنت رجل جسيم وأنا رجل قصيف. وأنت جميل وأنا

قييح. ولكنى أنا فرك بآبائى وأعمامى.

قال عامر: أبأوك أعمامى. ولم أكن أنا فرك بهم ولا بمن ذكرت.

ولكنى أنا فرك أنى خير منك عقبأ، وأطعم منك جدبأ.

قال علقمة : قد عرفت أن لك عقباً في العشيرة ، وقد أطعمت طيباً .
ولكني أنا فرك أني خير منك وأولى بالخيرات .
فنافره عامر على خيرهما وأقربهما للخيرات .
وقد عظم أمر هذه المنافرة ، فكانت أشهر ماجرى في الجاهلية من منافرات ،
لكثرة من اشترك فيها من الشعراء والحكام .
قال أحد بني الأحوص يؤيد علقمه ، موجهاً خطابه إلى أبي جهل بن هشام
ابن المغيرة حين احتكموا إليه :

يا القريش بينوا الكلاما
إنا رضينا منكم الأحكاما
فبينوا إن كنتم حُكَّامًا
كان أبونا لهم إماما
وعبد عمرو منع الفُئاما
في يوم نخر معلم إعلاما
يحسن فيه الكر والإقداما
ودعاجاً أقدمه إقداما
لولا الذي أجشمهم إجماما
لاتخذتهم مذحج أنعاما
وقال ليبد حين احتكموا إلى هرم مؤيداً عامراً :

يا هرم وأنت أهل عدل
هل ينزعن حسبي وفضلي
هل يذهبن فضلهم بفضلي
أن نفر الأحوص يوماً قبلي
ليذهبن أهله بأهلي
لا تجمعن شكلهم وشكلي

ونسئل آبائهم ونسلى

قد علموا أنا كرام الطبل

وكان مما أجاب به قحافة بن عوف بن الأحوص :

نهنه إليك الشعر بالييد

واصدد فقد ينفعك الصدود

ساد أبونا قبل أن تسودوا

سوددكم صغيرة زهيد

وبرز السندرى متصديا لتأييد علقمه، فقبل « من ذا » ، فقال :

أنا لمن أنكر صوتى السندرى

فإذا حمى الوطيس واحتدم النقاش، انتقلوا من الرجز إلى الشعر ، فينشد

لييد قصيدة من الطويل :

بلى إننا ما كان شرًّا لمالك فلا زال فى الدنيا ملوماً ولأئماً

ثم ينشد الخطيئة قصيدتين، إحداهما من الطويل، والأخرى من البسيط، وهما :

ألا آل ليلي أزمعوا بققول ولم ينظروا ذا حاجة لرحيل

يا عام قد كنت ذا باع ومكرمة لو أن مسعاة من جاريته أمم

ويقبل الأعشى وقد انفض الناس، بعد أن سوى هرم بين المتنافرين، فيجدد

المعركة بقصيدتين، يزعم فيهما أن عامراً قد نفر على علقمة . إحداهما من الطويل :

لعمري لئن أسمى من الحى شاخصاً لقد نال خيصاً من عَفَيرة خائصاً

والأخرى من السريع :

شاكك من قتلة أطلالها بالشط فالوتر إلى حاجر

وهو بحر نادر من الشعر الجاهلى . بل هو غريب على شعر الأعشى

نفسه، لم يرو له فيه غير هذه القصيدة . ويروى صاحب الخزانة أن النبى قد

نهى عن روايتها ^(١) . وقد نسي الناس حكم هرم، وشاع بينهم قضاء الأعشى ،

وعظم وقعه على علقمة، حتى بكى من قوله :

تبيتون في المشتى ملاء بطوتكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا
فكان يقول « قاتله الله ؟ أنحن كذلك ؟ ! » .

منافرة جرير البجلي وخالد السطبي (١) .

كان سبب المنافرة أن كلبا أصابت رجلا من بحيلة ، فوافوا به عكاظا .
فمر بالبجلي رجل من قومه يأكل تمرا ، فتناول الأسير من ذلك التمر شيئا
ليتحرم به ، فغذبه الكلب ، فكان بينه وبين البجلي نقاش حاد ، انطلق على أثره
يتنقل بين أحياء من قومه ، يستنفرهم لفك صاحبهم فلا ينهضون ، حتى انتهى
إلى جرير بن عبد الله البجلي ، من سراة قومه ووجهائهم المترفين — كان يتخذ
التياب المصبغة والقباب الحمر — فثار لنصرة الرجل ومعه رهطه ، حتى هجم
على منازل كلب بعكاظ ، فانتزع منهم الأسير .

قال جرير : زعمتم أن قومه لا يمنعونه .

قالت كلب : إن رجالنا خلوف .

قال جرير : لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئا .

قالوا : كأنك تستطيل على قضاة . إن شئت قايسناكم المجد .

قال : ميعادنا من قابل سوق عكاظ .

فجمعت كلب وعلى رأسهم زعيمهم خالد بن أرطاة . وجمعت قسر وعلى

رأسهم سيدهم جرير بن عبد الله . ثم قام خالد فقال لجرير : ما تجعل ؟

قال جرير : الخطر في يدك

قال خالد : ألف ناقة حمراء في ألف ناقة حمراء .

قال جرير : ألف قينة عذراء في ألف قينة عذراء . وإن شئت فألف

أوقية صفراء لألف أوقية صفراء .

قال خالد : من لى بالوفاء ؟

قال جرير : كفيلك اللات والعزى وأساف نائلة ويعوق وذو الخلصة

ونسر . فمن عليك بالوفاء ؟

قال خالد : ودّ ومناة وقلس ورضا .

قال جرير : لك بالوفاء سبعون غلاماً مُعَمَّاً مُخَرِّلاً ، يوضعون على أيدي الأاكفاء من أهل الله .

فوضعوا الرهن من بحيلة ومن كلب بين يدي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، من أشرف قريش ، وحكموا الأقرع بن حابس .

قال الأقرع : ما عندك يا خالدا ؟

قال : نزل البراح ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح .

قال الأقرع : ما عندك يا جرير ؟

قال : نحن أهل الذهب الأصفر ، والأحمر المعتصر ، نخيف ولا نخاف ،

ونطعم ولا نستطعم . ونحن حى لقاح ، نطعم ما هبت الرياح . نطعم الشهر ، ونضمن الدهر . ونحن الملوك لقسر .

وقام شاعر بحيلة يشيد بقومه ويتوسل إلى الحكم بما بين بحيلة ونزار من

قراية ، فكان مما قال :

يا أقرع بن حابس يا أقرع

إني أخوك فانظرن ما تصنع

إنك إن يصرع أخوك تصرع

إني أنا الداعي نزارا فاسمعوا

إلى باذخ من عزة ومفزع

به يضرب قادر وينفع

وأدفع الضيم غداً وأمنع

عز ألد شامخ لا يقمع

يتبعه الناس ولا يستتبع

هل هو إلا ذنبٌ وأكرعُ

وزمعٌ مؤشَّبٌ بمجمع

وحسبٌ وغُلٌّ وأنفٌ أجدع

ولا يزالون في أخذ ورد ، وجذب وشد ، حتى تنتهى المنافرة بحكم الأقرع

لجرير ، حيث يقول : واللات والعزى ، لو فاخرت قيصر ملك الروم ، وكسرى

عظيم الفرس ، والنعمان ملك العرب ، لنفرتك عليهم .

الهجاء الشخصي

إلى جانب هذا اللون الساذج من ألوان الهجاء، عرف الجاهليون ألواناً أخرى من الهجاء، هي الهجاء الشخصي والهجاء السياسي. ثم عرفوا بعد ذلك لوناً آخر ظهر بظهور الإسلام، وما صحبه من حركة فكرية، يمكن أن نسميه الهجاء الديني. أما الهجاء الشخصي فقد كان مثاره هذه المنازعات الفردية والخلافات التي لا بد أن تنشأ من احتكاك الناس وتعارض مصالحهم، في بيئة تقوم على القتال والنزاع في سبيل الحياة. ويميل الكثير من النقاد إلى الغرض من قيمة هذا الفن في جملة، واعتباره أخطر أنواع الهجاء.

وربما لم يكن ذلك صحيحاً على إطلاقه. فقد استطاع كثير من الهجائيين المتأخرين في الأدب العربي، أن يفتنوا في الهجاء الشخصي، ويباغوا به درجه ممتازة. ولكننا نلاحظ أن هذا الفن في معظمه كان متخلفاً عند الجاهليين، على كثرة ما أنتج الشعراء فيه. فقد غلبت عليه العجلة التي أبعدته عن الروية والجهد الذي يبذله الفنان في فنه، فكان تصويراً سريعاً حاراً لعاطفة الغضب، التي تنحرف بطبعها عما ينبغي للفن من أناة، وكان لذلك صورة خشنة مهوشة للتجربة، لم يحتزنها الحس الفني، ليعيد عرضها بعد أن يستثيرها من مكمنها، وقد أضفى عليها من خياله وسحره.

وربما كان لهذا الشعر قيمته الكبيرة عند مؤرخي الأدب، لما فيه من تصوير للقيم الأخلاقية والاجتماعية في ذلك العصر. ولكنه مع ذلك قليل الغناء عند طالبي اللذة الفنية، لا يجدون فيه ما ينشدون من متعة. فالمشاركة في الشعور بين القارئ والشاعر ضعيفه أو مفقودة، وهي من أكبر العناصر التي تقوم عليها المتعة الفنية. ثم هو بعد ذلك صورة مضطربة هائجة غير مهذبة للغضب، قليل الحظ من الخيال، فقير في الصور، محدود المعاني.

فالهجاء هنا سجل لمعركة بين فردين يتشامتان، ترى فيه كل ألوان

العنف الذى يصحب مثل هذه الظاهرة. فيه الاستعلاء على الخصم بكل شيء —
بالمال وبالأهل والحسب — وفيه السباب — المقذع فى كثير من الأحيان ،
والذى يتعرض لأغلظ العورات دون احتشام — وفيه التعيير والتهديد .
وأكثر ما نجد فيه نفراً كثيراً ، وتهويلاً من القدرة على البطش بالسيف ،
وبالشعر الذى يبقى ميسمه ، ويجرى على كل لسان . وحيثما قرأنا لم نجد إلا إعادة
وتكراراً لهذه المعانى ، لا يخرج الشعر عنها ولا يتجاوزها .

يقول المزرد بن ضرار الديباني (أخو الشماخ) :

يهزون عرضى بالمغيب ودونه لقرمهم مندوحة وما كل (١)
على حين أن جربت واشتد جانبي وأنج منى رهبة من أناضل (٢)
وجاوزت رأس الأربعين فأصبحت قناتى لا يلسنى لها الدهر عادل
فقد علها من سالف الدهر أننى معن إذا جد الجراء ونابل (٣)
زعيم لمن قاذفته بأوابد يغنيها السارى وتحدى الرواحل (٤)
مذكرة تألنى كثيراً روايتها ضواح لها فى كل أرض أزامل (٥)
تسكر فلا تزداد إلا استنارة إذا رازت الشعر الشفاء العوامل (٦)
فن أرمه منها بيت يلح به كشامة وجه ليس للشام غاسل
كذاك جزائى فى الهدى وإن أقل فلا البحر مزوح ولا الصوت ساحل (٧)
ومع ذلك ، نعث فى بعض الأحيان بشعر من هذا الباب ، لا يخلو من بعض

المتعة الفنية ، مثل قول ذى الأصبع العدواني فى هجاء ابن عم له :

- (١) القرم الأكل بمقدم الفم . يقول قد كان لهم مندوحة ومنصرف عن أكل عرضى فى غيابة .
- (٢) أنج منه الذين يناضلوه صيرهم إلى أن ينبجوا كالكلاب .
- (٣) المعن المعترض فى كل شيء . والجراء الجرى . والنابل الحاذق بالنبل . يصف نفسه باللدن فى الخصومة والحذق بإصابة الخصم .
- (٤) الأوابد الوحوش وغرائب الكلام ، لأنه يشرذم فى كل مكان .
- (٥) أزامل جمع أزل ، وهو كل صوت مختلط .
- (٦) رازت الشفاء الشعر جربته . العوامل النواطق بالشعر .
- (٧) الهدى التهادى بالشعر ، يقصد المهاجاة . الصلح بجة الصوت . يقول إنه لا يكل ولا ينضب معينه .

ولى ابن عم على ما كان من خلق
أزرى بنا أننا شالت نعماتنا
يا عمرو إن لاتدع شتمى ومنقصتى
لاه ابن عمك لأفصلت فى حسب
ولا تقوت عيالى يوم مَسْغَبَةٍ
إنى لعمرك ما بآبى بذى غَلَقْ
ولا لسانى على الأدنى بمنطلق
عَفْ نَدُودٌ إذا ما خفت من بلد
عنى إليك فما أُمى براعية
كل أمرىء راجع يوما لشيئته
إنى أبى أبى ذو محافظة
لا يُخرج القسر منى غيرَ مَأْيَةٍ
وأنتم معشر زَيْدٌ على مائة
فإن عرقتم سبيل الرشد فانطلقوا
ماذا على وإن كنتم ذوى كرم
لو تشربون دمي لم يَرَوْ شاربكم
يا عمرو لو لبث لى ألفيتنى بشراً
والله لو كرهت كفى مصافى

مختلفان فأقلبه وقلبنى (١)
نقالتى دونه بل خلته دونى
أضربك حتى تقول الهامة اسقونى (٢)
عنى ولا أنت دِيَّانى فتخزونى
ولا بنفسك فى العزاء تكفينى
عن الصديق ولا خيرى بممنون
بالفاحشات ولا فتكى بمأمون
هُوناً فلست بوقاف على الهون
ترعى المخاض وما رأى بمغبون
وإن تخالق أخلاقاً إلى حين
وابن أبى أبى من أيدين
ولا ألين لمن لا يتبغى لىنى
فأجمعوا أمركم كلاً فكيدونى
وإن جهلتم سبيل الرشد فأتونى
أن لا أحبكم إن لم تحبونى
ولا دماؤكم جمعاً تُروينى
سمحاً كريماً أجازى من يجازينى
لقلت إذ كرهت قربى لها بينى

(١) أقلبه أكرهه وأقلى الكراهية .

(٢) الهامة طائر كانت ترعى العرب فى أساطيرها أنه لا يزال يصبح على قبر المقتول قائلاً (اسقونى

اسقونى) حتى يؤخذ بثأره . يهدده بأن يضربه حتى يقتله .

وربما أعوزت المعاييب الشاعر فاختلق الكذبة الغليظة والفرية المندية ، ثم لم يزل يكررها في شعره حتى تروج عند الناس وتسمر بها نواديهم . وذلك شر ما يخافه الناس من الشعراء .

أغار رجل من بني أسد على بني عبد الله بن غطفان ، فأخذ فيما غنم إبل زهير وراعيها يساراً ، فتهده زهير في شعر يقول فيه :

يا حار لا أرمين منكم بداهية لم يلقها سوقه قبلي ولا ملك (١)
 اردديساراً ولا تعثف عليه ولا تمعك بعرضك إن الغادر المعك (٢)
 ولا تكوننن كأقوام عليتهم يأسوون ما عندهم حتى إذا شهكوا
 طابت نفوسهم عن حق خصمهم مخافة الشر فارتدوا لما تركوا (٣)
 تعلم من هال عمر الله ذا قسما فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك (٤)
 لئن حلت بجو من بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فدك
 ليأتينك مني منطق قدع باق كما دنس القبطه الودك (٥)

فلم يلتفت الرجل لقول زهير ولم يبال به . فاتهم زهير بني أسد بأنهم إنما يضمنون يسار راعي إبله لأن لنسأهم حاجة فيه ، مفصلاً في تصوير ما يكون بينه وبينهم من أدق الحركات الفاضحة ، وختم شعره بقوله (٦) :

فأبلغ إن عرضت لهم رسولا بني الصيداء إن نفع الجرار
 بأن الشعر ليس له مرد إذا ورد المياه به التجار

(١) يا حار يريد الحارث بن ورقاء الذي هجوه ويتهده .

(٢) الملك المطل . يقول له اردد هذا الراعي ولا تمطل فالطل غدر .

(٣) يقول له لا تكن كأقوام يطلون ثم لا يستطيعون المضى في المطل فهم يرتدون لما تركوا إذا نهكهم الهجاء .

(٤) الذرع قدر الخطو . يقول له قدر بخطوك ولا تكلف نفسك مني مالا تطيق .

(٥) يقول له لئن حلت في هذا المكان في ملك عمرو بن هند ولم تستطع يدي أن تناك ليدركنك

هجائي . القبطية ثياب بيض من الكتان كانت تصنع في مصر . الودك الدهن . وهو أظهر في الثياب البيضاء .

(٦) راجع الشعر في ديوان زهير ص ٣٠٠ ط دار الكتب المصرية .

فجزع الرجل ورد الإبل على زهير مخافة أن يذهب شعره في الناس .

وبعض هذا الهجاء الشخصي يتصل بالقبائل وما بينها من خصومات، فيكون الهجاء في ظاهره موجهاً لشخص، وهو في حقيقته موجه للقبيلة ممثلة في هذا الفرد الذي هو زعيمها أو شاعرها . وهنا يختلط الشتم والسباب بالتليح إلى أسباب الخصومة بين القبيلتين، فيجد الهجاء بين يديه مادة خصبه تعينه على المضى في قصيدته حتى تبلغ عشرات الآيات . فنحن نعرف قصيدة للأعشى يهجو فيها جهنم يزيد على الستين بيتاً ^(١) . وكلا الشاعرين من قيس بن ثعلبة البكرى . وقد اشتدت الخصومة بينهما فكان كل شاعر منهما يدافع عن قومه، ثم اتصل الهجاء بينهما فانتقل إلى شخصيهما، ولكنه ظل مع ذلك يحمل آثار الخصومة الأولى .

يقدم الأعشى لقصيدته بغزل يشير فيه إلى صاحبة غير مقصودة مشيراً إليها : (تَيًّا) .

أَلَا قُلْ لَتَيَّا قِيلَ مَرَّتْهَا اسْلَمَى تَحِيَّةَ مُشْتَاقٍ إِلَيْهَا مُتِمِّمٌ
ولا يكاد يذهب في هذا الغزل إلى أكثر من خمسة أبيات، ينتقل منها إلى وصف الناقة، فيشبهها بحمار وحشى، يمضى في تصوير نشاطه على طريقة الجاهليين، فيطيل، حتى تصل المقدمة إلى أربعة وعشرين بيتاً . فإذا فرغ منها تخلص إلى الهجاء بقوله :

فَدَعُ ذَا وَاسْكُنْ مَا تَرَى رَأَى كَاشِحٍ يَرَى بَيْنَنَا مِنْ جَهْلِهِ دَقُّ مَنَشِمٍ
ثم هو يتجه إلى خصمه قائلاً : لستُ أعرف لنفسى ذنباً عند عُـمَيْسِرٍ ورهطه .

إذا ما رأنى مدبراً شام نَبْلَه ورمى إذا أدبرت ظهرى بأسهم

وإنما هي عداوة قد استخفك (فاستأخِر لها أو تقدَّم) .

وكنْتُ إذا نفسُ الغريِّ نَزَتْ به صقَعْتُ على العرْنينِ منه بميسَمِ
ويقول مخاطبا جهنم — لئن خرقت الأرض فكننت في جُبٍّ ثمانين قامة
(ورُقِيت أسباب السماء بسلم) .

ليستدرجَنك القولُ حتى تَهْرَهُ وتعلمَ أنيَّ عنك لستُ بمأسَجَم
وتشرقَ بالقول الذي قد أذعته كاشِرِقتُ صَدْرُ القناة من الدَّم
وهو يعجب لسعد بن قيس أهل جهنم ، ولأهل الحرقتين سعد وتيم ،
فهم ينفون عنه الجلا والحسب ، كأنه ليس منهم ، وكأنه (نَسِيَّ من إِياد
وتَرَحُّم) .

وقد رأى الأعشى أن الناس أقبلوا للشر هائجين .

وصيَحَ علينا بالسياط وبالقنا إلى غايةٍ مرفوعةٍ عند مَرَسِمِ
فدعا خلية الجنى مِسْحَلًا ، أما خصومه فقد دعوا جَهَنَّمَ — جَدْعًا
للّهْجِينِ المَذْمُومِ — وهو يتهدد جهنم ، وينذره بالهزيمة ، قائلا : كيف تغلبنى
وأنت لا تفوقني حسبا ، ولا تبنى بيانا ؟

لئن جدَّ أسبابُ العداوة بيننا لَتَرَحَّانُ مني على ظهر شَيْهَمِ
وتركَبَ مني أن بلوتُ نَسْكِشْتِي على نَشَرٍ قد شاب ليس بتوأمِ
فما حسبي إن قِسْتَه بمَقْصَرٍ ولا أنا إن جد الهجاء بمُفْجَمِ
ثم يشير إلى احتدام الشر بينهما ، وإلى مهاجمة كانت بينهما في حفل كبير ،
يدافع كل منهما عن قومه ويحتمي بهم في آن واحد .

وما زال إهداءُ الهدَرِاجِ بيننا وترَقِيتُ أقوامَ الحَيْنِ ومأتمِ
وأمرُ السَّيِّ حتى التقينا غُدِيَّةً كلانا مُيْحَمِي عن ذِمَارٍ ويَحْتَمِي
تُرْكُنَا وخليَّ ذو الهدَرَادَةِ بيننا بأثْقَبِ نيرانِ العداوةِ تَرْتَمِي

ويقول إن هذه المهاجرة قد انتهت بسبقه ، بفضل ما حباه به صاحبه الجنى ،
 فولى خصمه ، وقد استحال لونه ، وكبا وجهه ، كأنما طلى الورس أو خضبَ
 بعِظْلَمٍ ^(١) — ثم يفخر بقومه ، ويذكر نعمهم وأيادهم على قوم جهنم .
 فهم أصحاب يوم فطيمة ، منعوا بنى شيبان أن يشربوا من العين ، وجبهوهم
 بالطعن حتى تولوا مدبرين . وهم أصحاب أيام حجر ، إذ يحرقون النخيل
 فتظل قائمة كأنها مآتم سود . وهم المنعمون على قوم جهنم بفك سيديهم ،
 إذ تلافهما بشرٌّ من الموت بعد أن أسلما شرَّ مُسْلَمٍ . ويختم القصيدة بقوله :
 فذلك من أيامنا وبلائنا ونُعْمَى عليكم إن شكرتم لا نُعْمِمْ
 فإن أنتم لم تحرِّفوا ذاك فاسألوا أبا مالك أو سائلوا رهطاً أشيماً
 وكائن لنا فضلاً عليكم ومِنَّةً قديماً فما تدرون ما منُّ مُنْعِمٍ

الحطية

ظل هذا الفن في معظمه قليل الخطر من الناحية الفنية كما قدمنا حتى نبغ فيه شاعر كبير هو الحطيئة ، فارتفعت قيمته وعظم خطره ، فقد احترف هذا الشاعر الهجاء كما احترف المدح . ارتزق بالمدح عند الكريم الذي تهزه الأريحية ، وبالهجاء عند البخيل الذي يرضن بماله ، ولا يبدله للمادح . فأصبح الهجاء على يديه صناعة ، يقف عليها الشاعر جهده ، ويفتن فيها ما يجعل لها الأثر المرجو في الناس .

أحاطت بنشأة الحطيئة ظروف لا تحبب إليه الحياة ، ولا تعطف قلبه على الناس . فقد ولد لأمة ، حملت به من سيدها أوس بن مالك العبسي ، واضطرت أن تكتم ذلك عن سيدتها — وهي من بني ذهل بن شيان — فزعمت لها أنها إنما حملت به من أخيها الأقم ، ثم مات سيدها ، وأعتقتها سيدتها بعد أن زوجها رجلاً من بني عبس . وعند ذلك اعترفت بأنها إنما حملت من سيدها . فالحطيئة قد خرج إلى الدنيا يحمل أوزاراً لا يد له فيها ، وقذف به إلى الحياة ملعونا من الناس ، لا يجد عندهم حناناً ، ولا يلقى منهم إحساناً . وجه قبيح ، وجسم رث قمي ، ونسب مغموز . ينتسب لذُهل مطالباً بميراثه من الأقم ، فثيرد مذموماً مدحوراً . فاذا انقلب إلى بني عبس ، وطالب بميراثه من أوس ، لم يكن نصيبه إلا السخرية والاستهزاء . فأى شيء ينتظر من رجل هذا شأنه إلا أن يكون كارهاً للدنيا ، ناقماً عن كل من فيها ، ؟ هو ناقم على أمه التي حملته شهوة ، ولفظته لعنة . وهو ناقم على هذا الأب المجهول ، الذي لم يورثه إلا عاراً باقياً ، ووصمة لازبة . وهو ناقم على الظروف ، التي جمعت عليه إلى كل هذا ، قبح المنظر ودمامة الخلقة . ورجل هذا شأنه ، لا يخرج له من ورطته إلا بأن يواجه الحياة في جرأة صفيقة ،

لا يبالى معها ما كان من أمره ، وأن يلقى الناس بوجه جامد قد أعد له ما يقولون ، وأن يكف عن نفسه أذى الناس بإيذائهم ، ويدفع تهجمهم عليه بسلاطته عليهم .

ليس عجيباً أن يكون الخطيئة مع هذا لثيماً كثير الشر ، بل العجب كل العجب أن يأتي خيراً فاضلاً ، ففضل الدنيا وإحسان الدهر ، لا يستطيع أن يغسل عاره ، أو يمحو وصمته . فهو رجل قد رسم له طريقة ، بين قوم لا يثنيهم عن الظلم إلا الظلم ، ولا يردهم عن العدوان إلا العدوان .

انصرف منذ نشأته إلى الشعر ، فكان راوية لزهير ، ولابنه كعب من بعده ، حتى نبغ فيه ، فكان جنته التي يستر بها عيوبه ، وسلاحه الذي يرهب به مهاجميه . وعدا على الناس بالشتم ، ينال منهم قبل أن ينالوا منه ، لا يفرق بين أحد منهم — شريفهم ووضيعهم ، ومحسنهم وجاهلهم — وانتزع منهم رزقه بأسان سايط لا يبالى ما يقول ، فليس وراءه عرض برىء فيلوث ، أو حسب رفيع فيهدم . نخافه الناس ، واتقوا أذاه بالإحسان ، وجعلوا أموالهم من دون شره .

احترف الخطيئة الهبجاء ، واتخذة تجارة ومعاشاً . ولم ير في الدنيا رجلاً حقيقاً بحبه وولائه . فهو يهجوهم جميعاً ، حتى يحسنوا إليه فيكف . فإن عظم عطاء الكريم وأغرقه فيضنه ، مدحه في شعر يجود ويسف بمقدار ما قدم من أجر . إن قل العطاء ، قال مثل شعره في عِيِيْنَتِ بْنِ النَّهَّاسِ العَجَلِيّ ، وهو من وجوه بكر بن وائل :

سَمِلْتُ فَلَمْ تَبْخُلْ وَلَمْ تَعْطِ طَائِلًا فسيان لاذِمٌ عَلَيْكَ وَلَا حَمْدُ
وَأَنْتَ أَمْرٌ لَا الْجُودُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ فتعطى وقد يُعْدَى عَلَى النَّائِلِ الْوُجْدُ^(١)

(١) الوجد اليسار . يقول إن اليسار قد يعين البخيل على أن يعطى الناس . فهذا الرجل لم يعط لأن الكرم طبع فيه وسجية ، ولكن هان عليه أن يعطى لأن ماله كثير

وإن غمره الإحسان فأرضاه ، قال مثل قوله في آل شمس بن لؤي :
يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجُدُّ
أقو عليهم لا أبا لأبيكم من اللبرم أو سدوا المكان الذي سدوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا بنا وإن عاهدوا أو فوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النُصبي عليهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
وإن قال مولاهم على جُلِّ حادث من الدهر ردوا فضل أحلامكم ردوا

لما استعطف الخطيئة عمر ، بعد أن سجنه في هجاء الزبرقان ، عفا عنه .
ثم قال له : إياك وهجاء الناس . قال : إذا يموت عيالي جوعاً ، هذا مكسبي
ومنه معاشي . وله في عمر قصيدة تصور ضيقه بهذا الحكم الصارم ، الذي
حرمه مرتزقه ، وأذهب هيئته بين الناس ، وقد اطمانوا من شره ، وأمنوا
بهجاءه . وهو يسخر فيها من نظام بيت المال . يحرم عمر الشعراء ، ولازرع لهم
ولا مال إلا ما يرتزون به من شعر ، فهو أشأم عليهم من البسوس ، ويغدق
على العاج النازح ، والعبد الأوكع ، والكاذب المحتال ، الذي يزعم له أن أمه
ماتت ، وقد صدق ، ولكنها ماتت من عهد عاد ! وهو يسمى عمر ملكاً ،
لأنه لا يرى النبوة والخلافة إلا ملكاً ، ولا يفهم من الدين إلا أنه وسيلة
للسيطرة والسلطان ، كما سنرى :

يأيها الملك الذي أمست له بُصْرِيْ وَغَزَّةُ سَهْلَيْهَا وَالْأَجْرَعُ
ومليكها وقسيمها عن أمره يُعْطَى بِأَمْرِكَ مَا تَشَاءُ وَيَمْنَعُ
أشكو إليك فاشتكى ذُرِّيَّةَ لَا يَشْبَعُونَ وَأُمُّهُمْ لَا تَشْبَعُ
كثروا على فما يموت كبيرهم حَتَّى الْحَسَابِ وَلَا الصَّغِيرِ الْمُرْصَعِ
وجفاء مولاى الضنين بماله وَوُلُوعِ نَفْسٍ هُمَّا بِيْ مُوَدَّعِ
والحرفة القدومي وأن عشيرنا زرعوا الحروث وأننا لا نزرع
فبعثت للشعراء مبعث داحس أو كالبسوس عتاهلها تتكدرع
ومستنى شتم البخيل فلم يخف شتمى وأصبح آمناً لا يفزع

وَأَخَذَتْ أَطْرَارَ الْكَلَامِ فَلَمْ تَدَعْ
وَبُعِثَتْ لِلدُّنْيَا تَجْمَعُ مَا لَهَا
وَمَنْعَتْ نَفْسَكَ فَضَاءَهَا وَمَنْحَتْهَا
حَتَّى يَحْيَىٰ إِلَيْكَ عِلْجٌ نَازِحٌ
وَالْعِيْلَةُ الضَّعْفَاءُ وَمَنْ لَا خَيْرَ لَهُ
أَمْ زَعَمْتَ لَهُمْ! وَمَاتَتْ أُمُّهُمْ
فَلْتَوْشِكَنَّ وَأَنْتَ تَزْعُمُ أُمُّهُمْ
شَتْمًا يَضُرُّ وَلَا مَدِيحًا يَنْفَعُ
وَتَضُرُّ جَزَيْتَهَا وَدَابَّاً تَجْمَعُ
أَهْلَ الْفَعَالِ فَأَنْتَ خَيْرٌ مَوْلَعٌ!
فِيضِيْبَ عَفْوَتِهَا وَعَبْدٌ أَوْ كَعٌ
خَيْرٌ وَمَثَلُهُمْ غُثَاءٌ أَجْمَعٌ
فِي عَهْدٍ عَادَ حِينَ مَاتَ السُّبْعُ
أَنْ يَرْكَبُوكَ بِثَقْلِهِمْ أَوْ يَرْضَعُوا

سارعت القبائل والأشراف إلى إغداق النعم على الخطيئة، والتلطف إليه، قبل أن يسبقهم هجأؤه. نزل بنو مقلد بن يربوع وقد أقحمته السنة، فشى بعضهم إلى بعض، وقالوا: إن هذا الرجل لا يسلم أحد من لسانه، فتعالوا حتى نسأله عما يحب فنفعله، وعما يكره فنتجنبه. وقدم المدينة في سنة مجدبة، فجمعوا له مالا على أن ينصرف عنهم. وأقبل في ركب بنو عبس حتى قدم المدينة، فأقام مدة، ثم دخل على خالد بن سعيد بن العاص، فسأله فاعتذر إليه، وقال ما عندي شيء. فلم يُعِدْ عليه الكلام، وخرج من عنده. فارتاب خالد، فبعث يسأل عنه، فأخبر أنه الخطيئة. فردّه. فأقبل الخطيئة فقعد لا يتكلم، فأراد خالد أن يستفتح الكلام، فقال. من أشعر الناس؟ قال: الذي يقول:

وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِي الشَّيْءَ يَشْتَمُ^(١)
فقال خالد لبني جلسائه: هذه بعض عقاريه، وأمر له بكسوة وحملا ن. فخرج بذلك من عنده.

وعظم شر الخطيئة، وذهب صيته في الهجاء، حتى اتقاه الشعراء. وقف مرة على حسان بن ثابت وهو ينشد — وحسان لا يعرفه — فقال حسان:

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى والخطيئة يصيب برده غرضين، فهو يجيب على سؤال الأمير بتفضيل

زهير، ثم هو يخوفه ويعرض به.

كيف تسمع يا أعرابي ؟ قال : ما أسمعُ بأسا .

قال حسان : أما تسمعون إلى الأعرابي ؟ ما كنيتهك أيها الرجل ؟ قال : أبو مليكة . قال : ما كنتَ أهونَ عليَّ منك حينَ أكتنيتُ بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : الخطيئة . فوقع اسمه من حسان موقع الصاعقة ، فأطرق برأسه ، ثم قال له : امض بسلام .

كان الخطيئة أعرابيا غليظا ، كما تصوره هذه القصة ، وكما يصوره شعره . وقد وصف القرآن الأعراب بقوله (الأعرابُ أشدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ، وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) وقد كان الخطيئة كذلك . كان فظا لم يرق قلبه لشيء ، ولم يشرح صدره هذا الدين الجديد ، لأنه يدعو إلى قانون أخلاقي لا يعرفه ، ولا يستطيع أن يسيغه . فهو لا يعرف من الحياة إلا القسوة والغلظة والعدوان . قست عليه الظروف ، فقسا على الناس . وكان منافقا ، لأنه يبيع نفسه لرغبة أو رهبة ، كما وصف نفسه عند سعيد ابن العاص ، حين سأله عن أشعر الناس ، فقال : والله لحَسْبُكَ بِي فِي رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ ، إِذَا رَفَعْتُ إِحْدَى رِجْلَيَّ عَلَى الْآخَرَى ، ثُمَّ عَرَيْتُ فِي أَثَرِ الْقَوَافِي ، كَمَا يَعْرِى الْفَصِيلُ وَرَاءَ الْإِبِلِ الصَّادِرَةِ .

كان هذا الرجل ملحدا بطبعه ، وبحكم الظروف القاسية التي أحاطت به . فهو لا يستطيع أن يفهم أن في السماء عدلا ، وأن في الأرض بشرا أطهارا . فهو غليظ القلب ، لا يفهم من النبوة إلا أنها وسيلة للبلاك ، يرثه الأبناء عن الآباء ، ولا يرى الزكاة إلا مالا مفروضا لهؤلاء الملوك ، يؤديه رعاياهم كارهين .

ولكنه منافق ، يظهر الخضوع إذا لم يكن منه بد . وقد تعود دائما أن يخضع للقوة . فسكت حين قوى أمر النبي ، ودخل فيما دخل فيه الناس . فلما مات النبي ، وارتدت العرب ، جهر بكفره ، وراح يحرض الناس على الامتناع عن الزكاة ، ويندم هذه القبائل التي ذلت بإعطائها من عبس وطىء

ودودان ، ويدعو الناس للخروج على أبي بكر . يقول : زعم محمد أنه نبي ، وقد أطعناه ، وأديننا له الزكاة ، فما بال أبي بكر ؟ أى طاعة له علينا ؟ وكأئنا توهم الخطيئة أن لأبي بكر ابنا اسمه بكر ، فزعم أنه سيورثه الملك من بعده ، (وتلك لعمرُ الله قاصمةُ الظهر ١) .

ألا كلُّ أرْمَاحٍ قِصَارٍ أَذِلَّةٍ
فَدَاءٌ لَأَرْمَاحِ رُكُزْنٍ عَلَى الْغَمْرِ (١)
فإن الذى أَعْطَيْتُمُوهُ أَوْ مَنَعْتُمُوهُ
لَكَاتَمَرٍ أَوْ أَخِي لَحْلَفِ بْنِ فِهْرِ (٢)
فَبِاسْتِ بْنِ عَبْسٍ وَأَفْسَاءِ طَيِّءٍ
وَبِاسْتِ بْنِ دُودَانَ حَاشَا بَنِي نَضَرَ (٣)
أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا
فِي عَجْبَا مَا بَالُ دِينَ أَبِي بَكْرٍ؟ (٤)
لِيُورِثَهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ؟
فَتِلْكَ وَبَيَّتِ اللَّهُ قَاصِمَةً الظَّهْرِ
فَدَى لَبْنَى ذِيانِ أُمَى وَخَالَتِي
عَشِيَّةَ يُحْدَى بِالرَّمَاحِ أَبُو بَكْرٍ
أَبَوَا غَيْرَ ضَرْبِ يَجْشِمُ اخْشَامُ وَسَطُهُ
وَطَعْنَا كَأَفْوَاهِ الْمُرَقَّقَةِ الْحُمْرِ (٥)
فَقُومُوا وَلَا تَعْطُوا اللَّئَامَ مَقَادَةَ
وَقُومُوا وَإِنْ كَانَ الْقِيَامُ عَلَى الْجَمْرِ

(١) ماء معروف .

(٢) بنو فهر هم قريش . وفهر هو قريش نفسه جدمه الأكبر .

(٣) هؤلاء قد أعطوا الزكاة . نصر بن قعين من بني أسد وهم من المانعين الزكاة .

(٤) الدين الطاعة .

(٥) المرققة الحمر يقصد بها القرب . يشبه الطعن بها لشدة تدفق الدم منه .

وقد دخل الخطيئة بعد ذلك في الإسلام ، حين استتب الأمر في الجزيرة ، ولكنه ظل في قرارته كافراً بعيداً عن الإيمان ، فهو يصر على رأيه في الخلافة ولا يراها إلا مأكلاً . وهو يحسد عمر هذا الملك العريض ، الذي تجبى إليه ثمراته وأمواله ، فيتصرف فيها كيف شاء .

يأياها الملك الذي أمست له بُصْرَى وَغَزَّةُ سَهْلِهَا وَالْأَجْرَعُ
ومليكتها وقسيمها عن أمره يُعْطَى بِأَمْرِكَ مَا تَشَاءُ وَيَمْنَعُ
وهو إذا مدح عمر ، لم يرفه إلا ما يرى الجاهلي في مدوحه ، فهو أوفى

قريش حبالا

وَأَطْرَ لِهْمُ فِي النَّدَى بَسْطَةً وَأَفْضَالُهُمْ حِينَ عَدُّوا مَقَالَا
يمدحه بشعر غث ، ليس عليه مسحة من الصدق ، بيد أنه صريح في الضيق بهذا العهد ، الذي حرم الشعراء ما كانوا يتمتعون به من حرية في القول ، ونفوذ بين الناس .

فَبِعِشْتِ لِلشَّعْرَاءِ مَبْعَثَ دَا حَسَّ أَوْ كَالْبَسُوسِ عِقَالَهَا تَكْوَعُ
وَبِعِشْتِ لِلدُّنْيَا تَجْمَعُ مَالَهَا وَتَفْشُرُ جَزِيَّتَهَا وَدَابَّاتِجْمَعِ
والخطيئة يدافع عن الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين حده عثمان في الخمر وعزله ، وقد شهدوا عليه أنه صلى بالناس ثملاً ، ثم التفت إليهم وقد تمت الصلاة ، فقال : أأزيدكم ؟ وهو لا يرى عليه في ذلك بأساً ، وإنما أراد أن يستكثر لهم من الخير ، وهو إن عزل ، فليس عليه في ذلك من ضرر ، ما دام لم يُرَدِّدْ إِلَى عَوَزٍ أَوْ فَقْرٍ .

شَهِدَ الْخَطِيئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنْ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعَذْرِ
نادى وقد تمت صلاتهم ليزيدكم خيراً ، ولو قبلوا فآبُوا أَبَا وَهْبٍ وَلَوْ فَعَلُوا
خلعوا عنانك إذ جرى ولو تركوا عنانك لم تزل تجرى

ورأوا شمائل ماجدٍ أنفٍ يُعْطَى على الميسورِ والمُسَرِّ
فنزِعَتْ مكدوباً عليكَ ولم تُتَرَدَّدْ إلى عَوَزٍ ولا فقَرٍ
وقد ظل هجاء الخطيئة يحمل بعض آثار المنافرة، فهو يعتمد على التفضيل
والمقارنة . يدخل بين الرجلين المتنافسين ، فيمدح أحدهما ويعرض بالآخر،
فيمتلى الأول زهواً ، ويغلى الآخر حقداً . فتثور الفتنة بين الرجلين
وتَغْشَى العداوةُ بين الحيين . وهذا أسلوب بالغ الأثر في نفس العربي ،
لأنه بطبعه مفاخر مكاثراً ، ولأنه يبذل أئمن ما عنده لحسن الأخدوثة وطيب
الذكر ، ولأن الشعر يؤلمه من وجهين . وهو في نفس الوقت شديد الخطر
في بث الشر ، وإيقاظ الفتن بين الناس . لذلك نهى عنه عمر ، وسماء الإقذاع .
قال للخطيئة حين أخرجه من السجن : إياك وهجاء الناس . قال : إذا يموت
عيالى جوعاً ، هذا مكسبي ومنه معاشي . قال : فأياك والمقذع من القول .
قال : وما المقذع ؟ قال : أن تُخَايِرَ بين الناس ، فتقول فلان خير من
فلان ، وآل فلان خير من آل فلان . قال : فأنت والله أهجى مني .

كان بين بَخِيسِ بْنِ شَمَّاسِ بْنِ لَأْيٍ ، وبين الزَّبْرَقَانِ بْنِ بَدْرِ ،
ما يكون بين أبناء العم من تحاسد وتنافس . فلقى الزَّبْرَقَانُ الخطيئة ، وقد
خرج بأهله في سنة مجدبة ، فبعث به إلى بيته ليقم فيه ريثما يعود ، وكان في طريقه
إلى عمر ، ليؤدى إليه صدقات قومه ، فأقام الخطيئة في بيته حيناً وهو غائب ،
لا يجد من زوجته كبير عناية ، فقد هان عليها ولم تكترث به ، لما رأت من
رثائته وسوء حاله . فلما سمع بذلك بنو أنف الناقة — وهم بيت سعد قوم
بَخِيسِ — اغتتموا الفريضة ، فأرسلوا إليه يغرونه بجوارهم ، ولم يزلوا به
يطمعونه ، حتى رحل إليهم ، فأغدقوا عليه حتى مال إليهم ، ومدحهم مُعَرِّضاً
بالزَّبْرَقَانِ . فلما عاد هذا من سفرته ، ووجد الخطيئة قد انتقل إلى جوار بَخِيسِ ،
ولم يجد إلى عودته سبيلاً ، شكاهم إلى عمر ، فخير الخطيئة بين الحيين ، ناختر
بنو أنف الناقة . وتتابع قصائده فيهم ، مشيراً إلى غصب الزَّبْرَقَانِ وقومه .

متعجباً من أمرهم ، فهو لم يبدأهم العدوان ، وإنما مدح ناساً أكرموه ، فأروا ذلك هجاء .

ولما أن مدحتُ القوم قاتم هَجَوْتُ ما يَحِلُّ لَكَ الهِجَاءُ
فلم أَشْتِمَ لَكُمْ نسباً ولكن حَدَوْتُ بُحَيْثُ يُسْتَمَعَ الحداءُ
ولم يزل يشدد على الزبرقان ، حتى شكاه إلى عمر ، فسجنه لإغرائه العداوة بين الحيين . وكانت القصيدة التي سجنه فيها :

عَلَّامَ كَسَافَتَنِي مَجْدَ ابْنِ عَمِّكَ وَالْعِيسُ تُخْرِجُ مِنْ أَعْلَامِ أَوْطَاسٍ
وهو يقول فيها للزبرقان : ما ذنب بَغِيضٍ في بَاسٍ لُجَأٍ إِلَيْهِ فَأَغَاثُهُ ؟
لقد توددت إليكم متلطفاً ، كما يتلطف الخالب إلى الناقة ، يمسح ضرعها مهدأً روعها بإبساسه ، فلم تَدْرُوا . وانتظرت خيركم ، كما ينتظر الضيفُ مجيءَ الإبل الصادرة عن الماء إلى الخنفس ، فطال ما انتظرت ، ولم أجد إلا زهداً فيما أردت أن أكسوكم من مدح ، فأنا كالمقيم بين أرْماس ، تهرنى كلابكم وتجرحني بأنياب وأضراس ، ليس لجراحي منكم آسى ، فأرحتُ نفسي باليأس من نوالكم (ولا ترى طارداً للحرِّ كالْيَاسِ) ، ثم هو يفتخر بإحاطته بأنساب القوم :

أَنَا ابْنُ بَجْدَنِهَا عَلِيّاً وَتَجْرِبَةً فَسَلَّ يَسْعَدُ تَسْجِدُنِي أَعْلَمُ النَّاسِ
ويأتى بعد ذلك البيت المشهور ، الذي عظم وقعه على الزبرقان .

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبَغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
ثم يمضى في المفاضلة بين الحيين
سِيرَى أَمَامُ فَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ حَصَى
لَا يَذْهَبُ السُّعْرُفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَرَّازِيهِ
مَا كَانَ ذَنْبِي إِذَا فَلَكَ مَعَاوِلُكُمْ
قَدْ نَاضَلُوكَ فَأَبَدُوا مِنْ كُنَاتِهِمْ
والأكرمين أبا من آل شماس
من آل لاي صفاة أصلها راسي
مجداً تليداً ونبلاً غير أنكاس

وسكت الحطيئة على مضض . ثم استأنف شعره في بغض وفي الزرقان ،
على هذا الأسلوب في المفاضلة ، بعد موت عمر . وهو يعير الزرقان قتل عمر ،
ويقول زعمت أنك عزيز ، تريد أن تمنع الناس أن يجودوا بما لهم ، فقد كان
أولى بك أن تمنع صاحبك أن يُقتل . . .

أَتَحْضُرُ قوماً أَنْ يَجُودُوا بِمَا لَهُمْ ؟ فَهَلَّا قَتَلْتِ الْهُرْمُزَانَ تَحَاصِرُهُ ؟
ثم يمضى في المفاضلة بين الحيين على أسلوبه القديم :

فإن تك ذا عزٍّ حديث فإنهم ذوو الإرثِ مجدٍ لم تخنهم زوافره^(١)
وإن تك ذا شاء كثير فإنهم ذوو جامل لا يهدأ الليل سامرهُ
وإن تك ذا قرم أزب فإنهم يلاقى لهم قرم هجان أباعره^(٢)
قروا جارك العيمان لما تركته وقلص عن برد الشراب مشافره^(٣)
وخصلة أخرى ، أتاحت لهجاء الحطيئة قوة وذبوعا ، وهى براعته
فى خلق الصور وابتكارها . وهذه موهبة نبغ فيها جرير من بعد ، وامتاز فيها
امتيازاً ظاهراً . فالحطيئة له بصيرة الهجاء الأصيل ، فى الاهتداء إلى وجه
الشبه بين موضوع هجائه ، وبين أبشع الصور ، وأبعثها على الضحك ، وأدعاها
للزراية . انظر إلى هذا الرجل العبسى الكالح ، قبح وجهه ، حتى كأنه القرد ،
تروم عنده الحاجة ، فيكلح ويعبس ، ليزيد وجهه قبحاً على قبح ، ثم هو يعطى
آخر الأمر عن يد صاغرا :

أَبْلَغُ بَنِي عَبْسٍ بَأَن نَجَّاهُمْ لَوْمْ وَأَنْ أَبَاهُمْ كَاهُجَرِسٍ
يُعْطَى الْحَسِيْسَةَ رَاغِباً مِنْ رَامِهَا بِالضَّمِّ بَعْدَ تَكْلُحٍ وَتَبَسُّ

(١) الزافره من البيت ركه ومن الرجل عشيرته وأنصاره الذين يعتز بهم .

(٢) الزبب فى الأبل كثرة شعر الوجه والعشون وهو لا يكون فى كرامها . إبل هجان وهجان

يعنى كرام .

(٣) العيمة بفتح العين شوبة اللبن والعطش . قلص عن برد الشراب مشافره يقول ضيفه هؤلاء

الناس وهو فى أسوأ حال من شدة البرد قد تقلصت شفتاه . والعرب تتمدح بالكرم فى الشتاء خاصة لأنه

وقت الجذب ، يحرص فيه الناس على ما عندهم .

ثم انظر إليه، كيف صورهم بعد ذلك في قصيدة أخرى. رجال كالتبوس، ونساء مباحين، كأنهن الآن دخل في أنفها الذباب، فهي تلوى رءوسها، وتذهب لوجهها نافرة، تنعر نعيراً قبيحاً.

لهم كفَّ مِثْلُ التَّبْيُوسِ ونسوة مَمَّاجِينُ مِثْلُ الْآنِ النَّعِرَاتِ وانظر إلى وصفه لهذين الرجلين البخيلين، كيف يهربان ممن يبعيها، كأن أحدهما ضب عجوز، قد اتخذ جحراً في أرض صلبة، فإذا أحس الحارث أتقاه بذنبه (١)

حَمَدْتُ إلهي أَنَّنِي لَمْ أَجِدْكَ
من الجوع مأوىً أو من الخوف مهرباً
ضُيِّبَانِ حُجَلِيَّانِ فِي آمِنِ السَّكْدَى
إذا ما أَحْسَبَا حَارِشَ اللَّيْلِ ذَنْبَا

ثم انظر إلى هذا العبسى الذى يسوده قومه عليهم، وكأنه خصياً كبش ضخم، أُطلق هاملاً لا راعى له، ثم يقول إن أمه غلبت أباه عليه، فأشبهها دونه، ومن يدرى من أين أتت به، فقد تجيء الأم بولدها من كل وجه.

لقد ذَهَبَتْ خيراتُ قومٍ يسودهم
قُدَّامَةُ خَصِيٍّ فَذَنْبَلِيٍّ مُهْمَلٍ (٢)
مَنْعَتَ قَاوُصًا بِالْمَطَالِي وَلَمْ يَكُنْ
بَنَاتِيكَ مِنْهَا غَيْرُ تَرْبٍ وَجَنْدَلٍ (٣)
وَعَزَّتْ عَلَيْكَ الْفَجَلُ سُدَّاءُ جَرُونَةٍ (١)
وقد تَنْجُلُ الْأَرْحَامُ مِنْ كُلِّ مَنَجَلٍ

(١) الحارث هو الذى يحترش الضباب أى يصيدها . وذلك بأن يحرك شيئاً عند فم جحر الضب فيظنه الضب أفعى تدخل عليه فيخرج بذنبه فيمتلخه الحارث . وإنما يخرج بذنبه قبل رأسه .

(٢) الفنبلى الكبش الضخم (٣) المطالى موضع . القلوص الناقة الصغيرة

(٤) الفجل الذكر يقصد أباه . عزه غلبه . يقول إن أمه — وهى أمة سوداء — قد غلبت عليه فاشبهها من دون أبيه . ومن يدرى من أبوه ؟

والخطيئة بعد هذا من أكثر الناس توفقا لاختيار ألفاظه في أهاجيه ، لها رنين يوحى بالسخرية ، ويستفز للضحك في بعض الأحيان . انظر إلى ألفاظه في الآيات السابقة ، يشبه العبسي بالقرد ، فيختار للقرد لفظ (هجرس) ويشبهه تارة أخرى بالكبش ، فيختار له لفظ (فَنَبَلِي) وانظر إلى الألفاظ مجتمعة في هذا البيت (قَدَامَةُ خَصِيَا فَنَبَلِي مُهْمَلٍ) كيف تتصور من رنين الألفاظ وحدها شيئاً هائلاً ، ولكن لا غناء فيه ، جَفَجَعَة ولا طحن . ثم انظر أخيراً إلى هذه الغنم المخصية ، قد نبت الشعر على لحيتها ، فهي قيئة هزيلة ، كأن أحدها السهم الصغير يُجْعَلُ على رأسه الطين ، فيلعب به الصبيان ، يأخذها الرجل الذليل دية أخيه القليل . انظر إلى هذه الصورة كيف كساها الخطيئة لفظاً ساخراً ، يملأ الاستخفاف رنين ألفاظه .

أخو المرءِ يُؤْتَى دونه ثم يُتَّقَى
بُرْبُ اللحي جُرْدِ الخصى كالجمامح

الهجاء السياسى

نقصد بالهجاء السياسى ، الهجاء الذى يقوم على العصبية للوطن ، فيهاجم كل مايؤذيه أو يهدد كيانه ، فالشاعر هنا يعبر عن جماعة هو أحدها ، ولا يكاد يحس شخصيته إلا فى حدود هذه المجموعة ، التى يرتبط مصيره بها كل الارتباط ، فهو يفتى فيها وجوده ، ويتجرد من نزاعاته وأهوائه ، ليحس بأحاسيسهم ، ويرى بأعينهم ، ويسمع بأذانهم . فشخصية الفرد هنا ضئيلة نحيلة ، لا تكاد تحس لها أثرا . والدولة أو الوطن شئ حى ، له وجود قوى ، وكيان ظاهر ملموس .

والوطن عند الجاهليين لا يصور حدوداً جغرافية معينة ، كما نتصور اليوم من هذه الكلمة . ولكنه يصور جماعة من الناس ، تربطهم أواصر من النسب ، صحبة أو مزعومة ، قد انبنت عليها حياتهم ، فعاشوا فى حدود هذا التصور الصحيح أو المزعوم ، وقد ارتبطت مصالحهم ، متضامين فى الخير والشر ، يداً واحدة على كل من عاداهم . وعلى هذه الأنساب ، قامت أحلافهم وحروبهم منذ عهد بعيد ، فاستقرت فى نفوسهم على مر الأيام ، وازدادوا بها إيماناً ، وقد صيرها الدم المسفوك والجهد المبذول شيئاً واقعاً ، وحقيقة مقررة .

كان الوطن إذن هو العصبية . وهذه العصبية هى القانون الوحيد الذى انبنت عليه حياتهم . ينصر الرجل منهم أخاه ويتعصب له ، ظالماً أو مظلوماً .

لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبُهُمْ فى النوائبات على ما قال برهانا

الرجل وأخوه يدُّ واحدة على ابن العم ، وأبناء العم الأدنون يدُّ واحدة

على ابن العم البعيد ، وأبناء العمومة جميعاً يدُّ على المهاجم من الغرباء .

من أجل ذلك ، كان مفهوم العصبية مرناً يتغير بتغير الظروف . فقد يضيق حتى لا يشمل إلا البيت من البيوت ، أو البطن من البطون . وقد يتسع حتى

يضم القبيلة أو الشعب . فالأعشى مثلاً شاعر بكرى . إذا وقع بأس بكر بينهم فهو يمثل بيته من بنى سعد بن ضبيعة ، ثم بنى قيس بن ثعلبة ، يهاجم من آذاهم بمكره ، ويتغنى بمدحهم والإشادة بفضلهم . فإذا جمعت المحنة بين هذه البطون في حرب كبيرة ، كحرب ذى قار ، حين يهاجم الفرس بكرا ، كان الصوت المعبر عن بكر بل عن وائل جميعاً ، متناسياً ما كان بين بطونهم من خزازات وأحقاد . وقد تأخذ العصبية بعد هذا شكلاً أعم ، فتكون بين اليمنية والعبدانية ، كالذى كان في يوم خزاز ، حين اجتمعت معاً كلها على كليب وائل ، واجتمعت اليمنية إلى سلمة بن الحرث بن عمرو بن آكل المُرَّار ، فسار إلى جموع نزار ، أثراً لأخوته حجر وشراحيل ومُحَرِّق وشرحبيل .

ولدينا من هذا الهجاء السياسى صور شتى ، من هجاء يصور ما بين القبائل من منازعات ومنافسات ، إلى هجاء يصور ما بين هذه القبائل ، وبين الملوك الذين يحاولون بين الحين والحين بسط نفوذهم ، فيفرضون عليهم الإتاوات ، مثل بنى آكل المرار ، وبنى الحارث بن معاوية ، الذين ساد منهم قيس بن معد يكرب أبو الأشعث ، ومثل المناذرة والغساسنة . ولون ثالث من هذا الهجاء ، يصور ما صحب نشأة الدين الجديد الذى ظهر في الجزيرة ، من قتال وكفاح في سبيل نشره وإقراره .

وهذه الأنواع على اختلافها ، تشترك في معظم مظاهرها . فالغضب والحماسة يختلطان فيها ويتداخلان ، حتى يصعب تخلص أحدهما من الآخر ، فلا يستطيع قارئ هذا الهجاء أن يقول ها هنا حماسة ، وها هنا غضب ، ولكنه واجد شعراً يفيض كل بيت من أبياته ، بل كل كلمة من كلماته ، بالغضب والحماسة أقوى ما يكونان .

فالشاعر إذا تعرض لتصوير العداء بين حزبه وبين عدوه ، صوره من جانبيه ، الجانب القوى ، والجانب الضعيف ، فتطغى عليه الحماسة حين يصور قوة حزبه مفتخراً ، ثم يغلبه الغضب حين يتجه إلى عدوه ناقماً متهدداً . ولكنه

في حماسته لا يبرأ من الغضب ، ولا هو في غضبه يخلو من حماسة .
والقارئ هذه الألوان من الهجاء ، لا يجد فيها الحقد الدفين ، والقرص
الخنفي ، ولكنه يجد غضبا صريحا غير مقنع ، هو صورة من صحتهم السافرة ،
ومثلهم الصريحة الواضحة ،

انظر إلى هذا الشاعر الضبي — عبد الله بن عَنَمَة — كيف صور ما بين
قومه بني السيد (وهم مالك الضبي) وبين أبناء عمومتهم بني زيد (وهم من
ذُهل بن مالك الضَّبِّي) . يبدأ الشاعر مستخفا بالقوم ، فيقول :

إن بدا زيدٌ في نفوس أبناء عمومته من بني كوز ومرهوب شيئا خطيرا ،
فما نراه نحن خطيرا . ثم يلتفت إليهم قائلا : إن تسألوا الحق نعطيكم
ما تسألون غير مكابرين ، والدرع في حقيته ، والسيف في قرابه . فإن أيتم ،
فإننا لا نقبل الذل ، ولا نرضى الضيم ، فدونه شرب السم . فانتهاوا يا بني زيد
خيلا لكم ، ولا تخوضوا فينا . ازجروا حماركم أن يرتع بروضتنا ، فنحن
جديرون أن نرُدَّه مُضَيِّقاً عليه ، مفتول القيد ، أشدَّ ما يكون الفتل ،
وإنه إذن لأشأم عليكم من داحس . فإن دعوتكم قومكم من ذهل أن يغضبوا
لكم ، فنحن نغضب لزرعة . وإنكم لتعلمون أينأ أكثر عددا وأعز نفرا .

ما إن تَرَى السَّيِّدُ زيدا في نفوسهم
كما يراه بنو كوزٍ ومرهوب
إن تسألوا الحقَّ نعط الحقَّ سائله
والدرعُ مُحَقَّبَةٌ والسيفُ مَقْرُوبُ
وإن أَيْتَمُ فَإِنَّا مَعْشَرُ أَنْفٍ
لا نَطْعَمُ الذُّلَّ إن السَّمَّ مَشْرُوبُ
فازجرْ حمارك أن يرتع بروضتنا
إذا يُرَدُّ وقيدُ العنبرِ مَكْرُوبُ

ولا يكونَنَّ كَجَرَى دَاحِسٍ لَكُمْ
 فِي غُطْفَانِ غَدَاةِ الشَّعْبِ عُرْقُوبٌ^(١)
 إِنَّ يَدْعُ زَيْدٌ بَنَى ذُهُلٌ لِمَغْضَبَةٍ
 نَغْضَبُ لَزُرَّةٍ إِنَّ الْقَبْصَ مَحْسُوبُ

وظاهرة أخرى يتميز بها هذا الضرب من الهجاء ، هي الاعتماد الكبير على التاريخ والأنساب . فترى الشاعر هنا أشبه بالمؤرخ ، لأنه يصور مجد قبيلته ، معدداً أيامهم ، بما يبعث فيهم الزهو والحماسة ، ويورخ ضعف أعدائهم ، معبرا هزائهم ، بما يوقع في نفوسهم الحزى والصغار ، ويجمع إلى هذا وذاك ، تاريخ الرجال من القبيلتين ، بما يلبس قبيلته الفخر ، ويكسو أعداءهم العار . ولذلك كان لابد للشاعر المتصدى لهذا القصد ، أن يلم بالأخبار والأنساب إلماً حسناً . وهذا هو حسان ، يتصدى للدفاع عن الإسلام ، فيدله النبي على أبي بكر ، يستعين به فيما يحتاج إليه منها . وما يصور قيمة الأنساب وخطرها وشدة اهتمام الناس بها ، هذه القصة التي يرويها صاحب العقد في لقاء أبي بكر لدغفل ، وما كان بينهما من ملاحظة في الأنساب . وهي قصة طريفة ، تقدم لنا لونا جديداً من الهجاء الذي يعتمد على الأنساب ، وهو قريب الشبه بما رأيناه في المنافرة^(٢) . قال صاحب العقد ، بعد أن روى سنده عن علي بن أبي طالب : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على القبائل ، خرج مرة وأنا معه وأبو بكر ، حتى رُفِعْنَا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر فسلم — وكان أبو بكر مقدما في كل^(٣) — خَيْرَ ، وكان رجلا نسابه .

(١) كان النزاع بين عيس وذيان بسبب رهان على الخيل . راهن قيس بن زهير الغبيسي على داحس والغبراء وراهن حذيفة بن بدر الغزاري (من ذيان) على الخطار والختفاء . ثم إن حذيفة خدع قيسا فأرصد في طريق خيله من صدها وبذلك كسب الرهان فكاو ذلك سبب الحرب . الشعب هو شعب الحليس ، عرقوب اسم فرس .

(٢) القصص بكرة انقاف وسكن الباء العدد الكثير . يقصد أنهم أكثر منهم عددا .

(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٧٤ . (٤) يقصد أنه كان عالما بالأنساب وأخبار الناس .

فقال : ممن القوم ؟

قالوا : من ربيعة .

قال : وأى ربيعه أنتم ؟ أمن هامتها أم من لهازمها ؟

قالوا : من هامتها العظمى .

قال : وأى هامتها العظمى أنتم ؟

قالوا : ذهل الأكبر .

قال أبو بكر : فمنكم عوف بن محم الذي يقال فيه لا حرَّ إلا بوادى عوف ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم جساس بن مرة الحامى الذمار ، والمانع الجار ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم الخوافزان قاتل الملوك وسالبا أنفسها ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردية ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم أحوال الملوك من كندة ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟

قالوا : لا .

قال أبو بكر : فلستم ذهلا الأكبر أنتم ذهل الأصغر .

فقام إليه غلام من شيبان ، حين بَقَلَ وجهه ، يقال له دغفل ، فقال :

إِنَّ عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسْأَلَهُ وَالْعَبَاءُ لَا تَعْرِفُهُ أَوْ تَحْمِلُهُ

يا هذا إنك قد سألتنا فأخبرناك ، ولم نكتمك شيئا ، فمن الرجل ؟

قال أبو بكر . من قريش .

قال : بنخ . بنخ . أهلُ الشرف والرياسة . فمن أى قريش أنت ؟

قال : من ولد تَيْم بن مُرَّة .

قال : أمكنت والله الراى من صفا الثغرة . أفنكم قصى بن كلاب ، الذى

جمع القبائل فسمى مُجَمَّعا ؟

قال : لا .

قال : أفنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ، ورجال مكة مُسْنِتُونَ عجاف ؟

قال : لا .

قال : فنكم شَيْبَةَ الحَمْد عبد المطلب ، مطعم طير السماء ، الذى

وجهه كالقمر فى الليلة الظلماء ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الإفاضة بالناس أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الندوة أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الرفادة أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل الحجابة أنت ؟

قال : لا .

قال : فمن أهل السقاية أنت ؟

قال : لا .

فاجتذب أبو بكر زمام الناقة ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال الغلام .

صَادَفَ دَرءُ السَّيْلِ دَرءً أَيْدَفَعُهُ يَهِيضُهُ حِينًا وَحِينًا يَصْدَعُهُ

فتبسم النبي عليه السلام .

قال على : وقعت يا أبا بكر من الأعرابي على بَاقِعَةٍ

قال : أجل .

قال : مامن طامة إلا وفوقها أخرى ، والبلاء موكل بالمنطق ، والحديث

ذو شجون .

ومن أجمل الشعر الذي يصور هذه الظاهرة في الهجاء السياسي الذي يعتمد على التاريخ والأنساب مطولة الحارث بن حلزة ، التي أنشدها بين يدي عمرو ابن هند ، حين رُفِعَ إليه ما بين تغلب وبكر من خلاف . ونحن نلخص هذه القصيدة الرائعة ، ونترك للقارئ الرجوع إلى النص في مصادره .

يبدأ الحارث قصيدته بذكر صاحبتة أسماء ، فقد آذنته بالبين ، بعد عهد لها بَرقه شماء ، وما كان مقامها مملولا ، ولا مرغوبا عنه . يذكرها الشاعر في أسى هادئ ، متنقلا بين الأماكن التي كانت تحملها ، فإذا حاجته الذكرى بكى ، وإن كان يعلم أن البكاء لا يرد فائتا ، ثم لا يلبث أن ينصرف إلى ناقته ، يستعين بها على الهم ، فيشبهها وهي تسرع به في الصحراء بالنعامة قد أفرعها القناص ، والظلام مقبل عليها ، ويصف الغبار الذي تثيره خلفها ، وقدار ترفع في الفضاء لسرعتها ، ثم بدأ يتساقط على الأرض إذ بعدت عنه . وهو يستغرق في هذه المقدمة أربعة عشر بيتا ، ينتقل بعدها إلى غرض قصيدته ، وما بين قومه وبين الأراقم — وهم بعض بطون تغلب — من عدا .

وهو لا يهاجم الأراقم بادئ الأمر ، بل يتلطف في شبه عتاب ، ثم يشتد ذلك العتاب فيصبح تقريرا ، ثم تعيرا ، ثم مهاجمة عنيفة .

يقول : إنكم تخطون البرى منا بذى الذنب حتى ما ينفع البرى براءته

وكأن كل صاحب جريرة مَوْتَى لَنَا نحن عنه مسئولون . ثم يصفهم وقد استعدوا للقتال ، فأجمعوا أمرهم بالَيْسَل ، ثم أصبحوا ولهم جلبية ووضواء . مِنْ مُسْنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَضْهَالٍ خَيْلٍ خِلَالِ ذَاكَ رَغَاءُ

ثم هم لا يزالون يغرون بهم الملك عمروا ، ويظنون أنهم غافلون . ومن قَبْلُ ما قد وشى بهم الأعداء ، فلم يضرهم ذلك شيئا ، وظلوا على الشَّنَاءَةِ والبغض ، تمنعهم حصون وعزة قعساء ، لا يزالون أن تَبْيَضَّ عيونُ الناس غيظا وحسدا . فهم كالجلجل الراسخ الضارب في السماء ، تنشق عنه السحب ، وقد بدا مكفهرًا ، لا تنال منه أحداث الدهر وإن جلت وعظمت .

ويتجه بعد ذلك إلى تغلب قائلا : أَيُّمَا خُطَّةٍ أَرَدْتُمْ فَأَدُّوْهَا إِلَيْنَا ، يَتَشَاوَرُ فِيهَا أَشْرَافُنَا وَأَشْرَافُكُمْ ، فنحن معكم فيما تريدون . إن نبشتم ما بين « مَلْحَجَةٍ » و « الصَّاقِبِ » ، حيث كانت المعارك ، وجدتم من قتلانا أحياء أخذ بئارهم ، ووجدتم من قتلناكم أمواتا لم يثار لهم . أو استقصيتُم أمرنا وأمركم ، فكنتُم كالنَّاقِشِ الذي يستخرج الشَّوْكَ ، فقد يَجْشُمُ الناس النَّقْشَ ^(١) على ما فيه من ألم ، بغية الشفاء . أو سكتُم عنا ، فكنا كمن أغمض عينًا في جفنها أفداء ..

أو منعتم أن يجيئوا إلى شيء مما تَسْأَلُونَ ، فمن فيما تعلقون له علينا فضل أو علاء؟ ويعرض الشاعر بعد هذا قوة قومه ، فيصورهم في تاريخهم الطويل ، وأيامهم المظفرة ، أروع تصوير . يقول :

هل عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّا	سُ غَوَارًا لِكُلِّ حَيٍّ عُدَّوَا
إِذْ رَفَعْنَا الْجِمَالَ مِنْ سَعَفِ الْ	بَحْرِ يَنْ حَتَّى نَهَاها الْحَسَاءُ
ثُمَّ مَلَسْنَا عَلَى تَمِيمٍ فَأَحْرَمَ	نَا وَفِينَا بَنَاتُ قَوْمٍ إِمَاءُ
لَا يُقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّهْمَ	لِ وَلَا يَنْفَعُ الذَّلِيلُ النَّجَاءُ
لَيْسَ يُنْجِي الَّذِي يُوَأْتِلُ مِثْنًا	رَأْسُ طُودٍ وَحَرَّةٌ رَجْلَاءُ
وَيَخْتَمُ ذَلِكَ الْفَخْرَ الْقَوَى بِقَوْلِهِ	

فَلَا كُنَّا بِذَلِكَ النَّاسِ حَتَّى

مَلَكَ الْمُنْذِرِينَ مَاءَ السَّمَاءِ

ولم يشأ الشاعر أن يمر بالمنذر ، من غير أن يستميل إليه ابنه عمرو بن

(١) النتش استخراج الشوك من الجسم إذا دخلت فيه .

هند ، بالثناء عليه ، فوصفه بأنه (مَلِكٌ أَضْرَعُ الْبَرِيَّةِ لَا يَوْجَدُ فِيهَا لِمَا كَدَيْهِ كِفَاءً) .

ثم عاد الشاعر إلى التغليبين ، يهددهم وينذرهم سوء عاقبة طغيانهم وعدوانهم ، وتناسيهم ما تعاقدوا عليه في ذى المجاز ، وما قُدم فيه من عقود وكفلاء ، حذر الجور والتعدى . ثم هم بعد ذلك ينقضون ما عاهدوا عليه . ومن عَجَبٍ أَنْ تنقض الأهواءُ ما سُجِّلَ في الصحف !

وجرى الحارث بعد هذا على تعييرهم . فسلك لذلك طريقاً يسلكه كثير من الناس حين يتلاحرون ويغير بعضهم بعضاً . فهو يقول لهم : أتلمزونا ذنوب قوم كذا ... أم قوم كذا ... أم كذا . ؟ ويمضى معدداً القبائل التي قهرتهم ، وهو يقول : ما ذنبنا فيما فعل هؤلاء .. يلطمونكم فلا تستطيعون لأنفسكم دفعا ، ولا أتم تنصرون ، ثم تتجنون علينا ، كأن لهم العُثم وبعلينا الجزاء . إن تلمزونا هذه الذنوب فعنستاً ما تفعلون وظالماً ، كما يُذبحُ الظبي عَتيرةً ^(١) بدل الشاة وما هو بالمنذور .

ويعود إلى سابق تعييره ، فيذكرهم هزيمة تميم لهم ، ويصف الواقعة ، ويضبط مكانها ، ويحدد عدد المغيرين ، وما كان من محاولة تغلب نيل ثأرهم ، ورجوعهم خائبين ، ثم إطلال الغلّاقِ دماءهم وإهدارها .

وثنانون من تميم بأيديهم رما ح صدورهن القضاء
لم يحلوا ابني رزاح ببرقاء نطا ع لهم عليهم دُعَاء ^(٢)
تركوهم مُسَلَّحِينَ وآبوا بِنِهَابٍ يَصْمُ منه الحُدَاء
ثم جاءوا يسئرون فلم تسر جع لهم شامة ولا يبيضاء
ثم فاءوا منهم بقاصمة الظاهر ولا يبرد الغليل الماء

(١) العتيرة ذبيحة تذبح للأصنام في رجب . وقد كان الرجل ينذر إن بلغ الله غنم مائه أن يذبح منها واحدة للأصنام . ثم ربما ضنت نفسه بها ، فأخذ ظلياً فذبحه مكان الشاة الواجبة عليه .
(٢) برقاء نطاغ اسم مكان : يعيرونهم أنهم أحلوا محارم هؤلاء القوم بذلك المكان .

ثم خيل^١ من بعد ذلك مع الغـِـلاق لا رافة ولا إنـبـقاء
ما أصابوا من تغلي فـطـطـلوا ل^٢ عليه إذا أصـيـب العـفـاء

ويختم الحارث قصيدته بمحاولة ناجحة لاستمالة الملك إلى جانب قومه ،
فيتجه إلى بني تغاب قائلا: يا مبلغا عنا الوشاية عمرا ! كفاك فعمر و يعرفنا ،
ولنا عنده من المكرمات وحسن السيرة ما يملأ نفسه اطمئنانا إلينا . ثم
يذكر الملك بوفاء قومه له ولأجداده ، فيقول إن لنا عنده من الخير آيات
ثلاثاً في كلهن القضاء .

أولها — مساعدتنا للملك الحيرى عند غارة اليمـن . إذ جـبـهـناهم بطعن
يندفع الدم من آثاره اندفاع الماء من أفواه القرب ، حتى ولوا هارين ،
تـدـمى كلـوـمـهم على أعقابهم .

وقد وصف جيش اليمـن بأنه كان يجمع طوائف مختلفة ، (لكل حى لواء) ،
أحاطت كلها برئيس يـمـنى ، برز من بينهم كأنه هضبة عالية ، ومع الجيش
جمع من النساء الكريمات ، اللاتى لا يأمرهن رجل ، وإنما تحكم فيهن كريمة
من يبنهن — ومن بعد ذلك هزمننا حـجـر بن أم قـطـام الكندى ، حين
سار لغزو امرئ القيس الثانى — جد عمرو بن هند — يقود كتيبة فارسية
قد علا دروعها الصدا ، فأنهـلنا الرماح من أجسامهم ، كما تتحرك الدلاء فى البئر
صاعدة هابطة .

وثانى هذه الآيات فـكـكـنا أغلال امرئ القيس (أخى الملك) ، وإنقاذه
بعد أن طال حبسه والعناء ، وقتلنا ملك غسان قـوـداً بالمنذر بن ماء السماء ،
وأسرنا من بنى آكل المـرـار تسعة أملاك أسلابهم أغلاء ، وهزيمتنا البـجـون
حين خف لإنقاذهم يقود جيشا من الأوس .

وثالث هذه الآيات ما بيننا وبين الملك من قرابة . فنحن ولدنا الملك عمرا
من أم أناس الشيبانية جدته لأمه . وهذه القرابة حقيقة أن توجب له علينا
الإخلاص والوفاء .

وبهذه الخاتمة الرائعة يختم الحارث قصيدته ، وقد ضمن أنه ترك في الملك أثراً عظيماً ، وعطفه على قومه .

ولشاعر هنا صفتان بارزتان . فهو محام يتولى الدفاع عن قومه ، في أسلوب خطابي رائع ، يجمع بين التأثير والإقناع . ثم هو مؤرخ قصاص ، قد وعى التاريخ والأنساب ، وأحاط بهما أدق إحاطة . وأروع ما في القصيدة سهولتها التي تصور طبعاً شعرياً سمحاً صافياً ، وألفاظها التي تجمع بين قوة التعبير والإيجاز المثير ، وترتيبها الذي يصور إلى جانب القدرة الشعرية موهبة خطافية ممتازة .

وأقوى ما يكون هذا اللون من الهجاء ، حين يهاجم الملوك والدول الكبيرة ، التي تحاول بسط سلطانها على من جاورها من القبائل . لأن الشعر يبدو في مثل هذه المواطن ، معبراً عن عاطفة إنسانية ، أعم وأشمل مما نجد في ذلك الهجاء ، الذي يصور نزاعاً بين القبائل ، هو قريب من النزاع الفردي . فهو شعر يصور الحرية ومقاومة الطغيان ، ويستند إلى عاطفة إنسانية دائمة ، تجدد من يتجاوب معها ويتأثر بها في كل عصر ومكان . أما ذاك ، فشعر يقوم على منفعة الفرد ، وكل ما يستند إليه من المثل ، هو القوة المطلقة ، التي تجعل صاحبها محقاً في كل ما يأتي وما تنال يده .

ومعظم هذا الهجاء في القبائل القريبة من العراق . وهو شعر نادر ، يصور إباء هذه الجماعات لظلم المناذرة ، وما يفرضون عليهم من إتاوات غير عادلة . والعربي بطبعه ينفر من السلطان المنظم ، ويأبى أن ينزل على حكم المُحتَكَم ونحن نقدم بعض مختارات من هذا الشعر :

قال جابر بن حنّس التغلبي ، يصور ما آل إليه قومه من ذل ، وقد فرق بينهم الشر ، بعد أن كانوا يدا واحدة ، وهدم بنيانهم ، بعد أن كان متيناً مشيداً . صاروا إلى قبول الديات ، وكانوا ينزلون الشجر المخوف ، ففتواضع لهم مَخَارِمُهُ . وهو يصور فيما يصور من الذل الذي لحق قومه ، هذه الإتاوات

التي يؤدونها كارهين لجباسة المناذرة ، ويتهددهم مينا قوة قومه وجلدهم
على الحروب :

لَتَغْلِبَ أَبْكَى إِذَا ثَارَتْ رِمَاحُهَا
غَوَاثِلُ شَرٍّ بَيْنَهَا مُتَثَلِّمٌ
وكانوا هم البانين قبل اختلافهم
وَمَنْ لَا يَشِدُّ بِنَانَهُ يَتَهْدَمُ
بحي ككوثل السفينة أمرهم
إِلَى سَلَفٍ عَادٍ إِذَا احْتَلَّ مُرْزَمٌ ^(١)
إِذَا نَزَلُوا الثَّغَرَ أَخْشَوْفَ تَوَاضَعَتْ
خِثَارُهُمْ وَاحْتَلَّهُ ذُو الْمَقْدَمِ ^(٢)
أَنِفَتْ لَهُمْ مِنْ عَقْلٍ قَيْسٍ وَمَرْتَدٍ
إِذَا وَرَدُوا مَاءَ وَرْمَحِ ابْنِ هَرْمٍ ^(٣)
وَيَوْمًا لَدَى الْحِشَارِ مَنْ يَلُوحِ حَقُّهُ
يُسْبِرُ نَزْزًا وَيُنْزِعُ ثَوْبَهُ وَيُلْطِمُ ^(٤)
وَفِي كُلِّ أَسْوَاقِ الْعِرَاقِ إِتَاوَةٌ
وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ أَمْرٌ مَكْنَسٌ دِرْهَمٍ
وَقِيْظُ الْعِرَاقِ مِنْ أَفَاعٍ وَغُدَّةٌ ^(٥)
وَرَزَعِي إِذَا مَا أَكَلُوا مُوْخِمٌ

-
- (١) كوثل السفينة ذنبها الذي توجه به (الدفة) يقول إنهم يقيمون أمور الناس كما يقيم السكان السفينة . مرزم على صيغة اسم الفاعل من الرزمة بثلاث فتحات وهي الجلبة والعصجة .
(٢) الخارم جمع خرم وهي الطرق الوعرة في الجبال .
(٣) رمح بن هرم رجل من قومه والعقل الدية . يتألم لأن قومه صاروا من الإذل بحيث لا يأخذون نأر قتلاهم ولكنهم يقبلون دياتهم من الإبل فيعيرون بها حين ترد الماء .
(٤) الحشار الجانب الذي يجمع الضرائب . يلوي يمل . للبرزة السوق الشديد والدفع العنيف .
(٥) القدة طاعون الأبل . أكلوا أكثر كلهم . موخم زيل غير مري .

أَلَا تَسْتَحْيُ مِنَّا مَلُوكَ وَتَسْقَى
نُعَاطِي الْمُلُوكِ السِّلْمَ وَمَا قَصَدُوا بِنَا
وَكَاثِنُ أَزْرِنَا الْمَوْتَ مِنْ ذِي تَحِيَّةٍ
وَقَدْ زَعَمْتَ بَهْرَاءُ أَنْ رَمَاحُنَا
فِي يَوْمِ الْكَذِّابِ قَدْ أَزَالَتْ رَمَاحُنَا
لِيَنْزِعَ عَنْ أُرْمَاحِنَا فَأَزَالَهُ
تَنْأُولَهُ بِالرَّحْمِ ثُمَّ أَتْنَى لَهُ
وَكَانَ مُعَادِينَا نَهْرٌ كَلَابُهُ
وَعَمْرُو بْنُ هَنْدٍ قَدْ صَقَعْنَا جَبِينَهُ
يَرَى النَّاسُ مِنَّا جِلْدَ أَسْوَدَ سَالِحٍ
وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الْحَزَاقِ الشَّيْنِيُّ — وهو شاعر من عبد القيس — يتهدد
النعمان ، ويتهمة بالخيانة والخذاع ، وبأنه يضمر لهم الشر . ويقول إنه قد
ركب أنوفهم جهلا منه وغرورا . ويستخف به قائلا ها نحن أولاء ننتظر
ما تستطيع أن تفعل بنا :

أَعْدَدْتُ سَبْحَةً بَعْدَ مَا قَرَحْتُ
لَنْ تَجْعَمُوا وَدُّيَ وَمَعْتَبِي
نُعْمَانُ إِنَّكَ خَائِنٌ خَدِيعٌ
فَإِذَا بَدَا لَكَ نَخْتُ أَتْلُتِنَا
وَلَبِستُ شِكَّةَ حَازِمٍ جَلْدُ (١)
أَوْ يُجَمِّعُ السَّيْفَانِ فِي غَمْدِ (٢)
يُخْفِي ضَمِيرُكَ غَيْرَ مَا تَبْدِي
فَعَلَيْكَهَا إِنْ كُنْتَ ذَا حَرْدِ (٣)

(١) أسف دنا . مأثم إثم .

(٢) الشقاء الطويلة من الخيل . الصلدم الصلبة .

(٣) الأسود العظيم من الحيات . الضرغام والضيغم الأسود .

(٤) سبحة اسم فرسة . فرحت تمت أسنانها في الخامسة من عمرها . الشكة السلاح .

(٥) المعتبة المروجة والمعاداة . (٦) الحرد القصد والتمند .

يَأْبَى لَنَا أَنَّا ذَوُو أَنْفٍ وَأُصُولُنَا مِنْ مَحْتَدِ الْمَجْدِ
 إِنْ تَغَزُ بِالْخِرْقَاءِ أُسْرَتْنَا تَلْقَى الْكَتَائِبَ دُونَنَا تَرْدَى (١)
 أَحْسَبْتَنَا لِحْمًا عَلَى وَضَمٍّ أَمْ خَلَّتْ نَافِي الْبَاسِ لَا نُجْدَى
 وَمَكَرْتَ مُغْتَلِيًا مَخْنَتَنَا وَالْمَكْرُ مِنْكَ عِلَامَةُ الْعَمْدِ (٢)
 وَهَزَزْتَ سَيْفَكَ كَيْ تَحَارِبَنَا فَانْظُرْ بِسَيْفِكَ مَنْ بِهِ تَرْدَى
 وَأَرَدْتَ خُطَّةَ حَازِمٍ بَطْلٍ حَيْرَانَ أَوْ بَقَّةُ الَّذِي يُسْدَى
 وَلَقَدْ أَضَاءَ لَكَ الطَّرِيقُ وَأَنْهَجْتَ سُبُلَ الْمَسَالِكِ وَالْهَدَى يُعْدَى (٣)

وقال أيضاً يهجو النعمان ، وقد آلى أن يغزوهم . يقول له : تحلل من قسّمك ، فما أظنك قادراً على البر به . ثم يتهدهه قائلاً : أقيموا عنا صدوركم ، فلسنا ملاحين أذلاء ، نعطي المُكُوسَ من يطلبها ، وإن لنا من القوة ما يردك عما تريد بنا من ظلم :

أَلَا هَلْ أَتَاهَا أَنْ شَكَّةَ حَازِمٍ لَدَى وَأَنْى قَدْ صَنَعْتَ الشَّمَّ وَ سَا (٤)
 وَدَاوَيْتُهَا حَتَّى شَتَّتْ حَبْشِيَّةً كَانََّ عَلَيْهَا سُنْدُسًا وَسَدُسًا (٥)
 قَصَرْنَا عَلَيْهَا بِالْمَقِيزِ لِقَاحِنَا رِبَاعِيَّةً وَبَازِلًا وَسَدِيسًا (٦)
 فَاضْتُ كَتِيسَ الرِّبْلِ تَسْزُو إِذَا نَزَتْ عَلَى رِبْذَاتٍ يَغْتَلِينَ خَنُوسًا (٧)

(١) أراد بالخرقاء الخطة الخرقاء أو الصفة الخرقاء يقصد الجهل والتهور . الرديان أسرع من المشى وأقل من الجرى .

(٢) الخنة الأنف .

(٣) أنهجت وضحت . يعدى يعين ويقوى . يقول قد وضحت لك حقيقتنا فاتبع الحق يدك على طريقك .

(٤) الشَّمُوس اسم فرس آخر له . وصنعه أحسن القيام عليه .

(٥) مداواة الفرس علاجها وتضميرها .

(٦) اللقاح جمع لقوح وهى الناقة الخلوب يقول إنه كان يكرم هذه الفرس لأنه كان يعدها للقتال .

فكان يسميها ابن هذه الأبل . الرباعية والبازل والسديس اسماء للابل فى أطوارها المختلفة .

(٧) آضت رجعت . يقصد بالكتيس هنا . ذكر الظباء والربل نبت برعاء . تزو تثب . ربذات خيفات

يعنى قوائم الفرس . خنوسا تخنس بعض جريها أى تحقية فلا تبذل كل جهدها .

نُعِدُّ لِيَوْمِ الرَّوْعِ زَعْفَاءَ مُقَاَضَةً

دِلَاصاً وَذَا غَرْبٍ أَحَدٌ ضُرُوساً^(١)

نُجِيدُ عَلَيْهَا الْبَزَّ فِي كُلِّ مَا زَرَقَ

إِذَا شَهِدَ الْجَمْعُ الْكَثِيفُ خَمِيساً^(٢)

تَحْلَلُ أَيْتَ اللَّغْنِ مِنْ قَوْلِ آئِمٍ

عَلَى مَالِنَا لِيُقَسِّمَنَّ خُمُوساً

إِذَا مَا قَطَعْنَا زَمَلَةً وَعَدَاهَا

فَإِنَّ لَنَا أَمْرًا أَحَدٌ غُمُوساً^(٣)

أَقِيمُوا بَنِي النِّعْمَانِ عَنَّا صُدُورَكُمْ

وَإِنْ لَا تُقِيمُوا كَارِهِينَ الرُّوسَا

أَكَلٌ لَيْسَ مِنْكُمْ وَمُعْلَجٌ

يَعُدُّ عَلَيْنَا غَارَةً نَحْبُوساً^(٤)

أَلَا ابْنَ الْمُعَلَّى خَلَّتْنَا وَحَسِبْتَنَا

صَرَارِي نَعْطِي الْمَاكِسِينَ مُكْدُوساً^(٥)

فَإِنْ تَبَعَعَشُوا عَيْنًا تَمَنَّى لِقَاءَنَا

تَجِدُ حَوْلَ أَيَاتِي الْجَمِيعَ جُلُوساً

(١) الزحف الدرع اللينة . مقاضاة واسعة . دلاص مهلة . غرب كل شيء حده ويقصد بذي غرب السيف . الأحذ الخفيف . الضروس الشرس السوء الخلق يصف السيف بذلك .

(٢) البز السلب .

(٣) العذاب الجبل من الرمل . أخذ شديد . غموس غامض .

(٤) العلج الأعجمي الذي ليس عربياً . والمعلج مشتقة منها بمعنى ليس خالص العربية . يتهم المناذرة بأنهم ليسوا عرباً خالصاً لما هو معروف من ولائهم للفرس . الخبوس يضم الخاء الظلم .

(٥) صراري ملاحون . الماكس الجاني . المكوس الضرائب .

وقال المُتَسَلِّمُ يهجو المناذرة — وهو من ضبيعة بن ربيعة —

يبدأ قصيدته بذكر الموت، وأنه حتم على كل حي، فمن العجز أن يقبل الناس
الضيم مخافة موت هم صائرون إليه على كل حال. وهو يتهكم بالنعمان، قائلاً:
هَلُمَّ فَقَدْ تَرَعَرَعْتَ زُرُوعَنَا، وَأَخْصَبْتَ أَرْضَنَا، لِلذَّبَابِ وَالزَّانِيرِ فِيهَا طَيْنِ.
هَلُمَّ إِنْ اسْتَطَعْتَ فَاغْرِنَا. إِنَّكَ إِذْنٌ وَاجِدٌ مَن يَرُدُّكَ. فنحن نقابل الود بالود،
ولكن فينا إباءٌ وشماساً على الظالم الغاشم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرءَ رَهْنٌ مَمْنُونٌ

صَرِيحٌ لَعَنَ فِي الطَّيْرِ أَنَّ سَوَافَ يُرْمَسُ^(١)

فَلَا تَقْبَلَنَّ ضَيْمًا مَخَافَةَ مَيْتَةٍ

وَمُوتَنَّ بِهَا حُرًّا وَجَانِدُكَ أَمَاسُ^(٢)

فَمِنْ طَلَبِ الْأَوْتَارِ مَا حَزَّ أَنْفَهُ

قَصِيرٌ وَخَاضَ الْمَوْتَ بِالسَّيْفِ يَيْهَسُ^(٣)

نَعَامَةً لَمَّا صَرَعَ الْقَوْمَ رَهْطَهُ

تَبَيَّنَ فِي أَثْوَابِهِ كَيْفَ يَلْبَسُ

وَمَا النَّاسُ إِلَّا مَا رَأَوْا وَتَحَدَّثُوا

وَمَا الْعِجْزُ إِلَّا أَنْ يُضَامُوا فَيَجْلِسُوا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْجَوْنَ أَصْبَحَ رَاسِيًا

تَطِيفٌ بِهِ الْأَيَّامُ مَا يَتَأَيَّسُ^(٤)

(١) صريح لعن الطير يموت في معركة فتترك جثته للطيور والسباع.

(٢) جلدك أملس أراد وأنت برىء من العار. ولم يرد بالطبع أنه برىء من الجراح.

(٣) قصير هو صاحب جذية الأبرش يشير إلى قصته مع الزباء الزومية. وكان قد جدد أنفه وتوصل إلى خدمتها حتى أخذ بثأره. يهس رجل من بني فزارة كان يهوى وكان يلقب (نعامة) قتل له سبعة إخوة فجعل يلبس القميص مكان السراويل والسراويل مكان القميص حتى توصل إلى أن طلب يدهما إخوته.

(٤) الجون حصن بالنيامة يقال إنه من بناء طسم وجديس وهم من العرب البائدة. ما يتأيس لا يلين. يقول إن قومه في حصن حصين. ويقول إن هذا الحصن قد استعصى على تبع لما غزى المدن والقرى. والصفيح الحجارة العراض.

عَصَى تَبَعًا أَيَّامَ أَهْلِكَتِ الْقَرْيَ
 يُطَاكُنُ عَلَيْهِ بِالصَفِيحِ وَيُكَلِّسُ
 هَلُمَّ إِلَيْهَا قَدْ أُثِيرَتْ زُرُوعُهَا
 وَعَادَتْ عَلَيْهَا الْمُنْجَنُونَ تَكْدَسُ (١)
 وَذَلِكَ أَوَانُ الْعَرِضِ جُنَّ ذُبَابُهُ
 زَنَائِيرُهُ وَالْأَزْرَقُ الْمُتَكَلِّمُ (٢)
 يَكُونُ نَذِيرٌ مِنْ وَرَائِي جُنَّةٌ
 وَيَنْصُرُنِي مِنْهُ جَلِيٌّ وَأُحْمَسُ (٣)
 وَجَمْعُ بَنِي قُرَّانٍ فَاعْرِضْ عَلَيْهِمْ
 فَإِنْ يَقْبَلُوا هَاتَا الَّتِي نَحْنُ نُؤَبِّسُ (٤)
 فَإِنْ تُقْبَلُوا بِالْوُدِّ تُقْبَلُ بِمَثَلِهِ
 وَإِلَّا فَإِنَّا نَحْنُ آبِي وَأَشْمَسُ
 وَإِنْ يَكُ عَنَا فِي حَبِيبٍ تَتَأَقَّلُ
 فَقَدْ كَانَ مِنَّا مَقْسَبٌ مَا يُعْرَسُ (٥)
 وَقَالَ أَيْضًا يَتَهَدَّدُ عَمْرُو بْنُ هَنْدٍ ، وَيَسْخَرُ مَا يَزْعَمُ لِنَفْسِهِ مِنْ حَقُونِ
 عَلَى النَّاسِ :
 أَلَكَ السَّدِيرُ وَبَارِقٌ وَمَنْ أَبْضُ وَلَكِ السَّخَوْرُ نَقُ (٦)
 وَالْقَصْرُ ذُو الشَّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَادٍ وَالنَّخْلُ الْمُبَسَّقُ

-
- (١) المنجنون الدولاب الذي يستعمل في رى الأرض . تكدس يركب بعضها بعضها في الدوران .
 (٢) العرض من أودية النمامة . جن ذبابة كثر ونشط . زنايره بدل من الذباب وكذلك الأزرق .
 المتكلم وهو يشير به إلى نوع آخر من الذباب .
 (٣) جلي وأحمس بطون من قومه ضيعة بن ربيعة . ونذير هو ابن بهثة بن وهب .
 (٤) الأابس القهر . يقول اعرض هذه الخطة النكرام الى تسومنا إياها على بني قران وانظر
 هل يقبلونها .
 (٥) المقنب زهاء ثلاثمائة من الخيل . التعريس نزول آخر الليل . يقول إنهم لا يستريحون حتى
 يدركوا نأرهم .
 (٦) السدير وبارق والخورنق بنايات مشهورة . ومرابض موضع بنواحي الحيرة كان مكانا للتره . .

وَالْعُمْرُ ذُو الْأَحْسَاءِ وَاللَّذَاتُ مِنْ صَاعٍ وَدَيْسَقٍ^(١)
وَالْتَغْلِبِيَّةُ كَأُهَا وَالْبَدْوُ مِنْ عَانٍ وَمُطَلَقٍ
وَتَظَلُّ فِي ذَوَامَةِ الْمَوْلودِ يُظْلِمُهَا تَحَرَّقُ^(٢)
فَلَنْ نَعِشَ فَلَتَبُلْغَنَ أَرْمَاحُنَا مِنْكَ الْمُخَنَّقِ
أَبَقْتُ لَنَا الْآيَامُ وَاللِّزَابَاتُ وَالْعَانِي الْمُرْهَقِ
جُرْدًا بِأَطْنَابِ الْبُيُوتِ تَعَلَّ مِنْ حَلَبٍ وَتُغْبَقِ
وَمُشَقَّفَاتٍ ذُبْلًا حُصْدَا أَسْنَتِهَا تَأَلَّقِ
وَالْبَيْضَ وَالزَّغْفَ الْمُضَضَّ اعْفَ سَرْدُهُ حَاقَ مُوْثَقٍ^(٣)
وَصَوَارِمًا نَعَصَى بِهَا فِيهَا لَنَا حِصْنٌ وَمَلْزَقٍ^(٤)
وَمَحَلَّةٌ زَوْرَاءَ فِي حَافَاتِهَا الْعِقْبَانُ تَخْفِقُ
وَإِذَا فَزَعْتَ رَأَيْتَنَا جَلَقًا وَعَادِيَةً وَزُرْدَقٍ^(٥)
مَا لِلْيُوثِ وَأَنْتَ جَا مَعَهَا بِرَأْيِكَ لَا تَفَرِّقِ
وَالْظُلْمُ مَرْبُوطٌ بِأَفْنَانِيَةِ الْبُيُوتِ أَغْرَ أَبْلَقِ
وَقَالَ أَيْضًا ، وَقَدْ طَرَدَهُ عَمْرُو وَنَذَرَ دَمَهُ :

أَطْرَدْتَنِي حَذَرَ الْهَجَاءِ وَلَا وَاللَّاتِ وَالْأَنْصَابِ لَا تَتَلَّ^(٦)
وَرَهَنْتَنِي هِنْدًا وَعِرْضُكَ فِي صُحُفٍ تَكُؤُوحُ كَأَنَّهَا خِلَلُ^(٧)

(١) العمر موضع . الحبي الأرض السهلة التي يستنقع فيها الماء . الديسق بعض الآنية .

(٢) الدوامه لعبة لصبيان العرب يرمون بها على الأرض بالحيط فتدوم أى تدور وهي التي تسمىها

اليوم (النحلة) تحرق تلهب غيظا يقول لعمرؤ . لك كل هذا الملك العريض ويلهبك الغضب في أتفه شيء ؟

(٣) الزغف الدروع اللينة . السرد المتتابع النسيج حلقتين حلقتين .

(٤) نعصى بها نتخذها بمزلة العصى . ملزق ملجأ .

(٥) العادية قوم يعدون على أرجلهم ، يقول لنا فرسان ورجالة . الزردق بالفارسية صف

وصفها هنا .

(٦) طردتنى صيرتنى طريدا : لا تتل لا تنجو والماضى وأل نجا .

(٧) هند أم الملك عمرو . الخلل جمع خلة بكسر الخاء وهو نقش يكون في بياضة السيف .

شَرُّ الْمُلُوكِ وَشَرُّهَا حَسْباً
الْغَدْرُ وَالْآفَاتُ شَيْئُهُ
فَافْهَمُ فَعُرْقُوبٌ لَهُ مِثْلُ
عُرْكُ الرَّهَانِ وَبِئْسَ مَا بَخِلُوا
كَالطَّبْنِ لَيْسَ لِبَيْتِهِ حَوْلٌ (١)

وقال طرفة بن العبد ، وهو من شيبان البكري

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو
مِنْ الزَّمَرَاتِ أَسْبَلُ قَادِمَاهَا
رَغْوُثًا حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخُورُ (٢)
وَضَرْيُهَا مُرَكَّنَةٌ تَدُورُ (٣)
وَتَعْلُوهَا الْكِبَاشُ فَمَا تَنْوَرُ (٤)
لِيَخْلِطُ مَلِكُهُ نَوَكٌ كَثِيرُ (٥)
كَذَاكَ الْحِكْمُ يَقْصِدُ أَوْ يَجُورُ
تَطِيرُ الْبَائِسَاتُ وَلَا نَطِيرُ
تَطَارِدُهُنَ بِالْحَدَبِ الصَّقُورُ (٦)
وَقُفُوفًا مَا نَحُلُّ وَمَا نَسِيرُ
وَأَمَّا يَوْمُهُنَّ فَيَوْمُ نَجْصٍ
وَأَمَّا يَوْمُنَا فَنُظِلُّ رَكْبًا

وقال الحارث بن ظالم الديباني ، وهو من أشراف بني مرة وساداتهم .
وكان فاتكاً شجاعاً ، فتك بخالد بن جعفر بن كلاب بن ربيعة وهو نازل على

(١) الطَّبْنُ بكسر الطاء وفتحها لعبة للعرب .

(٢) الرَغْوُثُ كل مرضعة . يقصد هنا النجعة كما يظهر ذلك من الآيات التالية . يقول ليت لنا مكان عمرو بن هند نجعة تحكم علينا .

(٣) الزمر يوزن كنف القليل الشعر والصوف . الضرة الضرع أو أصل الثدي . القادم من الأطباء والصروع الخلفان المتقدمان وأصله للناقة جعله للشاة . أسبل طال وكل .

(٤) الرخل على وزن كنف الأنثى من أولاد الصنن تغاركننا في لبنها . نارت نفرت من الفعل : يصف في هذا البيت وفي البيت السابق النجعة التي تصور أنها ستقوم مقام عمرو بن هند في ملكه . يقول إن نجعة هذه صفتها تغني عنه بل هي خير منه .

(٥) النوك الحق . (٦) الحدب الموج والرمل والغلط المرتفع من الأرض .

النعمان ، وفتك بابن النعمان ، وكان في حجر أخته سلى بنت ظالم امرى . وهو هنا يخاطب النعمان ، متشمتا في قتل ابنه ، مهدداً بقتله هو نفسه ، ويذكر أنه قد فعل ذلك ثائراً لجيران له ، أصابهم منه شر في إبلهم وفي أنفسهم .

قَفَا فَاَسْمَعَا أُخْبِرْكَ إِذْ سَأَلْتُمَا
 مُحَارِبُ مَوْلَاهُ وَثَمَّكَ لَانُ نَادِمُ (١)
 فَأَقْسِمُ لَوْلَا مِنْ تَعَرَّضَ دُونَهُ
 لَخَالَطَهُ صَافِي الْحَدِيدَةِ صَارِمُ (٢)
 حَسِبْتَ أَبَا قَابُوسَ أَنْكَ سَالِمُ
 وَلَمَّا تُصِبْ ذُلًّا وَأَنْفُكَ رَاغِمُ
 فَإِنَّ تَكَ أَذْوَادُهُ أَصْبَنَ وَصِيَّةُ
 فَهَذَا ابْنُ سَلَى رَأْسُهُ مُتَفَاقِمُ (٣)
 عَلَوْتُ بِذِي الْحَيَّاتِ مَفْرَقَ رَأْسِهِ
 وَهَلْ يَرْكَبُ الْمَكْرُوهَ إِلَّا الْأَكَارِمُ
 فَتَكْتُ بِهِ كَمَا فَتَكْتُ بِخَالِدِ
 وَكَانَ سِلَاحِي تَسَجَّتْ وَيهِ الْجَمَاجِمُ
 أَخْصِي حِمَارِي بَاتَ يَكْدُمُ نَجْمَةً !
 أَنَا كُلُّ جِيرَانِي وَجَارُكَ سَالِمُ ؟
 بَدَأْتُ بِهِذَى ثُمَّ أَثْنِي بِهِذِهِ
 وَثَالِثَةً تَبْيِضُ مِنْهَا الْمَقَادِمُ

(١) محارب موله يقصد نفسه لأنه قتل ابن الملك . وثمكلان نادم يعنى الملك لأنه فقد ولده .

(٢) يقول لولا ما يتحجب به الملك من حرس لقتله .

(٣) الذود الجماعة من الابل يشير إلى ما كان من انتهاب إبل جارة له . متفاقم غير ملتئم . ابن

سلى يعنى به ابن الملك لأنه كان في حجر سنان بن أبي سارثة وسلى زوجة سنان .

(٤) يكدم بعض . نجمة واحدة النجم وهو الثبت الذى لا ساق له . يخاطب النعمان ياخصي حماري

أناكل مال جيراني ثم أترك جارك سالما ؟ .

الاعشى

شهرة الاعشى فى عالم الشعر والنقد تقوم على تفوقه فى الخمر . وجملتهم المشهورة فى ذلك « امرؤ القيس إذا ركب ، والنابعة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والاعشى إذا طرب » . ولكننا نتحدث عنه هنا بوصفه أكبر هجاء سياسى ظهر فى العصر الجاهلى .

صور القدماء الاعشى فى قصصهم رحالة يحوب بشعره الآفاق باحثاعمن يشتري مديحه . وقالوا إنه أول من تكسب بشعره . قال صاحب العمدة : وكانت العرب لا تتكسب بالشعر . وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاكة ، ومكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها حتى نشأ النابغة الذبياني ، فدح الملوكة ، وقبل الصلة على الشعر وتكسب زهير بن أبى سلمى يسيرا مع هرم بن سنان ، فلما جاء الاعشى جعل الشعر متسجرا يتجر به نحو البلدان ، وقصد حتى ملك العجم ، فأثابه وأجزل عطيته ، علما بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه . على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له ، بل استهجنه واستخف به ، ولكن احتذى فعل الملوكة ملوك العرب — وأكثر العلماء يقولون إنه أول من مدح بشعره .) وهذه صورة ، على ما فيها من صدق ، تضلل الباحث فى تصور هذا الشاعر الكبير على حقيقته . فمن الحق أن الاعشى كان صاحب لذة وخمر ، ولكنه كان يذهب فى ذلك مذهب قتيان العرب ، الذين يهجمون على اللذة قبل أن يهجم عليهم الموت ، لا يرون فيها محرما ومباحا ، وإنما هى عندهم مبذولة لمن يستطيع أن ينالها ، وليس ينالها إلا القوى الجريء . ومن الحق أن الاعشى قدم مدح بعض الأشراف من غير قومه ونال عطاءهم — مدح قيس بن معد يكرب ، وهو أبو الأشعث بن قيس ، وكان من أشراف كنده وملوكها ، ومدح إياس بن قبيصة الطائي . وكان عامل كسرى على عين التمر وما والاها إلى الحيرة ، وقد

حملك الحيرة بين وفاة المنذر وملك ابنة النعان ، ثم عاد إلى ملكها بعد النعان ، إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ — وأم أياس ربيعة من شيبان بن ثعلبة ، ومدح سلامة ذا فائش ، وهو من سادة اليمن ، ومدح الأسود بن المنذر ، أخا النعان ، في مطولته المشهورة « ما بكاء الكبير بالأطال » .
ولكن كل ذلك لم يفقده صفته السياسية الأصلية في الدفاع عن قومه ، فكان صوتهم القوى الذي خلد يوم ذى قار ، وكان بعد ذلك لسان قومه فيما ينشأ بينهم وبين جيرانهم من منازعات .

لم يحفظ لنا التاريخ شيئا عن نشأة الأعشى أو شبابه . وكل ما نعرفه أن أباه يسمى قتيل الجوع ، سمي بذلك لأنه دخل غارا يستظل فيه من الحر ، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم الغار ، فمات فيه جوعا . ونحن لا نعرف متى مات أبوه ، وهل تركه ناشئا أم رجلا ، ولكن نعرف أن قبيلة الأعشى — قيس من ثعلبة البكري — كانت مشهورة بكثرة شعرها وشعرائها . يروى عن حسان أنه سئل : من أشعر الناس ؟ فقال . أشعر بعينه أم قبيلة ؟ قالوا : بل قبيلة . قال — الزُّرْقُ من بني قيس بن ثعلبة . يروى هذا الحديث عن غير حسان . وكان عبد الملك بن مروان يقول : إذا أردتم الشعر الجيد ، فعليكم بالزُّرْق من بني قيس بن ثعلبة ، وبأصحاب النخل من يثرب ، وأصحاب السعف من هذيل . ونعرف أن الأعشى قد اتصل بخاله المسيَّب بن علس — وهو معدود في الشعراء المُقْبَلين — يروى شعره حتى نبغ ، واحتل من قبيلته مكانا ممتازا ، ثم ذاع صيته في أنحاء الجزيرة العربية حتى أصبح مسموع الصوت ، مرهوب الجانب ، من الذين يحسب الناس لشعرهم حسابا ، حتى لقد فزعت قريش حين علموا بمقدمه على النبي في المدينة — وهم متهاذنون في صالح الحديبية سنة ٦ هـ — فجمعوا له من مالهم مائة ناقة حمراء ، على أن يعود من عامه .

كانت خلائق الأعشى خلائق الفتيان في الجاهلية . روي أن بعض ولادة
اليمامة مر بمنزله في منقوحة ، وزار قبره فرآه رطبا . فلما سأل عن علة ذلك ،
أخبر أن الفتيان ينادمون ، فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فإذا صار إليه
القدح صبوه عليه ، وذلك لقوله « أَرِجِعْ إِلَى الْيَمَامَةِ فَأَشْبِعْ مِنَ الْأَطْيَبِينَ
الزَّنا وَالْخَمْرَ » وكان صاحب لذة يرى القعود عنها عجزاً لا يليق بالفاتك الجري .
ومن أجل ذلك نراه في غزلة لا يقيم على صاحبة ، بل يغلب عليه أن يكتفي
بالإشارة إلى هذه الصاحبة أو الخليفة بقوله « تيا » أو « جارتنا » . وهو ولوع
بتصوير هذه الصاحبة محفوفة بالمصاعب والأخطار ، وكأنه يرى الكفاج في
سبيل الوصول إليها ، والظفر بها آخر الأمر ، جزءاً أصيلاً من لذته . فهو
لا يرى العيش إلا مغامرة في سبيل الظفر باللذة ، تغتصب من الدهر اغتصاباً .

ألم تَنْهَ نفسك عما بها	بلى عاذاها بعض أطرابها (١)
لجارتنا إذ رأت لَمَّتِي	تقول لك الويلُ أَنِّي بها
فإن تعهديني ولي لَمَّةٌ	فإن الحوادث أَلَوَى بها (٢)
وقبلك ساعيتُ في رَبِّ رَبِّ	إذا نام سامرُ رُقَّابها (٣)
تُنازِعُنِي إذ خَلَّتْ بُرْدَها	مفضلةٌ غيرَ جلبابها (٤)
فلما التقينا على بابها	ومدت إليَّ بأسبابها
بذلنا لها حُكْمَها عندنا	وجادت بحُكْمِي لألْهِي بها
فطوراً تكون مهاداً لنا	وطوراً أكونُ فيُعْلَسِي بها
على كل حال لها حالةٌ	وكلُّ الأَجاري يُجسِرِي بها
وكأْسٍ شربتُ على لذة	وأخرى تداويتُ منها بها

(١) أطرابها أحرانها .

(٢) اللة ما جاوز شحمة الأذن من الشعر . ألوى بها ذهب بها .

(٣) الرب الرب القطيع من بقر النوحش يشبه به النساء . المساعة الفجور ، وكان الأماة يساعين في
الجاهلية وفلان يساعى الامام يزانهن .

(٤) مفضلة مبتذلة لأبسة جلبابها مباشرة لجسمها لاشيء تحب .

لكي يعلم الناس أني أمرؤٌ . أتيتُ المعيشة من بابها
ويقول :

فقد أشرب الراح قد تعلين يوم المُقام ويوم الظعن
وأشرب بالريف حتى يقنا ل قد طال بالريف ما قد دجن^(١)
وأقررت عيني من الغانيا ت إِمّا نكاحاً وإِمّا أزن
ويقول :

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعني
شاوٍ مشلٍ شاولٍ شاشلٍ شولٍ^(٢)
في فتية كسيوف الهند قد علوا
أن ليس يدفع عن ذى الحيلة الحيلُ
نازعتهم قُضْبَ الرِيْحَانِ متكئا
وقهوة مُزرة رَاوُوقُهَا خَضِلُ^(٣)
لا يستفيقون منها وهي راهنة
إلا بهاتِ وإن علّوا وإن نهّلوا^(٤)
يسعى بها ذو زجاجات له نُطَفُ
مُقَالِصٍ أسفل السّرْبَالِ مُعْتَمِلٍ^(٥)
ومُسْتَجِيبٍ تَحَالُ الصَّنَجِ يَسْمَعُهُ
إذا تُرْجِعَ فيه القَيْنَةُ الْفُضْلُ^(٦)

(١) دجن ورجن ثبت وأقام .

(٢) شاوٍ شواء يشوى اللحم . مشل سواق من شل الابل طردها وساقها . شلول نشول ينشل .

اللحم من القدر إلى القوم حاذق، لذلك شلشل خفيف . شول يحمل الشيء .

(٣) القهوة الخمر . الراووق الوعاء الذى تروق فيه الخمر . خضل دائم الندى لكثرة استمالم .

(٤) النهل الشرب الأول والعلل الشرب الثانى . يقول إنهم لا يتوقفون عن الشراب مها شربوا .

إلا ربّما يقولون للساق : هات ! .

(٥) العطفة اللؤلؤة العظيمة . معتمِل يخدم ويعمل فى نشاط .

(٦) المستجيب العود يجيب الصنج أى يشاكله . الصنج دوائر رقاق من نحاس يصفق باحداها على

الأخرى وهي كالتى تكون أيدى الزافصات (الساجات) . الفضل التى تفضل أى تبذل فلبس ثوباً واحداً كما تكون فى خلوتها .

من كل ذلك يوم قد هوت به

وفي التجارب طولُ اللهو والغزل

وهذا الحرص على اللذة ، قد جعل الأعشى في حاجة دائمة إلى المال ، يستجلبه من كل وجه . فلم يكن المال في نظره إلا طاقة مختزنة — على حد تعبير العلماء — يمكن تحويلها إلى ألوان من اللذة . فالحرص على جمعه يصور حرصا على اللذة . لا يكاد يجتمع إليه شيء منه ، حتى يستنزفه في لذته ، واذة من يجتمع إليه من صحبه ورفاقه ، ثم يعاود الرحلة في سبيل الحصول عليه من جديد .

رحل الأعشى إلى الأشراف يمدحهم، وألحف عليهم بالسؤال، وصرح بذلك في شعره تصريحاً حمل مؤرخي الأدب على أن يعتبروه أول من سأل بشعره . فهو يقول لقيس بن معد يكرب في أول قصيدة مدحه بها :

فَإِنِّي أَمْرٌ	إِلَيْكَ بَعْدَ مَدِّ قَطَعْتُ الْقَرْنَ
وَكُنْتُ أَمْرًا زَمَنًا بِالْعِرَاقِ	عَفِيفَ الْمُنَاخِ طَوِيلَ التَّغَنِّ
وَحَوْلَى بَكْرٍ وَأَشْيَاعُهَا	وَلَسْتُ خَلَاةً لِمَنْ أَوْعَدَنَ
وَنَبَّئْتُ قَيْسًا وَلَمْ أَبَاهُ	كَأَزَعُمُوا خَيْرَ أَهْلِ الْيَمَنِ
فَجِئْتُكَ مُرْتَادَ مَا خَبَّرُوا	وَلَوْلَا الَّذِي خَبَرُوا لَمْ تَرَنَّ
فَلَا تَحْجِرْ مِنِّي نَدَاكَ الْجَزِيلَ	فَإِنِّي أَمْرٌ قَبْلَكُمْ لَمْ أَهَنْ

وهو يعترف في شعره بهذا الحرص على جمع المال ، ولا يرى فيه بأسا :
وقد طُفْتُ لِلْبَالِ آفَاقَهُ عُمَانُ فُحْمَصَ فَأَوْرِيشْلِمَ
أَتَيْتُ النَجَاشِيَّ فِي أَرْضِهِ وَأَرْضَ النَّيْطِ وَأَرْضَ الْعَجَمِ
فَنَجْرَانُ فَالسَّرَوُ مِنْ حَمِيرٍ فَأَيَّ مَرَامٍ لَهُ لَمْ أَرُمَ

ولكن كل هذه الخصال ، لم تفقد الأعشى إخلاصه لقومه وعشيرته ، ولم تغلب على صفته الأصيلة ، التي جعلت منه شاعر بكر ، بل شاعر ربيعة ، فضل أولا وآخرها شاعر السياسة ، الذي يعبر عن رأى القبيلة الرسمي ؛

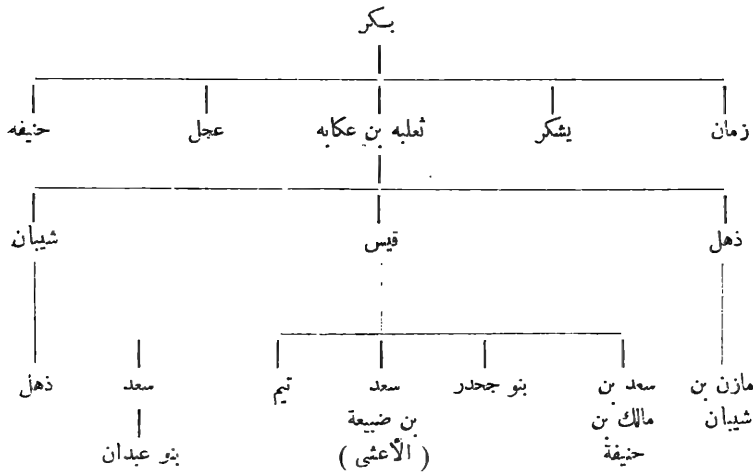
يسجل ما بينها وبين جيرانها من حلف ، منميا روابط الود والإخاء ، ويؤرخ وقائعها ، مخلدا مجدها وبطولاتها في شعر رائع ، ويهاجم من تحدته نفسه بالنيل منها أو مهاجمتها ، مصغرا من شأنه ، مهددا بقوة قومه .

وقد عد النقاد الأعشى فيمن رفع بشعره ووضع . والواقع أن الدارس لمدائحه وحماسته ، يجدها من أروع الشعر الجاهلي تصويرا للنشئل العربية ، في دقة واضحة ، وقوة صادقة . والدارس لأهاجيه ، يجدها من أشد الشعر وقعا على العدو ، لما فيها من سلب لهذه المثل . وكل أهاجى الأعشى متصلة بسياسة القبيلة ومصالحها . فهو يمدح للكسب ، حين لا يتعارض ذلك مع وفائه لعصبيته ، ولكنه يهجو مخلصا بدافع من الوطنية . ومن هنا كان وجه الخلاف الكبير بينه وبين الخطيئة ، الذي كان يتكسب بالمدح والهجاء كليهما ، ولا يصدر فيهما إلا عن الشره في جمع المال ، وكأنه ينتقم لنفسه من المجتمع الذي ظلمه . فبينما يبدو الأعشى في هجائه بطلا سياسيا ، وزعيما وطنيا ، يبدو الخطيئة ساخطا على الدنيا ، ناظرا على الناس ، ساخرا بكل القيم الإنسانية والمعايير الأخلاقية .

لم يكن الأعشى موتورا ولا ساخطا على الناس كالخطيئة ، فهو رجل قد أمتع نفسه من اللذات ، ورضى عن الدنيا ، وعن مكانه منها ، فأخذ بأحسن ما فيها ، وقد علم أن الموت نهاية كل حي . وكانت له شخصية قوية واضحة ، جعلت منه شاعرا ممتازا في التغنى بلذته ، ومحاميا ناجحا يحتل المكان الأول في الدفاع عن قبيلته . وكان فيه وفاء لقومه وعصبيته ، وسم شعره السياسى بروح وطنية صادقة .

ويبلغ الأعشى قمة مجده السياسى ، حين يقف للدفاع عن بكر ، بل عن وائل جميعا ، في يوم ذى قار . وذو قار موضع قرب الكوفة — بينها وبين واسط — كانت فيه واقعة مشهورة بين الفرس وبكر حوالى سنة ٢ هـ . وقد انتصرت فيه بكر . وكان هذا النصر عظيما ملأ العرب زهوا ، فأنشئوا فيه

الشعر الكثير . وقد اختلف الرواة في سبب هذا اليوم . فقيل إن كسرى لما حبس النعمان بساباط ، حتى مات قبيل الإسلام ، غضب له العرب ، وكان قتله سبب ذى قار . وقالوا إنه كان لحبس قيس بن مسعود الشيباني ، وكان قد ضمن قومه عند كسرى — بعد قتل النعمان — أن لا يغيروا على السواد ، فنكثوا بعهدهم ، فخنق كسرى عليه ، واستدعاه فقال له غررتنى من قومك ، وأمر به فحبس بساباط . وقالوا إنه كان لوديعه أودعها النعمان قبل موته عند هانيء بن مسعود الشيباني ، فلما طلبها منه كسرى امتنع عليه . (١)



ومن أروع ما قال الأعشى في هذا اليوم قصيدة أنشأها قبل الحرب ، يتهدد فيها الفرس ، ويستفز قومه للقتال وإباء الضيم .

أَسْوَى وَقْصَرٍ لَيْلَةً لِيَزْوَداً وَمضى وَأَخْلَفَ مَنْ قُتِّيْلَةً مَوْعِداً
وَالْقَصِيْدَةُ فِي جَمَلَتِهَا اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ بَيْتاً . بدأها الشاعر بذكر صاحبته ، وهو قد تخلف ليلة ليزود منها فأخلفته ، ومضت الليلة ، ومضى هو لحاجته ،

(١) راجع في ذلك الأغاني ٢٠ : ١٣٢ ، نقائص جرير والفرزدق (طبع أوروبا) ص ٦٣٨ .

وأصبح حبلا خلقا ، وكان يظن أن ما بينه وبينها لن ينقطع . وهو قد شاب
فهجرته الغواني ، لأنهن لا يصلن من فقد الشباب ، وقد يصابن الأمر . ثم
هو يتحسر على شبابه الضائع ، أيام كانت لَمَّتْهُ سوداء ، وأيام كان يعيش
في لهو وعبث لا ينقطع ، إذ يسعى إلى صواحه في الليل ، يدبغى عندهن
دَيْنَتَهُ ، وقد مَطَلَتْهُ في النهار . وقد ألم الفقر بالأعشى حتى ساء حاله .

فسألته صاحبه : ما لجسمك يسوء من رآه ؟ وما لثيابك قد بليت ؟

أَذْكَأَ نَفْسِكَ بَعْدَ تَكْسُرِ مَةِ لَهَا أَمْ كُنْتَ ذَا عَوَزٍ وَمُنْتَظَرَا غَدَا ؟
أَمْ غَابَ رَبُّكَ فَاعْتَرَاكَ خَصَاصَةٌ فَلَعَلَّ رَبَّكَ أَنْ يَعُودَ مَوْيِدَا ؟
فجيبها :

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يَكْدُرُ نِعْمَةٌ وَإِذَا يُنَاشِدُ بِالْمَهَارِقِ أَنْشِدَا (١)
ثم ينتقل بعد ذلك إلى الناقة ، فيشبهها بحمار الوحش ، وبالنعامة ، وبالبرج
فاذا فرغ منها ، بدأ الجزء الذي يهمنا من القصيدة بقوله :

مَنْ مُبْلَغٌ كَسْرَى إِذَا مَا جَاءَهُ غَنَى مَا لَكَ مُخْمِشَاتٍ شُرْدَا (٢)
ونفهم من هذا الجزء أن كسرى قد سجن الأسود أخا الحوفزان (وأبو
عبيدة يقول إنه كان في يد كسرى في رُهْنٍ قيس بن مسعود) ، وأنه كان
لا يزال يطلب إلى بكر الرُهْنِ ، حتى يَكُفَّهُمْ بذلك عن مهاجمة السواد .
والأعشى يخاطبه قائلا إنهم لن يعطوه رُهْنًا ليفسدهم كمن قد أفسد . ولأن
يرهنه نَعَشٌ بنيه ، ولأن ترهنه السماء الفرقد ، أقرب إليه من أن يرهنوه
أبناءهم . وهو يطلب إليه أن ينزل إليهم الأسود من سجنه — وكأنه كان
مسجونًا في جبل أو هضبة عالية — فإن لم يفعل ، فليس بينهم إلا الحرب ،

(١) المهارق جمع مهرق بضم الميم وفتح الراء وهو الصحيفة . أى إذا نوشد بما في الكتب أجاب
وكأن الأعشى نصراني أو كان صاحبه نصراني أو متدين بأحدى الكتب السماوية .

(٢) المالك جمع مألوك بضم اللام وهى الرسالة . مخمشات مغضبات . شرد تأتي كل مكان .

يضرمونها بين عانة والفرات ، لمن بغى وتمردا ، كأنما حشَّ الغُواة بها
حريقاً مُوقداً .

ثم يهاجم الأعشى قبيلة إياد ، التي كان يضطرها موقعها من الحدود إلى
مائلة الفرس ، فهو يقول : خربت بيوت هؤلاء الأنباط ! لكأنهم
لا يلقون بعدك من يقيم أمرهم ويتعهدهم ويعمر أرضهم ! ثم يتجه إلى
كسرى قائلاً : أظننتنا كيإياد حرّاثين ، قد اتخذوا (تكريت) داراً ، فهم
ينتظرون حباً أن يُحصّد ، خاملين لا عمل لهم ، فهم يقطعون وقتهم في
معالجة قُمْل قد انتشر في أجسادهم ، وقد أوثقوا في السلاسل ،
وغُلِّقتْ دونهم الأبواب ؟ ليس هذا شأن بكر . فإنما نحن بدوّ ، لنا
نَعَمُّ كالضباب ، لا يطردها مُروّعٌ من مغير أو مهاجم ، ولكنها رهن
سيوفنا ، ضمنت أعجازها قُدُورنا أن تفرغ ، وضمنت ضروعها لنا اللبن
صريحاً خالصاً .

فإذا وصل الشاعر إلى هذا الحد فقارب الانتهاء ، اتجه إلى كسرى وقد
بلغ منه الهياج أشده ، فخم قصيدته بقوله :

فاقْعُدْ عليك التاجُ مُعَصِّباً به لا تَطْلُبَنَّ سَواَمانا فَتَعَبِّدا
فانعمُرْ جدّك لو رأيت مُقامنا لرأيت منا مَنظَراً ومُؤَيِّدا
في عارِضٍ من وائلٍ إن تلقه يومَ الهِياجِ يَكُنْ مَسيرُكُ أنْكَدا
وترى الجِياذِ الجُرْدَ حولَ بيوتنا مَوْقُوفَةً وترى الوَشِيجَ مُسْتَندا (١)

وللأعشى بعد ذلك جولات سياسية ، فيما كان ينشأ بين فروع بكر وقبائلها
من منازعات . وهو يسير في ذلك على مبدأ عربي واضح : ينصر أخاه ، ثم
أبناء عمه ، الأدنى فالأبعد . فهو يشيد بشيبان ، ويخلد مجدها في يوم ذى قار

فإذا وقع خلاف بين بعض بطونها ، وبعض بطون قيس بن ثعلبة ، تعصب يزيد بن مسهر الشيباني — أحد زعماء بكر يوم ذى قار — لقومه من شيبان ، وأخذ الأعشى جانب قيس بن ثعلبة ، وهاجم يزيد فى قصيدته المشهورة

وَدَعَّ هُرَيْرَةَ إِنْ الرَّكْبُ مُرْتَحِلٌ

وهل تُطِيقُ وَدَاعاً أَيْهَا الرَّجُلُ

وقصة هذه القصيدة أن رجلاً من بنى كعب بن سعد (أحد بيوت قيس بن ثعلبة) اسمه ضُبَيْعٌ ، قتل رجلاً من بنى همام (أحد بيوت ذهل بن شيبان) اسمه زاهر بن سيار ، فلما نهض بنو سيار للأخذ بثأر زاهر ، تعصب لهم يزيد بن مسهر الشيباني ، ونهاهم أن يقتلوا به ضبيعا لأنه لا يعد له . وحضهم على أن يأخذوا به أحد أشراف بنى سعد . فلما بلغ ذلك الأعشى حمى لقومه ، وهجا يزيد طالبا إليه أن يخلى بين الحيين ، فإنه إن أعان بنى سيار ، لم يكن لبنى قيس بن ثعلبة بدٌّ من التدخل لنصرة بنى كعب .

يبدأ الأعشى قصيدته بوصف صاحبه هريرة ، فهى بيضاء ، غزيرة الشعر ، دقيقة الخصر ، ثقيلة الأرداف ، ضخمة الخلق ، لينة القوام ، كأنها السحابة فى بطء سيرها ووقارها ، عَفَّةٌ لا تسترق السمع للجار ، وَهْنَانَةٌ يكاد يصرعها — لولا تشدها — إذا تقوم إلى جارتها السكسل ، وهى عبقة يضوع المسك منها فيملاً المكان ، وليست روضة من رياض الحزن^(١) مُعْشِبَةً جاد عليها المطر ، وأشرقت عليها الشمس ، فانعكست على جداولها المحفوفة بالنبات ، بأطيب منها نشر رائحة ، ولا بأحسن منها إذ دنا الأضل^(٢) . وقد صدّت عنه صاحبه جهلا بقدره ، فهو يعجب لذلك ، ويقول :

حَبْلٌ مَنْ تَصْلِيْنِ إِنْ قَطَعْتَنِي ؟ وَمَنْ أَحَقُّ مِنِّي بِهَذَا الْوَصْلِ ؟

(١) الحزن يفتح الحاء الأرض الغليظة ، والرياض فيها أنضر وأحسن رونقا .

(٢) الأضل جمع أصيل وهو وقت غروب الشمس . وإنما تفرح رائحة الأزهار وبهذا الكون . فتكون الرياض أجمل ماتكون فى مثل هذا الوقت ، حين تخف حوارة الشمس المحرقة ويداعب النسيم الأزهار .

أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْيَى أَضْرَبَهُ

رَيْبُ الْمَنْسُونِ وَدَهْرٌ مَفْنِدٌ خَبِيلٌ (١)

إن ترينا حُفَاءً لا نعال لنا، فكذلك ما نحفي ونتعل . ومع ما ترين بي من أثر الضر :

فقد أخالسُ رَبَّ البيت غفلته وقد يحاذرُ مني ثم ما يسألُ

وقد أقود الصبي يوماً فتية تبغني وقد يصاحبني ذو الشريرة الغزلُ

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف السحاب وقد امتلأ بالماء ، واتصلت أجزأؤه ، ولع البرق في حافته كأنه الشُّعْل ، فيقول إن الهو والخر لم يلبياه عن مراقبة هذا العارض ، وعن لفت صحبه من الشرب إليه . إذ يناديهم قائلاً : شيموا ! ثم يعود فيعجب لأمره وأمرهم قائلاً : وكيف يشيمُ الشاربُ المثل ؟ وهم لا يزالون في حدسٍ وتخمين ، كلُّ يذكُر الأرض التي يترقع أن هذا العارض سيصيبها بمائه ، وكأنه قد أصابها ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف مجلس الخمر . فقد يغدو إلى الحانوت يتبعه غلام خفيف نشط ، وقد يجلس إلى فتية كسيوف الهند مضاء ، قد أرسلوا أنفسهم في لذاتها ، لأنهم يعلمون أن ليسَ يَدْفَعُ عن ذى الحياية الحيلُ ، يطوف عليهم ساق نشيط ، شمّر أسفل قميصه ، وعلق بأذنيه النُطَافَ ، وقد تناثرت قُضْبُ الرياح ، يتنازعها الشرب ، وهم يتناقلون كئوساً لا تحف ، لأنهم لا يتوقفون عن الشرب إلا ريثما ينادون : هات ! وقد ماجت الحانة بنساء ضخام ، كأن على أردافهن قرَباً ترتج بما فيها ، يحرون ذيول الرّيْط ، ونشط القيّان للغناء على نغمات العود وجرس الصنّج .

فإذا فرغ الشاعر من هذه المقدمة الطويلة ، التي تستغرق أربعة وأربعين بيتاً ، اتجه إلى خصمه فبدأه بقوله :

أَبْلَغُ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَا لُكِّتَ . أَمَا ثَبَيْتَ أَمَا تَنْفَكُ تَأْتِكُ
وهو يقول له : أقصر عن نحت أثلتنا ، فاست ضارها أبد الدهر ،
واربع على نفسك ، فليست إلا كوعلى أحق ، ينطح صخرة ليفلقها ، فلم
يضرها وأوهى قرنه . على أنك تثير رهط مسعود وإخوته ، وتغريهم بنا ،
وما أظنك تغضب لهم أو تخوض معهم قتالا إن جد الجد ، وشبت الحرب ،
والشمس عندك النصر . فأنت تلقيهم طعاما لرماحنا ، فتزديهم ثم تعزل .
لَا تَقْعُدَنَّ وَقَدْ أَكَلَتْهَا حَظَبًا تَعُوذُ مِنْ شَرِّهَا يَوْمًا وَتَبْهَلُ
ويعدد له بعد ذلك القبائل التي عادوها من قبل فقهروها ، فيذكر أهل
كهف من بني سعد بن مالك ، والجاشريّة من إياد ، وأسد بن ربيعة ، وقشير
بن كعب بن ربيعة . فيقول له : سَلَهُمْ يَخْبِرُوكَ كَيْفَ وَجَدُوا بِلَاءَنَا
فِي الْقِتَالِ .

إِنَّا نَقَاتِلُهُمْ ثُمَّ تَنَقَّلْتَهُمْ عِنْدَ الْقَاءِ . وَهُمْ جَارُوا . وَهُمْ جَاهِلُوا
ثم يتجه إلى شيبان (قبيلة يزيد) ، وقد تزايد غضبه ، فيقول : زَعَمْتُمْ أَنَّا
لَسْنَا لَكُمْ بِأَكْفَاءَ ، وَأَنَّا لَا نَنْهَضُ لِقِتَالِكُمْ ! بَلْ نَحْنُ نَقْتَلِكُمْ حَتَّى يَخْرُجَ عَمِيدُ
الْقَوْمِ ، فَلَا تَجِدُ حَوْلَهُ غَيْرَ نِسَاءٍ قَدْ ثَكُنَ أَبْنَاءُهُنَّ ، يَدْفَعْنَ عَنْهُ بِأَكْفَهْنِ .
وَلَنْ يَنْهَاكُمُ عَمَّا أَتَمْتُمْ فِيهِ مِنْ بَغْيِي كَالطَّعْنِ الْجَائِفِ ، يَغُورُ فِي عِلَاجِهِ الزَّيْتُ
وَالْفُتْلُ .

ويشير الأعشى إلى ما كان من إغراء يزيد لهذا البيت من شيبان ، ونهيبهم
عن قتل ضبيح بزاهر ، فيقول : لئن قتلتُم سيدا لم يكن مقاربا لقتيلكم
(لَسَقُتَانُ مِثْلَهُ مِنْكُمْ فَتَمَثَّلُ) ، ويختم القصيدة بقوله :
قَدْ نَطَعْنُ الْعَيْرَ فِي مَنَكُنُونٍ فَأَنِلَهُ
وقد يشيطُ على أرماحنا البَطلُ (١)

(١) العير حمار الوحش والفائل عرق يجري من الجوف إلى الفخذ . يعيط يهلك . يقول إنهم
يهرء بمواضع الطعن . يضربون العير في هذا الموضع الخفي الدقيق فلا يخطئون الإصابة .

ثم يتفاهم الشر بين شيبان وقيس بن ثعلبة ، فينشيء الأعشى قصيدة أخرى ،
أعنف من السابقة ، يبدأها بقوله :

هُرَيْرَةٌ وَدَعُّهَا وَإِنْ لَمْ لَأْتُمْ غَدَاةً غَدٍ أَمْ أَنْتَ لِلْبَيْنِ وَاجِمٌ
وهو يقول بعد أن يتغزل في ستة أبيات :

رَأَيْتُ بَنِي شَيْبَانَ يَظْهَرُ مِنْهُمْ لِقَوْمِي عَمْدًا نَغْصَةً وَمَظَالِمَ
ثم يذكرهم بمن ذاق عداوتهم من القبائل فلم يصبر عليها ، معددا أسماءهم ،
ويقول : إنا على عهدكم بنا لم تغير ولم نضعف ، فقيم الطمع ؟ ثم يهددهم قائلا :
إِنْ كُمْ لَنْ تَنْتَهَوْا حَتَّى تَكْسِرَ بَيْنَنَا (رِمَاحٌ بِأَيْدِي شُجْعَةٍ وَقَوَائِمٌ) ،
وحتى يبيت القوم وقوفاً وراء الظُّعْنِ ، والخيْل تحتهم ، يقولون « نَوْرٌ
صُبْحُ » ، وَاللَّيْلُ عَاتِمٌ . لَنْ تَنْتَهَوْا حَتَّى يَكُونَ بَيْنَنَا مِثْلَ هَذَا الْقِتَالِ
العنيف ، أَوْ تَكْسِرُوا مِنْ حَدِّ تَكْسِمِ (فَإِنَّمَا يَهْمُ لَعَيْنَيْهِ مِنْ
الْشَّرِّ هَاتِمٌ) .

ثم يصف شجاعة قومه ، فيقول ليزيد : إِنَّكَ إِنْ لَقَيْتَنَا لَقَيْتَ بَنَاءَ قَوْمٍ
لَا يَجْبُنُونَ ، حِينَ تَكُونُ الْجَاهِجُ أَهْدَافَ السِّيُوفِ . إِنْ أَبْنَاءُنَا لَيَعْتَدُونَ
الْبَأْسَ ، كَمَا يَعْتَدِي الْمَاءُ الظَّمَاءُ . . . ويصف بفوريزيد منه حين يلقاهما
وما يجد في وجهه من بغض ، قائلا :

يَزِيدُ يَغْضُ الطَّرْفَ عَنِّي كَأَنَّمَا

زَوَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَلَيَّ الْمَحَاجِمُ

فَلَا يَنْبَسِطُ مِنْ بَيْنِ عَيْنِكَ مَا انْزَوَى

وَلَا تَلْقَنِي إِلَّا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

ثم يخاطبه قائلا : لئن جدينا التقاطع ، لثقتن خلفا أموالك ،
وليندبنك النساء نأحات معولات ، (يَقْلَنَ حَرَامٌ مَا أُحِلَّ بِرَبَّنَا) . .
وهذا الشطر أبلغ ما يكون في حكاية تحسر النساء ، وتصوير حزنهن العاجز
الضعيف . ويبلغ هجاء الأعشى ليزيد غايته حين يقول :

أَبَا ثَابِتٍ لَا تَغْلَقَنَّكَ رَمَاجُنَا أَبَا ثَابِتٍ أَقْصِرْ وَعِزُّكَ سَالِمٌ
وَذَرْنَا وَقَوْمًا إِنْ هُمُو عَمَدُوا لَنَا أَبَا ثَابِتٍ وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ نَاعِمٌ
طَعَامُ الْعِرَاقِ الْمُسْتَفِيزِ الَّذِي تَرَى وَفِي كُلِّ عَامٍ حَالَةٌ وَدِرَاهِمٌ
وَيَحْتَمُ قَصِيدَتَهُ بِإِعَادَةِ التَّهْدِيدِ ، مَتَهَمًا يَزِيدُ بِأَنَّهُ يَغْرِى بِهِمْ رَهْطَ سِيَارِ ،
ثُمَّ يَزْعُمُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ بَرِيءٌ . وَيَقُولُ إِنَّ هَذَا الصَّنِيعَ لَا يَنْتَهَى إِلَّا بِقِتَالِ
شَدِيدٍ عَنيفٍ ، تَسْبِي فِيهِ النِّسَاءَ فَيَكُونُ عِنْدَ بَنَاتِ عَمَّهِنَّ مِنْ رَهْطِ قَيْسٍ
كَالْنَاصِفَاتِ الْخَوَادِمِ .

فَإِذَا وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ بَطُونِ قَوْمِهِ — قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ — كَانَ الشَّاعِرُ
رَفِيقًا ، يَحَاوِلُ أَنْ يَذْكُرَهُمُ الرِّحْمَ وَحَقُوقَ الْقَرَابَةِ ، وَمَا يَنْبَغِي لِحُصْنِهِ مِنْ وِفَاءٍ .
يَخْتَلِفُ بَنُو عَبْدِانَ مَعَ قَوْمِهِ (سَعْدُ بْنُ ضَمِينَةَ) فَيُعَانِيهِمْ مَبْقِيَا عَلَيْهِمْ
فِي قَصِيدَتِهِ :

كَفَى بِالَّذِي تُؤَلِّقُهُ لَوْ تَجَنَّبَا شِفَاءً لِسُقْمٍ بَعْدَ مَا كَانَ أَشْيَبَا
نَرَى الشَّاعِرَ حَرِيصًا عَلَى صِدَاقَتِهِمْ حِينَ يَقُولُ :

فَأَبْلَغُ بَنِي سَعْدِ بْنِ قَيْسٍ بِأَنِّي عَتَبْتُ فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِي مَعْتَبَا
صَرَمْتُ وَلَمْ أَصْرِمْكُمْ وَكَصَارِمِ أَخٌ قَدْ طَوَى كَشْحًا وَأَبٌ لِي ذَهَبَا

وَهُوَ يَبْكُتُهُمْ لِتَنَاسِيهِمْ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَوْمِهِ مِنْ نَسَبٍ :

إِلَى مَعْشَرٍ لَا يُعْرِفُ الْوُدَّ بَيْنَهُمْ وَلَا النَّسَبَ الْمَعْرُوفَ إِلَّا تَنْسَبَا

وَلَكِنَّهُمْ مَهْمَا يَخْطِئُوا فَهُمْ قَوْمُهُ ، لَا يَكُونُ مَعَ عَدُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ أَبَدًا .

فَإِخْلَاصُهُ لِعَصِيَّتِهِ يَأْبَى إِلَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ يَدَهُ وَبَلْسَانَهُ :

فَإِنْ أَنْاعْنَاكُمْ لَا أَصْلَحَ عَدُوُّكُمْ وَلَا أُعْطِيهِ إِلَّا جَدًّا لَا وَمُخْرَبَا

وَإِنْ أَدْنُ مِنْكُمْ لَا أَكُنْ ذَا تَمِيمَةٍ يَرَى بَيْنَكُمْ مِنْهَا إِلَّا جَالِدٌ مُشَقَّبَا (١)

(١) القيمة المراض الذي يقطع به الحديد والفضة . يقول إن بعدت عنكم لم أصالح عدوكم ولم يجد
منى إلا الخصومة وإن دونت منكم لم أنقب جلدكم بقارص الكلام .

سَيَنْبَحُ كُلِّي جَهْدَهُ مِنْ وَرَائِكُمْ وَأُغْنِي عِيَالِي عَنْكُمْ أَنْ أُؤَنِّبَا
وَأُدْفِعَ عَنْ أَعْرَاضِكُمْ وَأُعِيرَكُمْ لَسَانَا كَقَرَارِضِ الْخَفَاجِيِّ مَلْحَبَا
هَنَالِكَ لَا تَجْزُونَنِي عِنْدَ ذَاكُمْ وَلَكِنْ سَيَجْزِيَنِي إِلَاهُ فَيُعْقِبَا
ثَنَانِي عَلَيْكُمْ بِالْمَغِيبِ وَلَانِي أَرَانِي إِذَا صَارَ الْوَلَاءُ تَحْزَنًا
أَكُونُ أَمْرًا مِنْكُمْ عَلَى مَا يَنْبُؤُكُمْ وَلَنْ يَرَنِي أَعْدَاؤُكُمْ قَرَنًا أَعْضَبَا

فإذا تَمَادَى بنو عبدان ، وأَغْرَوْا جَهَنَامَ بهجاء بنى سعد بن ضبيعة ، كان
الْأَعَشَى أَكْثَرَ عَنَفًا فِي قَصِيدَتِهِ :

يَا لَقَيْسٍ لِمَا لَقِينَا الْعَامَا أَلِعَبْدِ أَعْرَاضُنَا أَمْ عَلَى مَا
لَيْسَ عَنْ بَغْضَةٍ حُذِفَ وَلَكِنْ كَانَ جَهْلًا بِذَلِكَ وَعُورَا

وهو يبدأ قصيدته بقوله : يا لقيس ، فكأنه يَنْشُدُهُمُ الْجَدَ الَّذِي يَجْمَعُهُمْ
وَيُأَيِّمُ فِي النَّسَبِ ، ثُمَّ يَحَاوُلُ أَنْ يَصُورَ لَهُمْ بَغْيَهُمْ عَلَى قَوْمِهِ ، الَّذِينَ لَمْ يَهْتَكُوا
لَهُمْ حِجَابًا ، وَلَمْ يُحِلُّوا لَهُمْ حَرَامًا .

لَمْ نَطَّأكُمْ يَوْمًا بِظُلْمٍ وَلَمْ نَهْتِكْ حِجَابًا وَلَمْ نُحِلِّ حَرَامًا
يَا بَنِي الْمُنْذَرِ بْنِ عَبْدَا نَوَالِ بَطْنَةٍ يَوْمًا قَدْتَأْنُ الْإِحْلَامَا
لَمْ أَمْرُثُكُمْ عَبْدًا لِيَهْجُوا قَوْمًا ظَالِمِيهِمْ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ كَرَامَا
يَقُولُ لَهُمْ : قَدْ ذَهَبَتِ الْبَطْنَةُ بِإِحْلَامِكُمْ ، حَتَّى أَتَحْتَمَّ أَعْرَاضُنَا لِعَبْدِ .

ثُمَّ يَمْضِي بَعْدَ ذَلِكَ مُعَدِّدًا نَعَمَ قَوْمِهِ عَلَى بَنِي عَبْدِانَ ، بِمَا أَسَدُوا إِلَيْهِمْ يَوْمَ
كَحْجَرٍ مِنْ نَعْمَى ، إِذْ يُضْطَرُّونَ النَّارَ ، فَاثْنَى النُّخْلُ الْبَاسِقَ ، وَصَارَ أَسْوَدَ
كَالْبُقِ الْعَجَافِ ، بَيْنَ قَائِمٍ وَمُصَرَّعٍ . وَيَوْمَ الْعَيْنِ — وَهُوَ يَوْمُ فُطَيْمَةِ —
إِذَا غَارَ عَلَيْهِمْ بَنُو شَيْبَانَ ، فَغَدَا عَلَيْهِمْ قَوْمُ الْأَعَشَى مُهْطَعِينَ ، إِسْرَاعَ
الْعَطَاشِ إِلَى الْمَاءِ .

بِرِّ جَالٍ كَالْأَسَدِ حَرَبَهَا الزَّجَرُ وَخَيْلٍ مَا تُنْكِرُ الإِقْدَامَا
فَقَتْلُوهُمُ أَوَّلَ النَّهَارِ ، وَلَمْ يَكُونُوا إِلَّا كَمَا يَجْمَعُ الرَّاعِي أَغْنَامَهُ ، وَقَدْ تَخِيلَ
الْمَطَرُ مَقْبَلًا ، خَافَ عَلَيْهَا أَنْ يَفْرُقَهَا . ثُمَّ وَلَّوْا (كَمَا يَطْحَرُ الْجَنْتُوبُ
الْجَهَامَا) . وَيَخْتَمُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

ذَاكَ مِنْ جَبَلِكُمْ لَنَا وَعَلَيْكُمْ نِعْمَةٌ لَوْ شَكَرْتُمْ الْإِنْعَامَا
ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْفَخْرِ بِقَوْمِهِ . فَهَمْ مَسَامِيحٌ ، يَتِيهُونَ عَلَى السَّيِّدِ الَّذِي
يَتَفَوَّقُ عَلَى صَحْبِهِ وَيَبْذِمُ بِالْإِطْعَامِ فِي الشِّتَاءِ الْقَارِسَ الْبَرْدَ ، حِينَ يَقَعُ الدِّخَانُ
مِنَ الْأَنْفِ مَوْجِعَ الْبُخُورِ ، إِذْ يَضْرِبُ قَوْمَهُ السِّدَّاحُ عَلَى النَّيْبِ حِينَ
يَكْرَهُ يَسْرُهُنَّ . وَهُمْ أَصْحَابُ الْقَبَابِ كَأَنَّهَا الْهَضَابُ ، وَالْخَيْلُ وَالصِّعَادُ ،
الْمُطَارِدُونَ عَنْ أُخْرَى الْحَيِّ إِذَا اشْتَدَّتْ الْحَرْبُ ، وَكَشَفَتْ الْعِذَارَى عَنْ
السَّاقِ وَالْخُلْخَالِ .

* * *

وَأَخِيرُ مَا يُمَثِّلُ هَذَا اللَّوْنُ الَّذِي يَتَرَاوَحُ بَيْنَ الْعُنفِ وَاللِّينِ ، وَيَجْمَعُ بَيْنَ
الْغَضَبِ وَالْحَنِينِ ، وَالْإِبَاءِ وَالْوَفَاءِ ، قَصِيدَتُهُ فِي بَنِي جَحْدَرِ بْنِ قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ:
لَمِيشَاءَ دَارٍ قَدْ تَعَفَّتْ رُسُومُهَا عَفَّتْهَا نَضِيزَاتُ الضَّبَا فَسَيَّلُهَا
يَقْدَمُ لِلْقَصِيدَةِ بِأَرْبَعَةِ آيَاتٍ ، يَقِفُ فِيهَا بِأَطْلَالِ صَاحِبَتِهِ مِيشَاءَ ، ثُمَّ
يَتَخَلَّصُ إِلَى غَرَضِهِ ، مُتَعَجِّبًا مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَفْتَخِرُونَ عَلَيْهِمْ ،
وَكَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْهُمْ :

وَإِنِّي عَدَانِي عَنْكَ لَوْتَعَالَمِينَهُ مَوَازِيٌّ لَمْ يُنْزَلْ سِوَايَ جَلِيلُهَا
مَصَارِعُ إِخْوَانٍ وَفِي خَيْرٍ قَبِيلَةٍ عَلَيْنَا كَأَنَّا لَيْسَ مِنَّا قَبِيلُهَا
ثُمَّ يَمْضِي مُنَاقِشًا فِي رَفَقٍ ، قَائِلًا : تَعَالَوْ نَتَعَاطَى الْحَقَّ بَيْنَنَا ، حَتَّى تَعْرِفُوا
أَيْنَا الْمَلُومَ ، فَالْعِلْمُ عِنْدَ ذَوِي النَّهْيِ (كَالْبَلَاءِ بَادِحُجُولُهَا) . وَلَا يَلْبِثُ
أَنْ يَثُورَ فَنَدْرِكُهُ الشَّدَّةُ ، وَيَقُولُ : فَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا فِشَاءَ نَكْمٍ وَمَا تَرِيدُونَ ، وَلِتُتَدَكِّمَ

الهُجَيْثِمَ ومازن ، فعندنا شَيْبَان ، وهم سادة العشيرة وحُكَّامُهَا . إن دعوتهم يوما أنجدوني بِكَرَادِيسَ وَرِعالٍ كأنها الجراد ، لها جَلَبَةٌ حين تنقض على العدو مثيرة عَجَاجًا . ويعود الشاعر إلى هُدُوئِهِ ، مناقشًا نقاش الذى يريد أن يلزم خصمه الحجة ، فيقول : أَتُحَلِّونَ لأنفسكم ما تحرمون علينا ؟ جارنكم حرام علينا ، وجارتنا حِلٌّ لكم !! .

فإن كان هذا حُكْمُكُمْ فى قبيلة فإن رَضِيتُ هذا فَقَلَّ قَلِيلًا هَا ويعود الشاعر إلى شدته ، فيحلف برب الساجدين عشية ، وما صك ناقوس النصارى أَيْلُهَا ^(١) ، أنه لا يصالحهم حتى ييؤءوا بمثل جنائتهم وبغيتهم ، ويصرخوا (صَرْحَةٌ حُبْلَى سِرَّتَهَا قَبُولُهَا) . ويقول : إن ذاك الذى يسعى للقتل ظَلَمًا ، تحدثه نفسه أنا لسنا بذى عز ، ولسنا بأكفاء له ، لَيْدٌ جَهْلَةٌ لَا تُغْفَرُ . أخبركم حُمُرَانُ أن بناتنا سيَهْزَنُ إن لم ترفع العير إلينا الميرة ؟ فَعِيرُكُمْ أَذَل . وأرضكم على ما تعلمون من الجَذَبِ والمَحْجَلِ !! فَإِنْ تَمْنَعُوا مَنَا الْمُشَقَّرَ وَالصَّفَا ، فنخيل الخَطَّ جَمًّا ، وخمر دَرْنَى يُحْطُّ إلينا كل عشية . وإنكم لتأكلون دم الفَصِيدِ ، وإنا لنغذو أولادنا الشحم واللبن . ويختم قصيدته بقوله :

أَبَا الْمَوْتِ خَشَّتْنِي عِبَادٌ وَإِنَّمَا رَأَيْتُ مَنَايَا النَّاسِ يَسْجَى دَلِيلُهَا
فَمَا مَيْتَةٌ إِنْ مِثْلُهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسَ غَوْلُهَا

* * *

ولعل من الخير ، أن أثبت النص الكامل للقصائد التى لخصتها فى حديثى السابق عن الأعشى ، لأن الديوان بطبعته الكاملة المروية عن ثعلب بشرحه غير ميسرة لكثير من القراء .

(١) الأيل : للمعى التى يقرع بها الناقوس فى الكنائس .

قصيدة الأعشى في هجاء كسرى والفرس

قييل يوم ذى قار

أَثَرَوَى وقصرٌ لَيْلَةٌ لِيُزَوِّدَا ومضى وأخلف من قُتَيْلَةٍ موعدا
ومضى لحاجته وأصبح حبلاًها خَلَقًا وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يُنْكَدَا ^(١)
وَأَرَى الْغَوَانِيَّ حِينَ شَبْتُ هَجَرَنِي أَنْ لَا أَكُونَ لَهْنٌ مِثْلِي أَمْرَدَا
إِنَّ الْغَوَانِيَّ لَا يَوَاصِلُ أَمْرًا فَقَدْ الشَّبَابَ وَقَدْ يَصْلُحُ الْأَمْرَدَا
يَلِ لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَعُودَنْ نَاشِئًا مِثْلِي زَمِينَ أَحُلُّ بُرْقَةٍ أَنْقَدَا ^(٢)
إِذْ لَمَتْنِي سَوْدَاءُ أَتَبَعُ ظَاهِيهَا دَدَنًا قُعُودَ غَوَايَةِ أَجْرَى دَدَا ^(٣)
يَلُوبِنِي دَيْنِي النَّهَارَ وَأَقْضِي دَيْنِي إِذَا وَقَدَ النَّعَاسُ الرُّقْدَا ^(٤)
هَلْ تَذَكِّرُنِ الْعَهْدَ يَا بِنْتَ مَالِكٍ أَيَّامَ نَرْتَبِعُ السَّتَارَ فَهَمْدَا ^(٥)
أَيَّامَ أَمْنَحُكَ الْمَوْدَةَ كُلَّهَا مَنِي وَأَرَعِي بِالْمَغِيثِ الْمَعْهَدَا
قَالَتْ قُتَيْلَةٌ مَا لَجَسْمُكَ سَائِيًا وَأَرَى ثِيَابَكَ بِالْيَاتِ هُمْدَا ^(٦)
أَذَلَّتْ نَفْسَكَ بَعْدَ تَسْكِرِمَةٍ لَهَا أَمْ كُنْتَ ذَا عَوَزٍ وَمَنْظَرَا غَدَا
أَمْ غَابَ رَبُّكَ فَأَعْتَرَتْكَ خَصَاصَةٌ فَلَعَلَّ رَبُّكَ أَنْ يَعُودَ مَوْيِدَا ^(٧)

(١) نكد الماء على البناء للمجهول نَف. وناقة نكداء لا لبن فيها .

(٢) يطلق العرب البرقة بضم الباء على كل أرض غليظة وبرقة أنقد إحدى برق وهي كيرة العرب

يخفف على المائة .

(٣) الددن والدد اللهو واللعب والعبث .

(٤) يلوبني يعطلني . يقول إن له حقاً على صاحباته بما بينه وبينهن من ود ومن صلات . ولكنهن

يعطلنه حقاً إذا طالب به نهراً ولا يقبلن أدائه والوفاء به إلا ليلاً حين ينام الناس . وقد النعاس الرقاد صرعهم وأسكتهم وأنقلمهم .

(٥) الستار وهمد مواضع . ارتبع وتربع أقام في المكان وقت الريح يري إليه ما أنبت الأرض

من كلاً وعشب .

(٦) الخصاصه الفقر . به ولي نعمته .

(٧) سافى يسوء من رآه .

ربي كريم لا يكدر نعمة
 وشملة حرفي كأن قُتودها
 وكأنها ذو جدة غب الشرى
 أو صلالة بالقارتين تروحت
 يتجاربان ومحسبان إضاعة
 طوراً تكون أمامه فتفوته
 وعذافر سدس تخال محاله
 وإذا يلوث لغماله بسديسه
 وكأنه هقل يباري هقلة
 أمسى بذى العجلان يقر وروضة
 أذهبته بمهامه مجهولة
 وإذا يُناشد بالمهراق أنشداً^(١)
 جللته جون السراة حفيدا^(٢)
 أوقارح يتلو نحاص جُداً^(٣)
 ربداً تشبع الظليم الأربداً^(٤)
 مكث العشاء وإن يغيبا يفقد
 ويفوتها طوراً إذا ما خوداً
 برجا تشيده النيط القرمداً^(٥)
 شنى فهب هبابه وتزيدا^(٦)
 رمداء في خيط نقانق أرمداً^(٧)
 خضراء أنصر نبتها فترأداً^(٨)
 لا يهتدى برت بها أن يقصداً^(٩)

- (١) المهراق الصحف وربما كان في هذا ما يشير إلى أن عمدة مدين بدين من الأديان السماوية . لا يكدر نعمة بالبن والأذى فنعمة صافية لا يشوبها كدر .
- (٢) شملة خفيفة . حرف صلبة . القتود عيدان الرجل . الحفيد السريع والظليم وهو فرخ النعام . وهو هنا يصف ناقته .
- (٣) جدة بمن وبدانه . وذو جدة يقصد به حمار الوحش . القارح من ذى الحافر بمنزلة البازل . من الأبل وهو البعير إذا بزل نابه وذلك في سن التاسعة . النحاص جمع نحوص وهي من الأبن مالا ولد لها . ولا بن وهي أوفر نشاطا وأكثر اكتنازا . يشبه ناقته بحمار وحش هذه صفته .
- (٤) صلالة صغيرة الرأس يقصد النعامة يشبه ناقته بها . الأربد الأبيض المشوب بسواد . الظليم ولد النعامة .
- (٥) عذافر شديد . السدس قبل الزول . الحالة الفقيرة من فقر البعير . القرمد الجص والحجارة . به الآخر والجرف المطبوخ . يشبه ناقته في ضخامتها برج شيده النيط من القرمد .
- (٦) اللغام الزبد . الهباب النشاط . التزيد سير فوق العنق .
- (٧) الهقل بكسر الهاء ذكر النعام . الحيط بكسر الخاء الجماعة من النعام .
- (٨) ذى العجلان شجر . القرو القصد والتبع . ترأد وارتأد اهتز واضطرب وأخذته رعدة .
- (٩) المهامة جمع مهمه وهي الصحراء . البرت بضم الباء الدليل . يقول إن ناقته تهتدى في هذا الطريق الخفيف الذى يخطئه فيه الدليل الخبير بمسالك الصحراء .

من مبلغ كسرى إذا ما جاءه
 آليتُ لا نعطيه من أبنائنا
 حتى يُفِيدَكَ من بنيه رهينةً
 إلا كخارجة المكلف نفسه
 أن يأتياك برهنهم فهما إذن
 كلا يمين الله حتى تُنزلوا
 لنقاتلنكم على ما خيَّلتُ
 ما بين عانة والفرات كأنما
 خربتُ بيوت نبيطة فكأنما
 لسنا كمن جعلت إياد دارها
 قوماً يعالج قُملاً أبناءهم
 جعل الأله طعامنا في مالنا
 مثل الهضاب جزارةً لسيوفنا
 ضمنتُ لنا أعجازهم قُدُورنا
 فاقعد عليك التاج معتصباً به
 لا تحسبنا غافلين عن الـ
 فلعمرك لو رأيت مقامنا
 في عارضٍ من وائل إن تلتقه
 وترى الجياد الجرد حول بيوتنا
 عنى مالك مخمشات سُردا
 رهناً ففسدهم كمن قد أفسدا
 نعش ويرهنك السماء الفَرَ قدا
 وابنى قبيصة أن أغيب ويشهدا
 جهدا وحق الخائف أن يُجهدا
 من رأس شاهقة إلينا الأسودا
 ولنجعلن من بغي وتمردا
 حش الغواة بها حريقاً موقدا
 لم تائق بعدك عامراً متهددا
 تكريت تنظرُ حبها أن يُحصدا
 وسلاسل أجدأ وباباً مؤصدا
 رزقاً تضمَّنه لنا لن ينفدا
 فإذا تُراع فإنها لن تُطردا
 وضروعهن لنا الصريح الأجردا
 لا تطلبن سوامنا فتعبدنا

 لرأيت منا منظرأ ومؤندا
 يوم الهياج يكن مسيرك أنسكدا
 موقوفة وترى الوشيج مسندا (١)

قصيدته في هجاء بني شيان وزعيمهم

يزيد بن مسهر

هُرَيْرَةٌ ودعها وإن لام لائم غداة غدٍ أم أنتَ للبَّيْنِ واجِمُ
لقد كان في حَوْلٍ ثَوَاءٍ ثوبته تَقْضِي لُبَانَاتٍ وَيَسَامُ سَائِمُ (١)
مبتلةً هيفاءُ رَوْدٌ شباؤها لها مقلتا رِئْمٍ وأسودُ فاحمُ (٢)
ووجهه نقيُّ اللون صافٍ يزينه مع الجيد لَسَبَاتٌ لها ومعاصم
وتضحك عن غُرِّ الثيايا كأنه ذُرَى أَقْحَوَانٍ نَبْتُهُ مُتَنَاعِم
هي الهَمُّ لا تدنو ولا يستطيعها من العيس إلا الناجيات الرِّوَّاسِمُ
. . . يُغْنِيكَ واعمِدْ لغيرها

بشِعرك وأعلُبْ أنفَ من أنتَ واسمُ (٣)
رأيتُ بني شيان يظهر منهم لقومي عمداً نِفْصَةً ومظالم
فإن تُصْبِحُوا أدنى العدوِّ فقبلكم من الدهر عادَتُنَا الرِّبَابُ ودارم
وسعدٌ وكعبٌ والعبادُ وطىُّ ودودانُ في ألفافِها والأراقمُ
فما فَضَّنَا من صانعٍ بعد عهدكم فتطْمَعُ فينا زاهرٌ والأصارمُ (٤)
ولن تنتهوا حتى تَكْسِرَ بيننا رماحُ بأيدى شُجْعَةٍ وقوائم
وحتى يبيتَ القومُ في الصَّفِّ ليلةً يقولون نَوْرٌ صُبْحُ والليلُ عاتم

(١) نوى أقام . بقول لقد كان في سنة كاملة أقتها ما يتسع لقضاء حاجاتي وما يكنى لأن تمل الصبغة لعلوها .

(٢) مبتلة لم يتراب لها بعضه فوق بعض . هيفاء نخيسة البطن . رود ناعمة . الرئم الطي الأبيض الخالص البياض أسود فاحم يقصد الشعر .

(٣) العلب الأثر .

(٤) لم يفضنا أحد الفضل الكسر . الصانع الحاذق أى لم يغيرنا عن أخلاقنا . فكيف يطعم فينا هؤلاء القوم من زاهر والأصارم .

وقوفاً وراء الطعن والخيول تحتمهم
 إذا ما سمعن الزجرَ يَمَنَّ مَقْدَمًا
 أبا ثابت أو تَذْتَهِنُونِ فَإِنَّمَا
 متى تلقنا والخيول تحمل بزنا
 فتلقي أناسا لا يحجيم سلاحهم
 وإنا أناس يعتدى البأس خلفنا
 فهان علينا ما يقول ابنُ مُسْهِرٍ
 يزيد يغض الطرفَ دوني كأنما
 فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى
 فاقسم إن جد التقاطع بيننا
 يقلن حرام ما أحل بربنا
 أبا ثابت لا تعلقنك رماحنا
 وذرنا وقوما إن همؤهم ودلنا
 طعام العراق المستفيض الذي ترى
 أفي كل عام تقتلون وتتدى
 أتأمر سيارا بقتل سراتنا
 أبا ثابت إنا إذا تسبقننا

تشدّ على أكتافهن القوادم
 عليها أسود الزارتين الضراغم
 يسم لعينيه من الشرهائم
 خنأذيذ منها جلةً وصلادم^(١)
 إذا كان حماً للصفيح الجماجم^(٢)
 كما يعتدى الماء الظماء الحواتم
 برغمك إذ حلت علينا اللهازم^(٣)
 زوى بين عينيه على المحاجم
 ولا تلقني إلا وأنفك راغم
 لتصطفقن يوماً عليك المآتم^(٤)
 وتترك أموالا عليها الخواتم
 أبا ثابت أقصر وعرضك سالم
 أبا ثابت واقعد فإنك ناعم
 وفي كل عام حلة ودرهم
 فتلك التي تبيض منها المقادِم
 وترغم بعد القتل أنك سالم؟
 سيرعد سرح أو ينسبه نائم^(٥)

(١) البر السراح . خنأذيذ كرام . قوم جلة عظام سادة . صلامد غلاظ شداد .

(٢) يحجم يحجم . إذا كان حماً أى قصدا . يعنى إذا كانت الجماجم والرموس أهدافا للسيوف وذلك في الحرب .

(٣) اللهازم هم قيس بن ثعلبة قبيلة الأعشى وحلفاؤها عزة وعجل وحيفة . ابن مسهر هو يزيد بن مسهر أحد زعماء شيان .

(٤) الريح تصفق الأشجار فتصطفق أى تضطرب : والنساء يصطفقن على الميت

(٥) السرح المال السائم .

بُشْعَلِيَّةٍ يَغْشَى الْفِرَاشَ رَشَاشُهَا يَبِيتُ لَهَا ضَوْءٌ مِنَ النَّارِ جَاحِمٌ^(١)
تَقَرُّ بِهِ عَيْنُ الَّذِي كَانَ شَامِتًا وَتُبْتَلُ مِنْهَا سُرَّةٌ وَمَا كَمِ
وَتُلْفَى حَصَانٌ تَخْدُمُ ابْنَةَ عَمِّهَا كَمَا كَانَ يُلْفَى النَّاصِفَاتُ الْخَوَادِمُ^(٢)
إِذَا اتَّصَلَتْ قَالَتْ أَبْكَرُ بْنُ وَائِلٍ وَبَكَرٌ سَبَّتْهَا وَالْأَنُوفُ رَوَاغِمٌ^(٣)

قصيدته في هجاء بني المنذر بن عبدان بن حذاقة بن سعد
ابن قيس بن ثعلبة وشاعرهم جهنم

(١)

كفى بالذى تولينه لو تجنَّبَا شِفَاءً لِسُقْمٍ بَعْدَ مَا عَادَ أَشْيَابَا^(٤)
عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تَأْوُلُ حُبَّهَا تَأْوُلُ رَبْعِي السِّقَابِ فَأُصْحَابَا^(٥)
فَتَسَمُّ عَلَى مَعْشُوقَةٍ لَا يَزِيدُهَا إِلَيْهِ بِلَاءُ الشُّوقِ إِلَّا تَحْجُبَا
وَإِنِّي أَمْرٌ قَدْ بَاتَ هَمِي قَرِيَّتِي تَأْوِبُنِي عِنْدَ الْفِرَاشِ تَأْوِبَا
سَأَوْصِي بِصِيرَا إِنْ دَنَوْتُ مِنَ الْبَلِي وَصَاةَ امْرَأَةٍ قَاسَى الْأُمُورِ وَجَرَبَا
بَأَنْ لَا تَبْغِ الْوُدَّ مِنْ مُتَبَاعِدٍ وَلَا تَتَأَنَّ عَنِ ذِي بَغِضَةٍ إِنْ تَقَرَّبَا

(١) مشعلة طلعة واسعة يتفرق دما منبثقا . جاحم موقد . وكأزا يوقدون عند المطعون ليعرفوا حاله في كل ساعة .

(٢) الحصان يفتح الحاء والحصان والمحصة بوزن اسم المفعول العفيفة أو المتزوجة التي أحسنها زوجها .

(٣) إذا اتصلت نى أرادت أن تتوسل إلى أبناء عمها الذين سبوا بصلة الذم التي بينهم تصيح « أبكر بن وائل ، وبكر هو الجد الأكبر الذي يجمع هذه القبائل جميعاً .

(٤) يقول كفى بالذى تهلكنى من الهجر والجفاء شفاء لما أنا مريض به من جك لو أننى عقلت فتجنبت طلابك بعد أن شئت .

(٥) الربيع بكسر الراء ما ولد في الربيع ابتكرت أمه بولادته . السقاب جمع سقب يفتح السين وهو ولد الناقة . أحجب انقاد .

فإن القريب من يُقَرَّب نفسه
وإن امرءً في حِقْبَةِ الناس هذه
متى يغترب عن قومه لا يَجِدْ له .
وَيُحْطَمُ بظلم لا يزال يرى له
وتُدْفَنُ منه الصالحاتُ وإن يُسَيِّمُ
وليس مُجِيراً إن أتى الحَيَّ خائفٌ
أرى الناس هَرُوفِي وشهر مَدَّخَلِي
فأبلغ بى سعد بن قيس بأتى
صرمتُ ولم أصرمكم وكَصَارِمِ
ومثِلُ الذى تولوتنى فى بيوتكم
ويَبْعُدُ بيتُ المرء من دار قومه
إلى معشر لا يُعْرِفُ التَّوَدُّ بينهم
أرأى لَدُنْ أن غاب قومى كأنهما
دعا قومه حولى فجاءوا لنصرة
فأرضوه أن أعطوه متى ظلامه
ورُبَّ بَقِيع لو هتفتُ بِجَسَّوه
أرى رجلاً منكم أَسِيفاً كأنما
وما عنده مجد تليد ولا له

لَعَمْرُ أَيْكَ الْخَيْرِ لَا مِنْ تَنْسَبَا^(١)
وإن
على من له رهطٌ حوَالِه مُغْضِبَا
مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرَأً وَمَسْحَبَا
يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارِ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا^(٢)
ولا قائلًا إلا هو المتعَبَّيَا
وفى كل مَمْشَى أُرْصِدُ النَّاسَ عَقْرَبَا
عَتَبْتُ فَلِمَ أجد لى مَعْتَبَا
أخٌ قد طوى كشحاً وأبٌ لِيذْهَبَا^(٣)
يُقْنَى سِنَاناً كَالْإِقْدَامَى وَتَعْلَبَا
فلن يعلموا مَمْسَاءَ إِلَّا تَحْسَبَا^(٤)
ولا النسبُ المعروف إِلَّا تَنْسَبَا
يرانى فيهم طالبُ الحق أرنبَا
وناديت قوماً بِالْمَسْنَةِ غُيَّيَا^(٥)
وما كنت قِلاًَّ قَبْلَ ذَلِكَ أَزْيَا^(٦)
أتانى كريم ينفض الرأس مُعْصَبَا
يَضُمُّ إِلَى كَشْحِيَةِ كَفًّا مُخْضَبَا
من الرِّيحِ فَضْلَ الْجَنُوبِ وَلَا الصَّبَا

(١) يقول ليس القريب هو الذى تجمعك به صلة نسب ولكن القريب حقاً هو الذى يمنحك من
الود والاخلاص ما يقربه منك .

(٢) كَبْكَب اسم جمل .

(٣) أب ليذهاباً للذهاب .

(٤) التَّحْسِبُ المُؤَال عن الخبر

(٥) المسنة ماء لبنى شيبان

(٦) أزيب غريب من حى آخر .

وإني وما كلفتموني وربكم
لكالثور والجنى يضرب ظهره،
وما ذنبه أن عافت الماء باقر
فإن أنا عنكم لأصالح عدوكم
وإن أدن منكم لا أكن ذا تميمة
سينبح كلبى جاهداً ومن ورائكم
وأدفع عن أعراضكم وأعيركم
هنا لك لا تجزوني عند ذاككم
ثنائي عليكم بالمغيب وإني
أكون امرء منكم على ما ينوبكم
أراني وعمرأ بيننا دق منشم
كلانا يرأى أنه غير ظالم
ومن يطع الواشين لا يتركوا له
وكنت إذا ما القرن دام ظلامي
كما التمس الرومي منشب قفلة
فما ظنكم بالليث يحمي عرينه

لِيَعْلَمَ مَنْ أَمْسَى أَعْقَ وَأَحْرَبَا
وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ عَافَتِ الْمَاءَ مَشْرَبَا
وَمَا إِنْ تَعَافَى الْمَاءُ إِلَّا لِيُضْرَبَا (١)
وَلَا أَعْطُهُ إِلَّا جَدَالًا وَمِحْرَبَا
يُرَى بَيْنَكُمْ مِنْهَا الْأَجَالُ مُتَقَبَا (٢)
وَأَغْنِي عِيَالِي عَنْكُمْ أَنْ أَوْنَبَا
لِسَانًا لِمُقْرَاضِ الْخَفَاجِي مَلْحَبَا (٣)
وَلَكِنْ سَيَجْزِينِي إِلَالُهُ فُتَيْعِبَا
أَرَانِي إِذَا صَارَ الْوَلَاءُ تَحْزَبَا
وَلَنْ يَرْنِي أَعْدَاؤُكُمْ قَرْنَ أَعْضَبَا (٤)
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ أَجَنُّ وَيَكْلَبَا (٥)
فَأَعَزَّبْتُ حِلْمِي أَوْ هُوَ الْيَوْمَ أَعَزَبَا
صَدِيقًا وَإِنْ كَانَ الْحَيْبُ الْمَقْرَبَا
غَلِقْتُ فَلَمْ أَغْفِرْ لِحَصْمِي فَيَدْرَبَا
إِذَا اجْتَسَّه مِفْتَاحُهُ أَخْطَأَ الشَّبَا
نَفِي الْأُسْدُ عَنْ أَوْطَانِهِ فَتَهَبَا

(١) الجنى الراعى . وكانوا إذا أرادوا أن يوردوا البقر الماء فعافته قدموا ثورا فضر به فورد .
فاذا فعلوا ذلك وردت البقر . يقول أتم قد ألزمتوني ما لا ذنب لي فيه كما يضرب الثور لأن البقر
تعاف الماء .

(٢) التيمة المقرض الذى يقطع به الحديد والفضة .

(٣) الخفاجى نسبة إلى خفاجة بن معاوية بن عقيل . ملح ب قاطع .

(٤) الأعصب المكسور القرن . يقول سأكون برغم إساءة تم لي عنيفا على أعدائكم .

(٥) منتم امرأة جعلت عطرا لها فكان صديق لها يأتيها فطيبه فوجد زوجها ريح عطرها من

صديقها فقتلها . فاقتلوا فيه حتى تناهوا . وعمرو هو جهنم شاعر بنى عبد الله .

يُكِنُّ حَدَاداً مُوَجَّدَاتٍ إِذْ مَشَى وَيُخْرِجُهَا يَوْماً إِذَا مَا تَحَرَّبَا
لَهُ السَّوْرَةُ الْأُولَى عَلَى الْقَرْنِ إِذْ غَدَا وَلَا يَسْتَطِيعُ الْقِرْنُ مِنْهُ تَغَيُّبَا
عَلَوْتُكُمْ وَالشَّيْبُ لَمْ يَغْلُ مَفْرَقِ وَهَادَيْتُمُونِي الشَّعْرَ كَهَلَا مَجْرَبَا

قصيدته في هجاء بني عبدان

وشاعرهم جهنهم

يَالْقَيْسُ لِمَالَقِينَا الْعَامَا أَلْعَبْدِ أَعْرَاضُنَا أَمْ عَلَى مَا (١)
لَيْسَ عَنْ بَعْضَةٍ حُذَافٍ وَلَكِنْ كَانَ جَهَنَّا بِذَا كُتْمٍ وَعُرَامَا (٢)
لَمْ نَطَأْكُمْ يَوْماً بَظْلَمَ وَلَمْ نَهْتِكْ حِجَاباً وَلَمْ نُحِلِّ حَرَامَا
يَا بَنِي مَنْذَرِ بْنِ عَبْدِانَ وَالْبِطْنَةَ يَوْماً قَدْ تَأْفَنُ الْأَحْلَامَا (٣)
لَمْ أَمْرْتُمْ عَبْدًا لِيَهْجَوْ قَوْمَا ظَالِمِيهِمْ مِنْ غَيْرِ جُزْمٍ كَرَامَا
وَابْتَعْتُمْ
يَوْمَنَا بِالْمَسِيلِ فِي سَيِّدِيهِمْ حَيْثُ جُتِّمْ وَاد
وَالَّتِي تُلَبِّثُ الرُّعُوسَ مِنَ النُّعْمَى وَيَأْتِي إِسْمَاعُهَا الْأَقْوَمَا
يَوْمَ حَجَرٍ بِمَا أَزَلَّ إِلَيْكُمْ إِذْ تُذَكِّي فِي حَافَتِيهِ الضَّرَامَا (٤)
جَارٍ فِيهِ نَكَافِي الْعُقَابِ فَأُضْحَى آتَدُ النَّخْلَ يَفْضَحُ الْجُرَّامَا
فَتَرَاهَا كَالْحُشْنِ تَسْفَحُهَا النَّيْرَانُ سُودَا مُصَّرَعَا وَقِيَامَا (٥)

(١) قيس بن ثعلبة هو الجد الذي يجتمع عنده قوم الأعشى بأبناء عمهم بنى عبد الله . يناشدكم القراية .

(٢) حذافة جد بنى المنذر بن عبد الله . وجهنهم هو غير بن عبد الله بن المنذر بن عبد الله بن حذافة .

ابن حبيب بن ثعلبة بن سعد بن قيس بن ثعلبة . العرام الشراصة والشر .

(٣) تأفن الأحلام تذهب بها وتضعفها . ورجل مأفون ضعيف العقل .

(٤) أزل اليه نعمة أسداها إليه . يذكركم بما قدموا لهم من عون في هذا اليوم حين أحرقت النخيل .

(٥) الحشناء الناقة العجفاء .

ثم بالعين عُرَّةٌ تَكْشِفُ الشَّمْسَ ويوماً ما ينجلى إظلاما
 إذ أُنْتَكَمَ شِيَانُ فِي شَارِقِ الصُّبْحِ بِكَبْشٍ تَرَى لَهُ قَدْرًا مَا
 فَخَدَوْنَا عَلَيْهِمَ بَسْكَرَ السَّوْدِ دِ كَمَا تَوْرَدُ النَّضِيجُ الْهِيَامَا (١)
 بِرِجَالٍ كَالْأَسَدِ حَرْبَهَا الزَّجَرُ وَخَيْلٍ مَا تُنْكَرُ الْإِقْدَامَا
 لَا نَقِيهَا حَدَّ السَّيْفِ وَلَا نَأْ لَمْ جَوْعًا وَلَا نَبَالَى السَّهَامَا
 سَاعَةً أَكْبَرَ النَّهَارُ كَمَا شَدَّ مُخِيلٍ لِنَوْنِهِ أَغْنَامَا (٢)
 مِنْ شَبَابٍ تَرَاهُمْ غَيْرَ مِيزِلٍ وَكُهُولًا مَرَايِحًا أَحْلَامَا
 ثُمَّ وَلَوْ أَعْنَدَ الْحَفِظَةَ وَالصَّبْرَ كَمَا يَطْحَرُ الْجَنْبُوبُ الْجَهَامَا (٣)
 ذَاكَ مِنْ جَبَلِكُمْ لَنَا وَعَلَيْكُمْ نِعْمَةٌ لَوْ شَكَرْتُمْ الْإِنْعَامَا
 وَإِذَا مَا الْقَتَارُ شَبَهَ بِالْأَنْفِ يَوْمًا بِشْتَوَةِ أَهْضَامَا (٤)
 فَلَقَدْ تَصَلَّقَ الْقَدَاحَ عَلَى النَّيْبِ إِذَا كَانَ صَلَقْنَهُ غَرَامَا
 بِمَسَامِيحٍ فِي الشِّتَاءِ يَخَالُوْنَ عَلَى كُلِّ فَيْلَاجٍ إِطْعَامَا
 وَقَبَابٍ مِثْلَ الْهَضَابِ وَخَيْلٍ وَصَعَادٍ حُمُرٍ يَقِينُ السَّمَامَا (٥)
 فِي مَحَلٍّ مِنَ الشُّغُورِ غُرَاةٍ فَإِذَا خَالَطَ الْغَوَارُ السَّوَامَا
 كَانَ مِنْهَا الْمَطَارِدُونَ عَنِ الْآخِرَى إِذَا أَبَدَتْ الْعِزَارَى الْخُرْدَامَا (٦)

(١) النضيج الماء لأنه ينضج العطش والناضح المستقي عليه والهيام بكسر الهاء العطاش .

(٢) مخيل راع تخيل أن في السحاب مطراً مقبلاً غشي على همه أن يرقها المطر .

(٣) يطحر يفل ويطر . الجنوب الريح التي تهب من الجنوب . الجهام السحاب .

(٤) الهضم البخور وابعع أهضام . القطار رائحة الطعام . والشتاء وقت الجذب في بلاد العرب

ولذلك فهم يفتخرون بالجود والكرم فيه خاصة . يقول إن العايخ يقل في الشتاء حتى إن الناس ليشمون

رائحته كما يشمون البخور : ثم يقول في ذلك الوقت تجدنا نضرب القداح على النيب وهي كبار الأبل حين

يكروه ذلك لشدة الحاجة إليها .

(٥) الصعاد جمع صعدة وهي القناة التي تنبت مستقيمة فتصلح لأن تكون رعيًا .

(٦) الخدام جمع خدمة ثلاث فتحات وهو الخلخال والساق . يكنى بانكشاف سوق العذارى

عن شدة القتال .

قصيدة في هجاء بني ججد بن قيس بن ثعلبه

الْمَيْشَاءَ دَارٌ قَدْ تَعَفَّتْ طُأُوهَا عَفَّتْهَا تَضِيضَاتُ الصَّبَا فَمُسِيَاهَا
 لَمَّا قَدْ تَعَفَّى مِنْ رَمَادٍ وَعَرْضَةٍ بَكَيْتُ وَهَلْ يَبْكِي إِلَيْكَ مُحْيَاهَا
 لَمِثَاءٌ إِذْ كَانَتْ وَأَهْلُكَ جَيْرَةً رِثَاءٌ وَإِذْ يُفْضِي إِلَيْكَ رَسُولُهَا
 وَإِذْ تَحْسِبُ الْحَبَّ الدَّخِيلَ لَجَاجَةً مِنْ الدَّهْرِ لَا تُمْنَى بِشَيْءٍ يَزِيلُهَا
 وَإِنِّي عِدَانِي عَنْكَ لَوْ تَعْلِينِهِ مَوَازِيٍّ لَمْ يُنْزِلْ سِوَايَ جَلِيلُهَا (١)
 مَصَارِعُ أَخْوَانٍ وَغُرُ قَيْلَةٍ عَلَيْنَا كَأَنَا لَيْسَ مِنَّا قَبِيلُهَا
 تَعَالَوْا إِنْ الْعِلْمَ عِنْدَ ذَوِي النَّهْيِ مِنَ النَّاسِ كَالْبُلْقَاءِ بَادٍ حُجُولُهَا
 نَعَاطِيكُمْ بِالْحَقِّ حَتَّى تَبَيَّنُوا عَلَى أَيْتَانِ تَوَدَّى الْحَقُّوْقَ فُضُولُهَا
 وَإِلَّا فَعُودُوا بِالْهَجِيمِ وَمَازِنِ وَشِيَانٍ عِنْدِي جَمُّهَا وَحَفِيلُهَا
 مَتَى أَدْعُ يَوْمًا نَاصِرِي تَأْتِ مِنْهُمْ كَرَادِيسُ مَأْمُونٍ عَلَى خُذُولُهَا
 رَعَالًا كَأَمْثَالِ الْجَرَادِ لَخِيلِهِمْ عُكُوبٌ إِذَا ثَابَتْ سَرِيعُ نَزُولُهَا (٢)
 فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَمْ أَفْتَقِدْكُمْ إِذَا ضَمَّ هَمَامًا إِلَى حُلُولُهَا
 أَجَارَتُكُمْ بَسَلٌ عَلَيْنَا مَحَرَّمٌ وَجَارَتَنَا حِلٌّ لَكُمْ وَحَلِيلُهَا
 فَإِن كَانَ هَذَا حُكْمُكُمْ فِي قَيْلَةٍ فَإِنْ رَضَيْتُ هَذَا فَقُلْ قَلِيلُهَا
 فَإِنِّي وَرَبُّ السَّاجِدِينَ عَشِيَّةٌ وَمَا صَكَّ نَاقُوسَ النَّصَارَى أَيْلُهَا
 أَصَالِحُكُمْ حَتَّى تَبُوءُوا بِمِثْلِهَا كَصَرْخَةِ حَبْلِ يَسْرَتُهَا قَبُولُهَا

(١) وزأ القوم دفع بعضهم عن بعض ووزأت الناقة به صرعه . والوزأ حركة الشديد الخلق .

(٢) الرجال جمع رعلة ورعيل وهي القطة من الخيل القليلة قدر العشرين أو الخمسة والعشرين .

عكوب غبار وأصوات .

..... أما يحيلها
 تَنَاهَيْتُمْ عَنَّا وَقَدْ كَانَ فِيكُمْ
 أَسَاوِدُ صَرَغِي لِمُيُوسَّدَقِيلًا (١)
 وَإِنْ أَمْرًا يَسْعَى لِيَقْتُلَ قَاتِلًا
 عَدَاءَ مُعَدِّ جَهْلَةٍ لَا يُقْبِلُهَا
 وَلَسْنَا بِذِي عِزٍّ وَلَسْنَا بِكَفَّةٍ
 كَمَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهَا وَدَخِلُهَا
 وَيُخْبِرُكُمْ حُمْرَانُ أَنْ بَنَاتِنَا
 سِيَهْزِلْنَ إِنْ لَمْ يَرْفَعْ الْعِيرِمِيلُهَا (٢)
 فَعِيرُكُمْ كَانَتْ أَذَلٌّ وَأَرْضُكُمْ
 كَمَا قَدْ عَلِمْتَ جَدُّهَا وَمُحْرَهَا
 فَإِنْ تَمْنَعُوا مِنَّا الْمَشَقَّرَ وَالصَّفَا
 فَإِنَّا وَجَدْنَا الْخَطَّ جَمَانِخِيلُهَا (٣)
 وَإِنْ لَنَا دُرْنِي فَكُلَّ عَشِيَّةٍ
 يُحِطُّ إِلَيْنَا خَمْرُهَا وَخَمِيلُهَا (٤)
 فَإِنَّا وَجَدْنَا النِّيبَ إِنْ تَقْصِدُوهَا
 يُعِيشُ بَيْنَنَا سَيْدُهَا وَجَمِيلُهَا (٥)
 أَبَا لَمَوْتٍ خَشَّتِي عِبَادُ وَإِنَّمَا
 رَأَيْتُ مِنَّا النَّاسَ يَسْعَى دَلِيلُهَا
 فَمَا مِيتَةٌ إِنْ مِتُّهَا غَيْرَ عَاجِزٍ
 بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتْ النَّفْسُ غَوْلُهَا

(١) الأساود الجماعة من الناس .

(٢) يقصد إن لم يرفع أُمَيَّال الطريق إلينا الغير بالميرة .

(٣) المشقر مدينة هجرى مشهورة بالتمر . الصفا بالبحرين . الخط أرض عبد القيس والنهب .
 تنسب الرماح . يقول إنهم يستغنون عن ثمر هجر والصفا بالخط فنجعلها كثير .

(٤) درنى بالجماعة مشهورة بالخمر . الخميل التريد والطعام .

(٥) السوء اللين ينزل قبل الدرة ويكون فى أطراف الأخلاف . الجليل ذوب الشحم . يقول إذا

أكلتم دم الفصيد فنحن نغزو أولادنا اللين والشحم .

الهجاء الديني

هذا قسم من أقسام الهجاء السياسي ، صاحب الحركة الإصلاحية الخطيرة ، التي بدأت في الجزيرة بظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعوته إلى دين جديد . فقد كان للإسلام إلى جانب صفته الدينية صفة سياسية ، تهدف إلى توحيد الجزيرة ، وخلق دولة كبيرة منها ، تخضع لسلطة مركزية واحدة . والمتتبع لهذه الحركة منذ نشأتها ، يعجب بالمقدرة الفذة التي نظمها وأدارت دقتها ، حتى بلغت بها في أقصر وقت ، إلى هذه الدرجة من النجاح الكامل والفوز المحقق . وليس من شك في أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان من أنضج العقليات السياسية التي عرفها التاريخ ، رحل عن مكة حين وجد المعارضة الشديدة ، إلى حيث استطاع أن يأمن على نفسه وصحبه . وكان همه الأول أن يوحد صفوف حزبه ، ويجعل منهم كتلة متماسكة . فهو يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، وينهى عن العصية ، ويصلح بين الأوس والخزرج ، فيزيل آثار التارات والعداوات . فإذا تم له توحيد الصفوف بدأ نشاطه السياسي ، واحتال لأعداء الدعوة ، يتخلص منهم واحدا واحدا .

كان اليهود كثرة في المدينة ، فهو يهادنهم ، ثم يتخلص منهم دفعة بعد دفعة . كلما نقض فريق منهم عهده أجله . فلما تم له توحيد المدينة ، وأصبحت كتلة مسلمة ليس بينها دخيل ، بدأ سياسته الخارجية ، وكانت مكة أول هدف يرمى إليه . فهو يريد أن يستولى على عاصمة عدوه ، ويضع يده على أقدس البقاع عند العرب ، وقد علم ما سيكون لذلك من أثر أدبي كبير في كل أنحاء الجزيرة . وهو يحتال لأمره ، فلا يتدفع مهاجما ، ولكنه يعجم عود عدوه ، فيزور مكة معتمرا ، ويقرر أنه لا يريد حربا ، وأنه لم يأت إلا زائرا لهذا البيت معظا له ، ويقنع في هذه المرة بعقد صلح الحديبية ، وهو كسب سياسي

محقق ، أقل مافيه الاعتراف الصريح بالدولة الإسلامية الناشئة .

وهو لا يشغل نفسه بالحرب مع عدوين في وقت واحد ، فهو يهادن مكة ، ريثما يتخلص من اليهود الذين أجلاهم عن المدينة فاستقروا في خيبر يترصون به الدوائر . فإذا تم له إخضاعهم وأمن شرهم ، ظل يترقب مكة لأول فرصة تنقض فيها العهد ، وهو يعلم أن ذلك واقع لا محالة ، في حياة تعتمد على الغارة والغزو . فإذا نجح في الغزو ، تحقق تقديره ، وأقبلت وفود العرب ترى مبايعة .

وهو يصطنع الأحزاب السياسية ، ويختار دعائها من الشعراء ، فقد علم أنه لا ينهض للرد على شعر المشركين أمام الجماهير إلا شعر مثله . فهم يردون على الكفار بنفس أسلوبيهم في التعبير بالأنساب والأيام . فإذا تمت للمسلمين الغلبة نهى عن رواية الشعر القديم . الذي تبادلوه مع أعداء الأُمس وأصدقاء اليوم . وعنى على الضعفاء القديمة بالصفح الجميل ، لا غالب ولا مغلوب ، فهم جميعا إخوان في الدين ، وعفا الله عما سلف .

وقد علم بثاقب فكره وبعيد نظره ، أن لا ثبات للإسلام في هذه الجزيرة القاحلة الفقيرة ، إلا أن يزيل الدولتين الكبيرتين الغنيتين على أطرافها ، الفرس والروم . ولكنه لا يتعجل ، فهو يستجم سنتين بعد فتح مكة ، يتهيأ لهذه المهمة الكبيرة بتوحيد كتلة المسلمين ، وقد اتسعت رقعتها حتى شملت معظم الجزيرة . فهو لا يجبر أصحاب الديانات السماوية القديمة على اعتناق الإسلام كما يفعل بالكفار ، ولا يضطهدهم ، ولكنه يبذلهم بأرضهم أرضاً في أطراف الجزيرة ، حتى يجعل من الجزيرة كتلة متماسكة متحدة ، تدين بدين واحد . ثم هو لا يفرض على المسلمين عقائد الدين فقط ، ولكنه يوحد بينهم في القوانين المدنية التي تحكمهم ، فهي جزء لا يتجزأ من الدين ، وهي حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . وبذلك أصبحت هذه القبائل

المبعثرة المتفرقة ، تدين لسلطة مركزية واحدة ، ويحكمها لأول مرة في التاريخ قانون واحد في العقوبات والمعاملات .

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يفجأ قومه بالنشرع دفعة واحدة . فهو يعتمد على تقاليدهم القديمة ، ولكنه يحتال في توجيهها وتهذيبها ، ويتلطف في قيادتها للخير . فالكعبة هي ذلك المكان المقدس ، ولكنه ينزل منها الأصنام ، ويقرس دنتها في الجاهلية على سداتها في الإسلام . والرق هو هو لا يلغيه ، ولكنه يخففه ، ويضع له القيود ، ويرد على صاحبه إنسانيته ، فهو أخ في الله . والثأر يتركه كما كان من حق صاحبه ، ولكنه ينهى عن الغلو فيه ، ولا يزال يحب إليهم العفو . حتى يصير العفو أحب إلى أحدهم من القصاص . والحياة البدوية التي تقوم على الغزو والنهب باقية كما هي ، بتقاليدها في السبي والغنائم ، ولكنه يوجهها نحو العدو ، وينتفع بها في نشر الرسالة .

فالإسلام — وهو الدين العربي — كان متأثراً بالمثل الجاهلية إلى حد بعيد . وتأثره بهذه المثل واضح من عدة نواح . فهو دين واقعي ، يعرف أن الناس لا يستطيعون أن يتخلصوا من بشرتهم ليعيشوا في عالم المثل وفي آفاق الكمال ، فيقرر أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . ولازمة من لوازمها ، لا يتم بدونها العمران (ولولا دفعُ الله بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكنَّ الله ذو فضل على العالمين — بقرة ٢٥١) (وآتيناه عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات . ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر . ولو شاء الله ما اقتلوا ولكنَّ الله يفعلُ ما يريد — بقرة ٢٥٣) . ولذلك فهو يطلب إلى المسلم أن يكون قويا مستعدا للقتال (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإما منا

بَعْدُ وَإِمَاً فِدَامَا حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ
لَا نَتَصَرَ مِنْهُمْ . وَلَكِنْ لِيَبْأُوْا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ . وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ — (محمد ٤) (فَإِمَّا تَشْتَقِفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ
فَشَرِّدْهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لِأَعْمَالِهِمْ يَنْزِكُرُونُ . — الأنفال ٥٧) (وَأَعِدُّوا
لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
— الأنفال ٦٠) (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا
يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ —
التوبة ٢٩) (فَالْإِسْلَامُ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ صِفَةُ الْمُقَاتِلِ ، حَتَّى
إِنَّهُ لِيَكْفِرَ مَنْ دَعَى لِلْجِهَادِ فَلَمْ يَلْبِ) (إِيْمَانُ) الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ
تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا . قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا
لَاتَّبَعْنَاكُمْ . هُمُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ — آل عمران ١٦٧) .
وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ حَثَّ عَلَى الرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْعَفْوِ
فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ ، وَلَكِنَّهُ طَلَبُ مِنَ الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ قَوِيًّا أَوَّلًا ، قَادِرًا
عَلَى أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ يَقْتَصِرَ مِنْ يَتَعَدَّى عَلَيْهِ ، وَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْفُو
إِنْ شَاءَ . فَالرَّحْمَةُ لَا تَعْرِفُ الطَّرِيقَ إِلَى قَلْبِ الضَّعِيفِ الْخَائِرِ ، وَالْعَفْوُ وَالْإِحْسَانُ
لَا تَحْتَوِيهِمَا نَفْسُ الْجَبَانَ . فَرَحْمَةُ الضَّعِيفِ ذِلَّةٌ وَمِهَانَةٌ ، وَعَفْوُهُ وَإِحْسَانُهُ
ضَرَاةٌ وَاسْتِكَانَةٌ .

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى
لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وَالَّذِينَ إِذَا
أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا . فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنْ انْتَصَرَ مِنْ

بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيلُ على الذين
يُظلمون الناسَ وَيَغُفُونَ في الأرض بغيرِ الحق . أولئك لهم عذابٌ
أليم . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ — (شورى ٣٦)
إلى ٤٣) وقد أعلَى الإسلام من قدر الذين يموتون في الحروب دفاعاً عن
الدعوة ، فسامهم الشهداء ، وقال فيهم (ولا تحسبن الذين قُتِلُوا في
سبيلِ اللهِ أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقُونَ) قال صاحب العقد :
وكانوا يتماحون بالموت قطعاً ، ويتهاجون بالموت على الفراش ، ويقولون
(مات فلان حَسَنَ أَنْفِهِ) ، وأول من قال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ^(١)
وروى صاحب العقد أن النابغة الجعدي أنشد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم
قصيدته .

بَلِّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنا وَاجْدُودُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا
فلما وصل إلى قوله :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْسٍ إِذْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُسَكَّرًا
قال له النبي صلى الله عليه وسلم (لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكِ) ^(٢) .

كل ذلك يصور بجلاء أن المثل الإسلامية قد ظلت — إلى حد كبير —
تعتمد على القوة كما كانت في الجاهلية ، ونستطيع أن نقول إن الإسلام لم
يكن له أثر كبير في تطور فن الهجاء أو غيره من فنون الشعر . فالعرب —
في معظمهم — لم يدخلوا في الإسلام عن إيمان واقتناع ، ولكنهم غلبوا
على أمرهم ، فدانوا للغالب كارهين . وقد صور القرآن حال البدو منهم —
وهم السكثرة الغالبة — (قالت الأعراب آمنا . قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) وما هو إلا

(١) العقد الفريد ١ : ٨١ .

(٢) العقد الفريد ١ : ٨٦ . الفض الكمر . يدعو له بأن تسلم له أسنانه ، ليسلم له التعلق ويظل
على براعته في الخطابة . وهو دعاء شبيه بما نقوله الآن إذا أعجبنا كلام (يسلم فك)

أن مات النبي . حتى ارتد العرب ، ونزعوا الإسلام من أعناقهم ، حتى احتاج أبو بكر إلى أن يجاهد في نشر الدعوة من جديد .

ونحن لا نغض من الإسلام أو تعاليمه ، حين نقرر هذه الحقيقة . فذلك شأن حركات الإصلاح الكبيرة التي تسبق زمانها ، وشأن العباقرة الأفاضل من المصلحين ، الذين يعظم الفارق بينهم وبين أهل عصرهم . وليس على المصلح من حرج في أن يحمل الناس على مذهبه حملاً ، ويسوقهم إليه سوقاً . بل إن واجبه ، وإيمانه العميق برسالته ليقضيه ذلك ويوجهه عليه . فالمجتمع في حال جهله سفیه محدود النظر والتفكير ، والمصلح كالأب الذي يقسو بدافع من الرحمة ، ويزجر ليحمل على الصواب . وإن الناس ليقاومون المصلحين في أول أمرهم ، فإذا مضت الأعوام . وتهيأت عقولهم لفهم دعوتهم . وأشربتها قلوبهم ، فتنوا بها وبصاحبها ، وعجبوا لموقفهم في حال جهلهم وضلاتهم .

لم يفهم العرب من النبوة إلا أنها نوع من الملك ، ومحاولة بسط الساطان ، وفرض الطاعة على الناس . ولم يفرقوا بين الزكاة التي كان يجمعها النبي من المسلمين ، وبين الإتاوة التي كان يجبيها ولاية اليمين أو الفرس . فقد كان أول مظهر من مظاهر الإسلام أن يرسل النبي مع الوفد الذي يقدم للبيعة عاملاً لجمع الزكاة . وكان أول مظهر من مظاهر الارتداد عن الإسلام بعد وفاة النبي امتناع العرب عن أداء الزكاة . وقد ظل عبد الله بن أبي طول حياته على بغض النبي ، والسكيد له ، والحسد لما نال من مكان في قلوب الناس ، لأنه كان يراه ملكاً غلبه على قومه ، وسلبه مكانه منهم ، وكانوا قد هموا — فيما يروى الرواة — أن يتوجوه قبل مقدم النبي ^(١) وكان اليهود يسمون النبي ملك الحجاز ^(٢) . وأبو سفيان بن حرب يقول للعباس ، وقد عرضت عليه جيوش المسلمين يوم الفتح : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك

(١) السيرة ٢ : ٢٣٤

(٢) السيرة ٣ : ٣٥١

ابن أخيك الغداة عظيما . فيراجعه العباس قائلا : إنها النبوة يا أبا سفيان .
 فيجيب ماريّا : فَنَعْمَ إِذَنْ ^(١) وقد بعثه الرسول بعد ذلك مع المغيرة بن
 شعبه ليهدم اللات ، فهاب أن يفعل ذلك بيده ، وقدم المغيرة قائلا : ادخل
 أنت على قومك ^(٢) ولم يكن إسلام ثقيف اقتناعا بصحة الإسلام ولا حبا
 فيه ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، ورأوا أن الدعوة قد انتشرت في الجزيرة ،
 وأخذتهم من كل مكان ، فلم يعد لهم طاقة بدفعها أو جهادها . وهم إذا قدموا
 على النبي أبوا أن يحيوه إلا بتحية الجاهلية . ثم هم يقيمون في قبة بعيدا عن
 النبي ، ويمشي بينهم خالد بن سعيد بن العاص حتى يكتبوا كتابهم . وهم
 لا يأكلون من طعام يُقَدَّمُ إليهم حتى يأكل منه خالد . وهم يسألون
 الرسول أن يدع لهم الطاغية — وهى اللات — لا يهدمها ثلاث سنين ،
 فيأبى الرسول عليهم ذلك . ويستعفونه من كسر أو ثنائهم بأيديهم ومن الصلاة ،
 فلا يقبل منهم شيئا من ذلك . حتى إذا ضاقت بهم السبل ، ولم يروا إلا النزول
 على ما يريد ، قالوا له : يا محمد ! سنؤتيكها وإن كانت دناءة . ^(٣) ولما قدم وفد
 بنى عامر على النبي ، اشترطوا لنصرته أن يكون لهم الأمر من بعده ^(٤) .
 ولم تكن تميم أصلح حالا من ثقيف أو بنى عامر ، فقد قدم وفدهم على النبي
 مفاخرًا منافرا ، ثم أسلموا حين نفر عليهم النبي بشاعره وخطيبه . ^(٥) ولم
 تكن قصيدة حسان التي نفر عليهم بها إلا مدحا على طريقة الجاهليين :

قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا وعدوهمُ أوحاوُكوا النَّفْعَ من أَشْيَا عِهِم نَفَعُوا
 لا يَرْقَعُ النَّاسُ ما أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ عِنْدَ الدِّفَاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا
 إن سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمَ فَازَ سَبَقُهُمْ أَوْ وازَنُوا هَلْ مَجْدٌ بِالنَّدَى مَتَعُوا

(٢) السيرة ٤ : ١٨٦

(١) السيرة ٤ : ٤٧

(٤) السيرة ٢ : ٦٦

(٣) السيرة ٤ : ١٨٤

(٥) السيرة ٤ : ٢١٠ ، ابن الأثير ٢ : ١٩٥

لَا يَنْخَلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ وَلَا يُمْسَهُمْ فِي مَطْمَعٍ طَبَعُ
وقد كانت الشعراء تمدح النبي بامتدح به الملوك والسادة ، من الشجاعة والوفاء ،
والبطش بالأعداء ، وسعة العطاء . يمدحه أنس بن زعيم بن مالك فيقول (١) :

وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأُسْبَغَ نَائِلًا إِذَا رَاحَ كَالسَيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهَنْدِ
وَأَكْسَى لُبِّ دِ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِدَالِهِ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِجِ الْمُتَجَرِّدِ
وَيَمْدَحُهُ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ فِيَقُولُ (٢) :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا أُجْتَدِيَ وَمَتَى تَشَاءُ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِيْ غَدٍ
وَإِذَا السَّكَنِيَّةُ عَرَّدَتْ أَنْيَابَهَا بِالسُّمَهْرِ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنْدٍ
فَكَانَهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ وَسَطَ الْهَبَاءَةِ خَادِرٌ فِيْ مَرَصَدٍ
فَالْإِخْبَارُ عَمَّا فِيْ غَدٍ هُوَ كُلُّ مَا يَفْهَمُهُ مِنَ النَّبِوَةِ .

وقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) لا تختلف كثيراً عن قصائد النابغة
في الاعتذار . يقول فيها :

لَقَدْ أَقُومُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ
لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْسُوِيلُ (٣)
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أَنْزَعُهُ فِيْ كَفٍّ ذِي نَفَاتٍ قِيْلُهُ الْقِيلُ
فَلَهُوَ أَخْوَفُ عِنْدِي إِذَا أَكَلَّمَهُ وَقِيلُ إِنَّكَ مَسْئُوبٌ وَمَسْئُولُ (٤)

(٢) السيرة ٤ : ١٣٤

(١) السيرة ٤ : ٦٩

(٣) يقول إن الفيل على ضمامته لو قام مقامه لظل يتعد خوفًا حتى يكون له بإذن الله تأمين من الرسول يسكن روعه .

(٤) منسوب إلى أمور صدرت منه ومسئول عنها .

مِنْ ضَيْغِمٍ بِضَرَاءِ الْأَرْضِ مُخْدَرُهُ بِيْطْنِ مَكَّةَ غَيْلٌ دُونَهُ غَيْلٌ (١)
يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضِرْغَامَيْنِ عَيْشَهُمَا لَحْمٌ مِنَ النَّاسِ مَغْفُورٌ خِرَادِيلٌ (٢)
إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنًا لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتْرُكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَقْلُودٌ (٣)
مِنْهُ تَظَلُّ سِبَاعُ الْجَوِّ نَافِرَةٌ وَلَا تَمَشِيُّ بَوَادِيهِ الْأَرَا جِيلٌ (٤)
وَلَا يَزَالُ بَوَادِيهِ أَخُو ثَقَفَةٍ مُضْرَجُ الْبَرْزِ وَالْدُّرْسَانُ مَا كُولٌ (٥)
فِي عَصَبَةٍ مِنْ قَرِيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِيْطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زَلُّوا

وليس صحيحاً ما يقال من أن العصية الجاهلية قد سكنت في حياة النبي إلى حين ، ثم استؤنف بعد موته ، فالواقع أن العصية قد استمرت حادة عنيفة في حياة النبي وبعد موته ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد استطاع بحكمته وحسن تدبيره ، أن يتفادى شرورها ، ويحسن استغلالها لصالح الدعوة ، ويحوّلها في بعض الأحيان إلى تنافس في السبق إلى تدعيم الدين الجديد ونصرته ، والأدلة على ذلك كثيرة في كتب السيرة :

نهى النبي أصحابه في وقعة أحد أن يقتلوا بني هاشم ، ونهاهم أن يقتلوا عمه العباس ، فقال رجل من الانصار اسمه أبو حذيفة : أقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ والله إن لقيته لا لحمسته السيف . وبلغ قوله النبي ، فدعا إليه عمر وقال : يا أبا حفص ! أَيُضْرَبُ وَجْهُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه بالسيف

(١) ضيغم أسد . ضراء الأرض التي فيها شجر . المخدر غابة الأسد . عثر مكان مشهور بكثرة الساع . الغيل الشجر الملفف .

(٢) يغدو يخرج أول النهار في طلب الصيد . يلحم يعلم أشباله اللحم . الضرغامين يقصد بها شبلية . مغفور ملقى في التراب . وصفه بذلك لكثرة وعدم اكترائه به لشبهه . خراديل قطع صغار .

(٣) يساور يواكب . مغلول مكسور مظلوم .

(٤) الأراجيل الجماعة من الرجال . وهي جمع أرجال . وأرجال جمع رجل ورجل اسم جمع لأرجل .

(٥) أخو ثقة الشجاع الوثاق بشجاعته . البرز السلاح . الدرسان بضم الدال أخلاق الثياب جمع دريس .

فقد نافق^(١) والعباس عم النبي قد حزن واكتأب حين أشاع الناس في مكة أن النبي غلبَ في فتح جُنَيْدٍ وأسر ، وإنما حزن عصبية لابن أخيه ، لأنه كان وقتذاك على شركه لم يسلم^(٢) . ثم هو بعد ذلك يحير أباسفيان يوم الفتح ، ويغضب له ، حين يلح عمر في قتله ، فيرد عليه قائلاً : مهلاً يا عمر ! فوالله لو كان من بني عَدِيٍّ بن كعبٍ ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف^(٣) . وأجار كثير من المسلمين بعض أقربائهم من أهل مكة يوم الفتح^(٤) . واحتمى معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بعثمان ابن عفان في المدينة بعد وقعة أحد ، فجهزه بعد أن سأل رسول الله فيه^(٥) . ولقى ضرار بن الخطاب يوم أحد عمر بن الخطاب ، في الجولة التي جاهدوا المسلمون ، وكان قد آلى أن لا يقتل يومئذ قرشياً ، فضربه بعارضة سيفه . وقال انج يا بن الخطاب لا أَقْتُلُكَ^(٦) .

وأمر النبي سعد بن عبادَةَ في فتح مكة أن يدخل ببعض الناس في كداء ، فسمعه بعض المهاجرين يقول وقد مضى لوجهه : اليومَ يومُ المَلْحَمَةِ . الْيَوْمَ تُسْتَحْلُ الحُرْمَةُ ! فذهب بها إلى رسول الله ، وشكا إليه خوفه على أهل مكة منه ، فعزل النبي سعد بن عبادَةَ ، وولى مكانه علياً^(٧) ودخل خالد بن الوليد على بني جذيمة (من كنانة) بعد الفتح ، فنال منهم بغير إذن النبي ، وكان قد بعثه داعياً للإسلام ، ولم يأمره بقتال . وإنما قتلهم بثأر قديم لعمه الفاكه بن المغيرة . وقد برى رسول الله من عمله ، واستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد . وأرسل علياً لتلافي الأمر ، ومعه ديات القتلى ، وقال له : اخرج إلى هؤلاء القوم ، وانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك^(٨) .

(٢) السيرة ٢ : ٣٦١

(٤) السيرة ٤ : ٥٣

(٦) ابن سلام : ٩٨

(٨) السيرة ٤ : ٧٢

(١) السيرة ٢ : ٢٨١

(٣) السيرة ٤ : ٤٥

(٥) إمتاع الأسماع ١ : ١٦٦

(٧) السيرة ٤ : ٤٩

وقد ظل التنافس قائماً بين المهاجرين والأنصار قبل الفتح وبعده . ولم يزل حسان يفتخر في شعره بقومه ، وبنصرهم الرسول ، وبأيامهم معه ، ومجدهم قبل ذلك في جاهليتهم ، فلما نال من قريش حين قال :

أُمْسَى الْجَلَالَ بَيْبٌ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا
وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَضْحَى كَيْضَةُ الْبَلَدِ

انطلق إليه صفوان بن المُعَطَّل وجُعَيْلُ بن سُراقَة ، فضربه صفوان حتى كاد يقتله . واشتكى حسان إلى النبي ، فأمر بحبس صفوان ، وأن يُقَاد بحسان إن مات . ثم مشى سعد بن عبادة بين قومه حتى عفوا عنه ، تقربا إلى النبي ^(١) وخاصم المسلمون كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك ، فظل خمسين يوماً لا يكلمه منهم أحد . فلما تاب الله عليه ورُدَّ إليه اعتباره ، لم يقم إليه من المهاجرين مهنتاً إلا طلحة بن عبيد الله ^(٢) وظهرت آثار هذا التنافس واضحة بعد موت النبي ، في انحياز الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ، وانحياز المهاجرين إلى أبي بكر ^(٣) . وأرسل ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبيري في طلب حسان لينشدها ويذاكراه ، فظلا ينشدانه ، حتى إذا غلا كالمرجل ، قعدا على رواحهما . فشكاهما حسان إلى عمر ، فردهما عليه ، وأمره أن ينشدهما مثل ما أنشدها ^(٤) . وروى صاحب العقد أن رجلاً من اليمن دخل الكوفة ، فأتى المسجد ، فإذا عمَّار بن ياسر ، ورجل ينشده هجاء معاوية وعمرو بن العاص ، وهو يقول — أَلِصِقُ بِالْعَجُوزَيْنِ . فقال له اليمنى : سبحان الله ! أتقول هذا وأنتم أصحاب الرسول ؟ قال : إن شئت فاجلس ، وإن شئت فاذهب . فجلس الرجل . فقال : أتدري ما كان يقول لنا رسول الله لما هجانا أهل مكة ؟ فقال : لا أدري . قال : كان يقول لنا « قولوا لهم مثل ما يقولون لكم » ^(٥) .

(٣) إمتاع الأسماع ١ : ٢١١

(٥) السيرة ٤ : ٣٠٦

(٤) السيرة ٤ : ١٨٠

(٧) العقد الفريد ٦ : ١٤٦

(٦) ابن سلام ٩٤

كل هذا يثبت بشكل قاطع ، أن النزعة العصبية لم تفتقر بظهور الإسلام . ولم تضعف ، بل استمرت حاده عنيفة ، وإنما ضبطها ومنعها أن تشذ فتفسد الدعوة ، شخصية النبي القوية ، وبعد نظره ، وحسن تدبيره للأمور .

وقد أثار الإسلام في العرب حركة فكرية عنيفة لا عهد لهم بمثلها ، وصور القرآن جانباً منها فيما روى من حجاج الكفار وردده عليهم . كان النضر بن الحارث إذا جلس رسول الله في مجلس ، فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يتحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسبنديار — وكان قد قدم الحيرة فتعلمها بها — ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟ (١) وجلس رسول الله يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس ، وفي المجلس غير واحد من قريش ، فتكلم رسول الله ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله حتى أخميه ثم تلا عليه وعليهم (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا . وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ . لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يُسْمَعُونَ) ثم قام رسول الله ، وأقبل عبد الله بن الزبيري السهمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبيري : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد ، وقد زعم محمد أننا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال لعبد الله بن الزبيري : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمداً ، أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيزاً ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ! فعجب الوليد ومن كان في المجلس من قول عبد الله بن الزبيري ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم (٢) .

وقد أدرك النبي قيمة هذه الحرب الكلامية ، وما تترك من أثر في نفوس الناس ، فنظم الدعاية حول الدين ، وعنى بالرد على شعراء قريش ، نادبا لذلك بعض الشعراء من المسلمين ، فكان الهجاء والقتال متلازمين في نشر الدعوة ، كما يقول حسان :

لنا في كل يوم من مَعَدٍ سِبَابٌ أو قتالٌ أو هجاء
فَنُحِكم بالقوافي من هجائنا وَنَضْرِبُ حينَ تَحْتَلِطُ الدماءُ

كان النبي يختار الشعراء الذين يزودون عن الدعوة بنفسه . نادى عبد الله ابن رواحة فقال له : كيف تقول الشعر إذا قلت ؟ قال : أنظر في ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركون ! فقال قصيدته (١).

فَحَبَّرُونِي أَثْمَانَ الْعَبَاءِ مَتَى كُنْتُمْ بِطَارِيقٍ أَوْ دَانَتْ لَكُمْ مَضَرٌ؟

ولما انهزم المشركون يوم الأحزاب ، قال رسول الله صلى عليه وسلم . إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم ، وتسمعون منهم أذى ، ويهجونكم ، فمن يحمي أعراض المسلمين ؟ فقام عبد الله بن رواحة فقال : أنا . فقال : إنك لحسن الشعر . ثم قام كعب فقال : أنا . فقال : وإنك لحسن الشعر (٢) . وروى عن النبي أنه قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال : وأحسن ، وأمرت حسان فشفي واشتئني (٣) . ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بباب كعب بن مالك ، فخرج فأنشده ، ثم قال : إيه ! فأنشده . ثم قال : إيه ! فأنشده . ثلاث مرات . فقال رسول الله : لهذا أشد عليهم من وقع النبل (٤) .

وقد قام النبي بنفسه على الشعر يشرف عليه ويصلحه . قال لكعب بن مالك في قصيدته (مُجَالِدُنَا عَنْ جِذْمِنَا كُلِّ فَخْمَةٍ) أَيْصَلِحْ أَنْ

(٣) الأغاني ١٥ : ٢٩٠

(٤) الأغاني ١٥ : ٣٠

(١) ابن سلام ٨٧

(٢) الأغاني ١٥ : ٣٠

تقول (مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا) قال : نعم . فقال الرسول : فهو أحسن ^(١) .
وعلم ما يحدث شعر الكفار من أثر في نفوس المسلمين إذا تكرر سماعهم
له ، فنهأهم عن الجلوس إليهم والاستماع لقولهم (وإذا رأيت الذين يَخْضُونَ
في آياتنا فأعرض عنهم حتى يَخْضُوا في حديثٍ غيره . وإِمَّا
يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بعد الذِّكْرِ مع القَوْمِ الظَّالِمِينَ —
الأنعام ٦٨) وأبطل رواية بعض الشعر ، قال صاحب الخزانة إن النبي نهى
عن رواية قصيدة أمية بن أبي الصلت :

(مَاذَا بَبَدِرَ فَالْعَقْنَقِلِ مِنْ مَرَايَةِ جَحَاجِحِ)

التي يحرض فيها قريشا بعد وقعة بدر ^(٢) . وقد رواها ابن هشام ، وأولها .
أَلَا بَكَيْتَ عَلَى الْكِرَامِ بَنِي الْكِرَامِ أُولَى الْمَمَادِحِ .

وقال في آخرها : تركنا منها بيتين ، نال فيهما من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ^(٣) . ونهى عن رواية الشعر الذي هُجِيَ به أصحابه .
قال صاحب الخزانة بعد أن روى أبياتا من قصيدة الأعشى :

شَاقَتِكَ مِنْ قَتْلَةٍ أَطْلَاهَا . . . بِالشَّطِّ قَالُوا تَرِ إِلَى حَاجِرِ

وهي التي يهجو فيها علقمة بن علاثة ، ويمدح ابن عمه عامر بن الطفيل ،
في المنافرة المشهورة التي كانت بينهما . قال بعد أن روى من القصيدة أبياتا :
وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن رواية هذه القصيدة ، ولهذا لم أذكرها
كلها ^(٤) . وأهدر النبي صلى الله عليه وسلم دم بعض الهجائين من المشركين ،
فمن أمر بقتله عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد ، كانت تعيب الإسلام
وتحرض على النبي ، وتقول في ذلك شعرا ، قتلها عمير بن عدى بن

(١) السيرة ٣ : ١٤٣ ، الأغاني ١٥ : ٣٠

(٢) خزائن الأدب ١ : ١٨٢

(٣) السيرة ٣ : ٢١

(٤) خزائن الأدب ٢ : ٣٦٦

خرشة^(١) وكذلك أبو عفك اليهودي ، قتله سالم بن عمير بن ثابت^(٢) ،
وكعب بن الأشرف اليهودي ، كان يهجو النبي وأصحابه ، ويحرض عليهم
كفار قريش في شعره ، ثم خرج إلى مكة بعد بدر ، فجعل يرثي قتلى بدر ،
ويحرض قريشا ، وعاد إلى المدينة ، فقال النبي : اللهم اكفني ابن الأشرف بما
سئت ، في إعلانه الشر ، وقوله الأشعار . ثم قال : من لي بأبن الأشرف ،
فقد آذاني ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا به يا رسول الله ، وأنا أقتله . قال :
فافعل^(٣) . ولما جاءت اليهود للنبي تشكو قتله ، قال لهم ، لو فرر كما قد فر
غيره من هو على مثل رأيه ما اغتيل ، ولكنه نال منا الأذى ، وهجانا
بالشعر ، ولم يفعل ذلك أحد منكم إلا كان السيف^(٤) .

وكان من أمر الرسول بقتله عند الفتح عبد الله بن خطل ، وكانت له
قيتان تغنيان بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمر بقتلهما معا ، فقتلت
إحدهما ، وفرت الأخرى حتى استؤمن لها النبي فأمنها^(٥) . ولم يقف تشجيع
النبي للحركة الأدبية عند الشعراء ، بل تعداهم إلى الخطباء . قال الجاحظ
يُعدّ من الخطباء من الأنصار ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي^(٦) .
وهو الذي تولى الرد على خطيب تميم حين قدموا على النبي يفاخرونه^(٧) .

وقد كان أثر هذه العناية بالدعاية للدين واضحا في نمو فن الهجاء وعنفه ،
ولكنه لم يترك أثرا واضحا في أسلوب هذا الفن ، فقد ظل كما كان جاهليا
في صميمه ، معتمدا على الأنساب ، والتعيير يضعف العصبية ، وخمول الذكر ،
والعجز عن حماية الجار ، والاستسلام للهاجمين من الأعداء ، والقعود عن

(١) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٢ ، السيرة ٤ : ٢٨٦

(٢) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٨ (٣) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٨

(٤) إمتاع الأسماع ١ : ١١٠

(٥) السيرة ٤ : ٥٢ ، المعتمد ١ : ١٠

(٦) السيرة ٤ : ٢٠٧

(٧) البيان والتبيين ١ : ٢٣

الثَّارَ ، إلى أمثال هذه الخصال التي تصور المثل الجاهلية ، ولم يتأثر بالمثل الدينية الجديدة في قليل أو كثير . ولم يحرص النبي على توجيه الهجاء هذه الوجهة الجديدة ، فهو يدل حسان على أبي بكر ، ليعينه في أنساب قريش ، ويدله على عوراتهم . وهو يقول لشعراء المسلمين : قولوا لهم مثل ما يقولون لكم .^(١) ذلك لأنه قصد إلى التأثير في الجماهير ، ولم يكن التعبير بالشرك ، وعبادة مالا يعقل ، ومخالفة الخلق القويم ، ليصنع في هذا المقام شيئاً ، فالهجاء فن يعتمد على الواقع ، وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية كما تصورها العصر . قال صاحب الأغاني . كان يهجو قريشاً ثلاثة نفر من الأنصار يجيئونهم ، حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثل . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم الكفر ، ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر . فكانوا في ذلك الزمان أشدَّ شيء عليهم قول ابن رواحة . فلما أسلموا وفقهوا الإسلام . كان أشدَّ القول عليهم قول ابن رواحة .^(٢) والواقع أننا لا نظفر بالهجاء الديني بالمعنى الدقيق إلا في القرآن .

ونحن لا نأق ي جديد ولا ندعى شيئاً خطيراً ، حين نقول إن في القرآن هجاء . فالعرب أنفسهم نظروا للآيات التي تعرضت لهم ولآلهمم بالتسفيه على أنها هجاء . روى صاحب السيرة أن أم جميل بنت حرب بن أمية قصدت إلى رسول الله ، حين نزل قوله تعالى (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وامرأته حَمَّالَةٌ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) فقالت لأبي بكر : يا أبا بكر ! أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا السفهر فاه .

(١) العقد الفريد ٦ : ١٤٥

(٢) الأغاني ١٥ : ٢٩

أما والله إني لشاعرة ، ثم قالت : مذمماً عصينا . وأمره أئينا . ودينه قكيننا . ثم أنصرفت (١) .

وقال صاحب العقد : قال الله تبارك وتعالى في هجو المشركين (والشُعراء يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا . وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .) فأرخص الله للشعراء بهذه الآية في هجائهم لمن تعرض لهم (٢) .

وروى صاحب السيرة أن سورة براءة ، كانت تسمى في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبعده المُبْعَثِرَة ، لما كشفت من سرائر الناس (٣) .

نقول إن الهجاء الذي لازم الدعوة قد ظل معتمدا على المثل الجاهلية ، وأن الهجاء في القرآن هو وحده الذي يقوم على مثل دينية إسلامية . فهو لا يهدد الكفار بغارة تسيل فيها الدماء ، وتسبى فيها النساء ، ولا يخوفهم بشعر شرود ، يتحدث به الركبان ، ويذيع في كل مكان ، ولكنه ينذرهم نارا وسعيرا ، وعذابا أليما ، وألوانا من النكال ، تنتظرهم حين ينقلبون إلى ربهم . وهو لا يعيرهم الضعف والفقر وخمول الأحساب ، ولكنه يعيرهم الكفر والضلال وقصر النظر وانطاس البصيرة .

فما هُجِيَ به عبد الله بن أبي بن سلول وصحبه من المنافقين ، وكان رأسهم إليه يجتمعون ، وكانوا يدسون إلى بني النضير حين حاصرهم رسول الله ، أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لا نُسكُكم :

(إذا جاءكَ المنافقون قالوا نشهد إنك لرسولُ الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيما نهم جنة

(١) السيرة ١ : ٣٨١

(٢) العقد الفريد ٦ : ١٤٥

(٣) السيرة ٤ : ١٩٩

فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ^(١) ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا فَطَرَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا يَفْقَهُونَ ^(٢) . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ
أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُنْسَدَةٌ ،
يَخْشِبُونَ كُلَّ صَنِيعَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَأَحْذَرَهُمْ ، قَاتِلَاهُمْ اللَّهُ
أَنِّي يُؤْفِكُوكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ
لَوَّارُءٌ وَسْهُمْ ، وَرَأَيْتَهُمْ يُصْذُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ
رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ
الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ^(٣) ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (سورة المنافقون ١ — ٨) .



وَمَا هُجِيَ بِهِ الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرِجِ :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ .
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ^(٤) ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ،

(١) أَى اتَّخَذُوا شَهَادَتَهُمُ لِلرُّسُولِ بِالرَّسَالَةِ وَقَايَةَ لَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ . يَخْلِفُونَ لَكَ لِتُصَدِّقَهُمْ .

(٢) الطَّبَعُ الْخَتَمُ . طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَى خَتَمَ عَلَيْهَا . يَصُورُ قُلُوبَهُمْ فِي عَدَمِ قَبُولِهَا لِلنَّصِيحِ كَأَنَّهُمَا قَدْ
أَغْلَقَتْ وَخَتَمَ عَلَيْهَا ، حَتَّى مَا يَنْفَعُ إِلَيْهَا شَيْءٌ .

(٣) قَالَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سُلُوفٍ فِي غُرُوفَةِ بَنِي الْمُصَلِّقِ .

(٤) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ . صُورَةُ الشَّكِّ الَّتِي فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضًا .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمِ آمِنُوا كَمَا
آمَنَ النَّاسُ ، قَالُوا أَنْتُمْ مَنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَاوُا
إِلَى شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ^(١) . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ
وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ^(٢) . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ
بِالْهُدَى فَارْبَحْتُمْ تِجَارَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ
الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ^(٣) ، صُمُّكُمْ بِكُمْ عُمَى فَهُمْ
لَا يَرْجِعُونَ ^(٤) ، أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ
وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ،
وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا
أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ^(٥) . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ
بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ — بقرة ٨ — ٢٠ .

وما هي به أهل النفاق في يوم الحندق :

(١) وإذا خلا إلى شياطينهم . يقصد بالشياطين أنصار هؤلاء المنافقين من اليهود .

(٢) يعمهم أي يتحIRON والعمه الخيرة .

(٣) أي لا يبصرون الحق . يشبههم بالذي يوقد النار ليهتدي بها ، فلما أضاءت النار عى هو ،

فلم يستفد من ضوئها . وإنما يهتدي بها المبصرون .

(٤) صم بكم عى عن الخير . فهم لا يرجعون إلى الهدى .

(٥) الصيب المطر من صاب يعرب مثل السيد من ساد يهود والميت من مات يموت . هذا مثل

آخر صور به حالهم في كفرهم وحيرتهم وخوفهم من أن ينكشف أمرهم للسليلين فيقتلهم . فهم كالذى
يخبط في هذا الجو الخفيف وقد أظلمت السماء وأرعدت وأبرقت . فانكش واضاً أصابعه في أذنيه لا يدرى
أن يذهب ، لا يكاد يلمع السرق فيسير في ضوءه خطوة أو خطوتين ، حتى يعود الجول إلى حلكته الشديدة
وظلامه المطلق ، فيقف في مكانه حائرًا متخرفًا .

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءكم جنوداً فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعلمون بصيراً ^(١) .
 إذ جاءكم من فوقكم من فوقكم ومن أسفل منكم ^(٢) ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ^(٣) . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فراراً ^(٤) . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئروا الفتنة لآتوها ، وما تكلبشوا بها إلا يسيراً ^(٥) . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأذبار ، وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفذكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذ لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ؟ ولا يجدون

(١) الجنود قريش وغطفان وبنو قريظة . قريش وغطفان ومن تبعهم من أهل نجد يهاجمون المدينة من جهة ، ويهود بنو قريظة وقد نقضوا عهدهم مع الرسول يريدون اغتنام الفرصة للنقض عليها يهاجمونه من جهة أخرى .

(٢) الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة ، والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وغطفان .

(٣) ابتلى المؤمنون امتحن صبرهم وثباتهم . وذلك أن الأمر قد اشتد على المسلمين بخيانة اليهود لهم وحصار عدوهم لبلدهم ، ووقعهم بذلك بين بلاءين ، عدو من الخارج وعدو من الداخل ، وهم الرسول أن يصلح بنو غطفان على تلك ثمار المدينة لولا اعتراض سعد بن معاذ . وعظم بذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وتزعزع إيمان الناس . وظهر النفاق ، حتى قال بعضهم (كان محمد يعدنا أن نأكل كل كنوز كسرى وقصر . وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب للغناط) .

(٤) يصور بذلك تزعزع الإيمان في قلوب المنافقين والمرتابين ، الذين أخذوا يثبطون الناس ، ويستأذنون النبي في الرجوع إلى بيوتهم لحمايتهم . زاعمين أن أهلهم معرضون العدو .

(٥) الأقطار الجوانب واحداها قطر . ولو سئلوا الفتنة أى الرجوع إلى الشرك .

لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ ،
وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ^(١) .
أَشْجَعٌ عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ
أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ^(٢) ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ
بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، أَشْجَعٌ عَلَى السَّخِيرِ . أُولَئِكَ لَمْ يُوْثِقُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ،
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ، يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ^(٣) ، وَإِنْ يَأْتِ
الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْا فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ ،
وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا — الْأَحْزَابُ ٩ إِلَى ٢٠) .

وما هجى به اليهود في إعراضهم عن النبي ، وكانوا يتحدثون قبل ذلك بأن
نبيًا يُبْعَثُ ، قد حان وقته ، فلما جاء كفروا به . وهم هنا يُعَيِّرُونَ عبادتهم
الْعَجَلُ بعد أن جاءهم نبيهم موسى بالبينات ، ثم قتلهم عيسى بعد ذلك ، ثم
مخالفتهم دينهم ، في كَتَحْزُبٍ فريقٍ منهم للأوس ، وتحزب فريق آخر
للخزرج . فهم يقاتلون معهم في حروبهم ، فيفسكون بينهم دماءهم ، ويخرج
بعضهم البعض من ديارهم ، وقد حُرِّمَ عليهم ذلك في كتابهم :

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ، وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ
كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ يَحْزِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ^(٤)) ! وَإِذَا
لَسَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ ، قَالُوا

(١) الْبَاسُ الْقِتَالُ . لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا يَحَارِبُونَ بِغَيْرِ نِيَّةٍ صَادِقَةٍ ، إِقَامَةً لِلْعَذْرِ عِنْدَ مِرَامِهِمْ .

(٢) يَخَافُونَ الْمَوْتَ لَضَعْفِ إِيمَانِهِمْ وَلَأَنَّهُمْ لَا يُوقِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَبِشَوَابِ الْفُهْدَاءِ .

(٣) الْأَحْزَابُ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغُلَامَانِ . انْهَزَمُوا وَتَفَرَّقَ شَتْلُهُمْ ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ

يَتَصَوِّوْنَ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ قَائِمِينَ لَشِدَّةِ ذَعْرِهِمْ . وَشَبَّهَ بِذَلِكَ قَوْلَ جَرِيرٍ :

مَازَلْتُ تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خِيَلًا تَكُرُّ عَلَيْكُمْ وَرَجَالًا

(٤) يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْزِفُونَهُ يَعْنِي التَّوْرَةَ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى قَوْمِ مُوسَى .

أَتَجِدُّونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاسِبَكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ، وَمَا يُعْلِنُونَ! وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ^(١). فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتِيبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ. وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً. قُلْ أَتَتَّخِذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٢)؟ بَلَى! مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ، لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ. ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تَفَادُوهُمْ، وَهُوَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ. أَفَتُؤْمِنُونَ بِغُضِّ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ

(١) لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَى أَمَانِيٍّ : إِلَّا قِرَاءَةً . يَقُولُ لَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَنَّهُمْ يَقْرَأُونَهُ . فَعَلَيْهِمْ بِهِ ظَنٌّ وَلَيْسَ يَقِينًا .

(٢) كَانَ الْيَهُودُ يَقُولُونَ إِنَّ مَدَّةَ الدُّنْيَا سَبْعَةُ آلَافٍ سَنَةٍ . وَإِنَّمَا يُعَذِّبُ اللَّهُ النَّاسَ بِكُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا يَوْمًا وَاحِدًا فِي النَّارِ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ سَبْعَةُ أَيَّامٍ ثُمَّ يَقْطَعُ الْعَذَابَ .

يَبْغِضُ^(١)؟ فَاجْزَأْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وما الله بغافل عما تعملون .
أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ . ولقد آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ،
وَأَتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ^(٢) أَفَكُلَّمَا
جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ؟ فَفَرِّقُوا كَذِبًا
وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ؟ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ^(٣) . بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ، فَتَقَلَّبُوا مَا يَتَذَكَّرُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ
كَفَرُوا^(٤) . فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ .
بَشِّرْ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ، أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، بَغْيًا أَنْ
يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ^(٥)، فَبَاؤُوا بَغْضَبِي عَلَى
غَضَبِي، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ

(١) حرم الله على اليهود في التوراة أن يقتل بعضهم بعضا، وافترض عليهم فداء أسراهم،
ولكنهم خالفوا أمر التوراة، خالف فريق منهم الخرج وحالف فريق آخر الأوس، فكانوا إذا
اقتتل الأوس والخرج قاتلوا معهم، فتسافكوا دماءهم بينهم، مخالفين كتابهم، فاذا وضعت الحرب
أوزارها اقتدوا أسراهم عملا بما في التوراة . والقرآن يبيكهم ويعجب لتناقضهم قاتلا (أتؤمنون
ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) تظاهرون عليهم بالأثم والعدوان أى تعينون عليهم من يشرك بالله
ويعبد الأوثان ممن ليسوا بأهل كتاب ولا أصحاب دين، وهم الأوس والخرج .

(٢) وآتينا عيسى بن مريم البينات من إحياء الموتى، وخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه
فيكون طيرا بأذن الله، وإبراء الأسقام، والخبر بكثير من الغيوب ما يدخرون في بيوتهم .
(٣) قلوبنا غلف أى في غلاف حجة .

(٤) يستفتحون أى يمتنعون . كان الأوس والخرج ظاهرين على اليهود في المدينة . فكان
اليهود يقولون لهم : إن نبيًا سيظهر فنكون معه ونذلكم . فلما تبع الأوس والخرج النبي كفرت به اليهود
(٥) كان اليهود يروجون أن يكون النبي منهم لأنهم أصحاب كتاب . فلما ظهر من غيرهم كفروا به .
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

اللَّهُ ، قالوا نؤمنُ بما أنزلَ علينا ، ويكفرونَ بما وراءَهُ ، وهو الحقُّ مُصدِّقاً لما معهم . قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ من قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) ؟ ولقد جاءكمُ موسى بالبينات . ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٢) . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا . قالوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا . وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . قُلْ بئسَ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

قل إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣) . وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهمْ أَوْحَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٤) . مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ . وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ . أَوْ كَلَّمَآ عَاهَدُوا

(١) يشير إلى قتل اليهود عيسى من قبل . ويبين أنهم أهل شقاق ومكابرة دائما .

(٢) يشير إلى ما فعلوا بعد انصراف موسى عنهم من عبادة العجل ، حين صنع لهم السامرى من الخلى عجلا من الذهب وأغراه بعبادته فاتبعوه مرتدين إلى الكفر . والقصة مذكرة في سورة طه في الآيات ٩٢ — ٩٨ .

(٣) فتمنوا الموت : أى ادعوا بالموت على أى الفريقين هو أ كذب عند الله . ولن يفعلوا ذلك لأنهم يعلمون أنهم كاذبون .

(٤) كان اليهود يقولون للنبي إن جبريل لنا عدو ، فهو ملك إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء . ولولا ذلك لاتبعتك .

عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَمَّا جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَاتَّبَعُوا
مَا تَتَّبِعُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ^(١)، وَلَكِنَّ
الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا، يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ
بَيِّنًا بَلْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ^(٢). وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا
نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ. فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ
وَلَا يَنْفَعُهُمْ. وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ.
وَلِيُنْزِلَ مَا يَشْرُوهُ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ — (البقرة ٧٥ الى ١٠٢).

ومما هجى به يهود بنى قَيْسَ بَنِي قَعْقَاعٍ. وعبدُ الله بنُ أَبِي، في ولائه لهم،
ووقوفه دونهم، حين حاصرهم الرسول، لأنهم حُلَفَاؤُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ:
(يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ، فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ، يَقُولُونَ نَخْشَى
أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ^(٣)، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ،
فِيُضِبِّحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ. ويقول الذين آمنوا أهؤلاء

(١) كان أحبار اليهود يقولون حين ذكر النبي سليمان في المرسلين: ﴿أَلَا تعجبون من محمد؟ يزعم
أن سليمان بن داود كان نبيا! والله ما كان إلا ساحرا.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن هاروت وماروت ملكان عصيا لله تعالى، فعذبهما بأن
علقهما من شعورهما في بئر بابل. فجلا يلعان الناس السحر.

(٣) دائرة أى حادثة تقلب بها الحال وتدور. فيصيرون إلى الذل والهزيمة.

الذين أقسموا بالله جهنم أيمانهم إنهم لمعكم؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (١).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ
يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ،
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَسْتَوْلِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا
مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ . وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِصُمُونَ (٢) مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَ كُمْ فَاسِقُونَ؟ قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً
عِنْدَ اللَّهِ (٣)؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ
وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ (٤) أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ
السَّبِيلِ . وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا ، وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ ، وَهُمْ قَدْ
خَرَجُوا بِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ . وترى كثيراً منهم

(١) حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ بَطَلَتْ . (٢) تَقْصُرُونَ تَكْرَهُونَ .

(٣) بشر من ذلك مثوبة أى ثواباً . والمثوبة فى أصل استعمالها للاحسان ، ولكنها مستعملة هنا
فى معنى العقوبة . وذلك مثل استعمال التبشير فى موضع آخر من القرآن حيث يقول (فبشرهم بعذاب أليم) .
(٤) الطَّاغُوت كل رأس فى الكفر .

يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ^(١) ، لَيْسَتْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَوْلَا يُنَاهِهِمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ^(٢) عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ ! لَيْسَتْ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا^(٣) ! بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا . وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ . وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الْمُفْسِدِينَ . وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَا فِيهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ — (المائدة ٥١ الى ٦٦) .

* * *

هذا أسلوب جديد في الهجاء ، يتميز مما سبق تميزاً واضحاً . فيه أولاً هذا النقاش الذى يحاول إقامة الحجة ، ويلزم الخصم الدليل ، ويظهره بمظهر السفه اللئيم ، أو المكابر المتعجرف ، أو المنافق المتلون .

وهو يسلك فى هذا النقاش سبيلين يختلفان فى أسلوبهما ، وإن كانا ينتهيان إلى غاية واحدة . يناقش حجته تارة بالدليل العقلى وبالمنطق ، فيورد أقوالهم ثم ينقضها عليهم ، مبيناً تفاهتها ، وضعف ما تستند إليه . فيروى مثلاً ما يزعم اليهود من أن الله لا يعذب الناس إلا أياماً معدودة ، بمقدار يوم عن كل ألف سنة ، ثم يسخر منهم ، ويستخف بزعمهم قائلاً : من أين لكم هذا ؟

(١) السحت الحرام والرشوة .

(٢) الربانيون الزهاد ، والأحبار هم العلماء .

(٣) وقالت اليهود يد الله مغلولة أى شحيحة بخيلة .

(أَتَذْخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟) .
ومن أمثلة هذا الأسلوب ما يصور من تناقضهم . فقد حرم عليهم دينهم أن
يقاتل بعضهم بعضا ، وفرض عليهم أن يتعاونوا في اقتداء أسراهم . ومن عجب
أنهم يتقاتلون ويتنابدون ، وقد حرمت عليهم التوراة ذلك ، ثم يفتدون
أسراهم ، إقامة لما أمروا به . ويعقب القرآن على ذلك متعجبا من أمرهم
فيقول (أَفَتُسْأَلُنَا بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَمَا جَزَاءُ
مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؟ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى
أَشَدِّ الْعَذَابِ ؟) ومن أمثلته أيضا ما يروى عن زعمهم أن الدار الآخرة
لهم من دون سائر الناس . ثم يتحداهم أن يسألوا الله إنزال الموت على أى
الفريقين هو أكذب وأضل ، إن كانوا واثقين من أنهم سينقلبون إلى الجنة
بعد الموت . ويعقب على ذلك قائلا (وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) .

هذا أسلوب من النقاش يعتمد على المنطق والعقل . وهناك أسلوب
آخر يعتمد على التاريخ ، يروى منه ما يكسو خصومه العار ، ويصور أن
ضلاتهم وعنادهم ليس بالشئ الجديد . يقول لهم تارة : ألم يأخذ عليكم الله
ميثاقا أن لا تعبدوا غيره ، وبالوالدين إحسانا ، وذى القربى واليتامى
والمساكين ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ؟ ثم
توليتهم إلا قليلا منكم ؟ وتارة يقول لهم : ليس تكذيبكم محمدا ومعاندته بالشئ
الجديد . فقد أرسلنا لكم النبيين من قبل فقتلتموهم . ثم يعقب على ذلك
قائلا (أَفَبِكُلِّ مَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟ فَفَرِيقًا
كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ؟) بل هو يقص عليهم من تاريخهم ما يثبت خلافهم
لنبيهم نفسه ، حين انصرف عنهم إلى حين ، فلما عاد رأيهم عاكفين على عبادة
عجل من ذهب اتخذوه إلها . ثم يقول : فهل كان ذلك مما يأمركم به ماترعمون
لأنفسكم من الإيمان ؟ (قل بئس ما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين)

ويعود إلى التاريخ ، ليستخرج منه فضيحة أخرى لهؤلاء الفسقة المكابرين ، فيروى ما كان من انصرافهم عن كتابهم إلى السحر يتعلمونه ، وقد علموا أنه ضلالة لا يقصد به إلا الشر والإيذاء .

وهذا الأسلوب التاريخي شبيه بما رأينا من اعتماد الهجاء السياسي في ذلك العصر على التاريخ . ولكن القيم التي يعتمد عليها ، تختلف تماما عن القيم التي كان يعتمد عليها ذلك الهجاء . فهذا الهجاء يستخلص من التاريخ ما يصور به سفه هؤلاء القوم ومكابرتهم وضلالهم القديم . أما ذاك ، فهو يستخلص منه ما يصور به الضعف وخمول الآباء والأجداد .

وأحيانا يعتمد القرآن على تصوير الحال ، وإبرازه واضحا مجسما . وله في ذلك مسلكان . فهو تارة يعمد إلى التمثيل ، فيقدمهم في صور ساخرة مضحكة ، وتارة أخرى يلقي الضوء على ما يتآمرون به في الظلام ، ويكشف الستر عما يدبرون في الخفاء ، فيربكهم بإظهار حقيقتهم التي يحرسون على كتمانها ، ويفضح دسائسهم التي يلقون عليها حجابا كثيفة من الرياء والنفاق .

فمن التصوير الساخر قوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو ، فاحذرهم . قاتلهم الله أنى يؤفكون !) إذا مر القارىء بصدر الآية تفاعل خيرا ، ولم ير بأسا . ولكنه لا يكاد يمتضى ، حتى تأخذه المفاجأة القاسية ، بعد هذا الثناء على الأجسام . فالقرآن لا يرضى أن ينزل بهم إلى مرتبة الحيوان . بل هو يسلبهم أدنى قدر من العقل ، فهم جماد لا يحس ولا يعقل . وهم لا يقومون على أرجلهم إلا كما تقوم هذه الخشب ، قد مسفت صفا ، وأسندت إلى جدار . وهم مريون ، يتوقعون في كل لحظة أن ينكشف عنهم الستر فيؤخذوا بذنوبهم . لا يصح صائح إلا أخذ الرعب قلوبهم ، فكانهم هم المقصودون . ثم يوالى القرآن

لطمهم بهذه الجمل القصيرة المتدركة فيقول (هم العدو . فاحذرهم) وتهدأ الآية بعد هذه العاصفة ، وبعد هذه اللطمات المتتالية ، لتختم تلك الصور ، ولتجمل ما فصلت ، بما يشبه حديث المتحدث إلى نفسه (قَاتِلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ !) .

ولعل حسان قد نظر إلى صدر الآية حين قال :

لا بأس بالقوم من طول ومن عرض جسم البغال وأحلام العصافير
ولعل ابن الرومي قد تأثر بها وببيت حسان حين قال :

طول وعرض بلا عقل ولا أدب فليس يحسُنُ إلا وهو مصلوب
ومن قول القرآن (يحسبون كل صيحة عليهم) أخذ جرير قوله :
حملت عليك حماة قيس خيلها شعنا عوابس تحمل الأبطالا
تركوك تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكرر عليكم ورجالا
ومنه أخذ الشاعر قوله :

كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل
يُسَوِّقُ إِلَيْهِ أَنْ كُلَّ ثَنِيَّةٍ تَيَمَّمَهَا تَرْمِي إِلَيْهِ بِقَاتِل
ومن هذا التصوير الساخر تشبيه القرآن المنافقين من الأوس والخزرج ،
وقد أضاء لهم نور الحق في ظلمة الضلال فلم يهتدوا به ، بالذى يلتمس النار
ليتهدى بها ، فلا تكاد تضيء حتى ينطمس بصره ، فلا يدركها ولا يستطيع
الاستفادة منها . (مَشَاهُهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله
ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون . ضُئِمَ بِكُمْ عُمَى ،
فهم لا يَرِجْعُونَ .) ولا يكاد القرآن ينتهى من هذه الصورة ، حتى يقدم
صورة جديدة لما هم فيه من الحيرة والضلال ، وشدة الخوف من أن ينكشف
أمرهم فيأخذهم المسلمون . فهم كالذى يخبط في جوعاصف ، اشتد فيه المطر ،
وأظلمت جوانب الأرض ، وتجاوبت الرعود عاصفة ، فهو يسد آذانه
بأطراف أصابعه ، متوقعا أن تأخذه الصواعق بين لحظة وأخرى . بل هو

هو يود لو جعل كل أصابعه في آذانه ، حتى لا يصل إليه دوى الرعد والخيف...
ويسطع البرق بين الحين والحين ، فينخلع له قلبه ، ويهر عينيه ضَوْؤَهُ
الخلاَّب . ولكنه في حيرته وذهوله ، يخطو مشاقلا في هذه اللحظات
القصيرة من الضوء ، كالذى يبغى الخلاص مما هو فيه من البلاء ، ولكنه
لا يدري إلى أين . ولا يكاد هذا الضالُّ المدعور يخطو خطوة أو خطوتين ،
حتى يعود الجو إلى ظلامه الرهيب ، فيظل في حيرته قائما . (أو كصَيْبٍ
من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق . يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ
الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ . والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم
كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم
وأبصارهم . إن الله على كل شيء قدير .)

أما كشف الستر عن دسائسهم ، وما يدبرون في الظلام ، فسيل القرآن
فيه أن يهتك أسرارهم وما يخفون في أنفسهم ، فيذيع أقوالهم التي يرددونها
في مجالسهم الخاصة من وراء ظهور المسلمين ، ليبين لهم أنه عالم بكيدهم
وما يضمرون . ثم يعقب على أقوالهم بإجابة قصيرة ، تبين جهلهم وانطاس
بصائرهم . ومن أمثلته ما يقول القرآن في عبد الله بن أُبَيٍّ ، وفي أصحابه من
المنافقين الذين يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيَبْطِنُونَ الْكُفْرَ (هم الذين يقولون
لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا .) ثم يعقب على ذلك بقوله
(والله خزائن السموات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون .) ومنه
قوله فيهم (يقولون لننرجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّمِنَا الْأَذَلَّ .)
ويعقب على ذلك بقوله (والله العزة لرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين
لا يعلمون .) ومنه قوله فيهم (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا
خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون .) ثم يعقب على
ذلك بقوله (الله يستهزئ بهم ويمُذِّدْهم في طغيانهم يعمهون .) ومنه

قوله تعالى في تصوير حال المنافقين ، حين اشتد عليهم حصار العدو في وقعة الخندق (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مُقَامَ لكم فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون إن يئوتنا عَوْرةٌ . وما هي بعَوْرةٌ . إن يريدون إلا فرارا .) ويعقب على ذلك بعد أن يمضى في وصفهم بقوله (قل لن ينفعكم الفرار من الموت إن فررتم من الموت . وإذن لا تُمتعون إلا قليلا .) ومنه قوله في المنافقين من اليهود (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض . قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟) ثم يعقب على قولهم هذا ساخرا من تفكيرهم السقيم . فهم لا يريدون أن يناقشوا المسلمين ، حتى لا يتعلموا منهم ما خصَّهم الله به من علم ، فيقيموا به الحجة عليهم عند الله يوم القيامة ! يقول معقبا على هذا التفكير السقيم (أفلا تعقلون ؟ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟) .

وظاهرة أخرى نصادفها في هذا الهجاء القرآني ، هي اعتماده على التهديد والوعيد ، يختم به ما يسوقه من نقاش ، أو يروى من تاريخ ، أو يقدم من صور . فهو إذا بين تناقض اليهود ، إذ يأخذون بعض ما في كتابهم ، ويتركون بعضه الآخر ، ختم ذلك بقوله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ؟ ويوم القيامة يُرَدُّونَ إلى أشد العذاب ؟ وما الله بغافل عما تعملون .) وإذا روى انصرافهم عن كتابهم إلى السحر ، ختم ذلك بقوله (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق . ولست بئسن ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون .) وإذا شَبَّهَهُمْ في خيَرَتِهِمْ بالذئ يسير في جو عاصف ، ورعد قاصف ، ختم ذلك بقوله (والله مُّحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ .) ثم قوله (ولو شاء الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ . إِنْ

الله على كل شيء قدير .) وإذا شبههم بالخشب المسندة ،
ختم ذلك بقوله (هم العدو ، فاحذرهم . قاتلهم الله أنى
يؤفكون) .

هذه جملة من خصائص الأسلوب الهجائي فى القرآن . وهى تلتقى من
من بعض النواحي مع أسلوب الهجاء السياسى فى الشعر ، مثل اعتمادها على
التاريخ ، وعلى التصوير والتهديد . ولكنها تخالف كل ما عرف العرب ،
فى نظمها ، وفى ما تستند إليه من قيم أخلاقية واجتماعية جديدة .

حسان

شهرة حسان في الأدب العربي تستند إلى أنه شاعر النبي . وأكثر ما يعرف الناس عنه دفاعه عن الدعوة الإسلامية ، وشعره الكثير في هجاء من ناهضها . والواقع أن حسان لم يدخل في الإسلام إلا وقد أسن وفارقه شبابه . فقد عاش فيما يحدثنا الرواة ستين سنة في الجاهلية ، ومثلها في الإسلام . وهذا خبر قد لا يخلو من المبالغة والتزديد ، ولكنه لا يبعد كثيرا عن الحقيقة . فهو إذن لم يبدأ حياته الإسلامية ، إلا وقد مضى الشطر الخصب المحبب إلى النفس من عمره .

وُلِدَ حسان بمدينة يثرب ، في بيت من أعرق بيوت بني النجار — وهم من أظهر بطون الخزرج — قبل مبعث النبي بنحو من أربعين عاما . ونشأ والنزاع بين الأوس والخزرج قديم . يرجع إلى عهد جده المنذر بن حرام ، الذي حاول أن يصلح بين الحيين . وكان لبني النجار خاصة في هذا النزاع شأن ظاهر . وقد اشتهر أمر حسان في هذه الأيام بشعره القوي ، الذي سجل فيه مفاخر قومه ، مشيدا بنصرهم ، فكان على رأس شعراء الخزرج ، بينما كان قيس بن الخطيم في طليعة شعراء الأوس . ولكن هذا كان يشارك بسيفه ولسانه ، أما حسان فقد قنع بالشعر ، ولم نعرف أنه أخذ بنصيب من القتال في هذا النضال . ولعل حسان كان يعرف من نفسه أنه على الهجاء والشعر ، أقدر منه على القتال ، حين قال :

لساني وسيفي صارمان كلاهما وَيَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ السِّيفُ مَذْدُودِي^(١)
وحين يقول في موضع من شعره :

(١) مذوده لسانه الذي يذود به ، أي يدفع به عن نفسه وعن قومه .

لِكُلِّ أَنَاسٍ مَيَسَّم يَعْرِفُونَهُ وَمَيَسَّمُنَا فِينَا الْقَوَافِي الْأَوَابِدُ (١)
 مَتَى مَا نَسِم لَا يُنْكَرُ النَّاسُ وَسَمْنَا وَنَعْرِفُ بِهِ الْمَجْهُولَ مِنْ تُكَادُ
 تَكَاوُحُ بِهِ تَعْشُو إِلَيْهِ وَسُومُنَا كَمَا لَاحَ فِي سُمُرِ الْمَتَانِ الْمَوَارِدُ (٢)
 فَيَشْفِينُ مَنْ لَا يُسْتَطَاعُ شِفَاؤُهُ وَيَسْقَيْنُ مَا تَبَقِيَ الْجِبَالُ الْخَوَالِدُ (٣)
 وَيُشْقِقِينَ مَنْ يَغْتَالِثُا بَعْدَاوَةً وَيُسْعِدُنْ فِي الدُّنْيَا بَنَا مِنْ نُسَاعِدُ
 إِذَا مَا كَسَرْنَا رُمُحَ رَايَةِ شَاعِرٍ يَجِيْشُ بِنَا مَا عِنْدَنَا فَنُعَاوِدُ (٤)
 وَمِنْذَ أَحْسَ حَسَانُ بِمَوَاهِبِهِ ، وَعَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ مَكَانَهُ فِي الشَّعْرِ ، رَحَلَ
 إِلَى الْغَسَّاسَةِ ، مَتَكْسِبَا عِنْدَهُم بِالْمَدْحِ ، مَتَقَرَّبَا إِلَيْهِمْ بِنَسْبِهِ فِي الْيَمِينِ . وَفِي رُبُوعِ
 الشَّامِ ، وَبَيْنَ جَنَانِهَا وَقُطُوفِهَا ، وَعَلَى ضَفَافِ بَرَدَى ، وَفِي أَحْضَانِ الْجِبَالِ
 الْخَضْرَاءِ الْمَلِكَةِ بِالثَّلُوجِ ، قَضَى حَسَانُ أَجَلَ فُتْرَاتِ حَيَاتِهِ ، مَطْمَئِنَّا إِلَى هَذِهِ
 الْحَيَاةِ الْمُرْتَفَةِ النَّاعِمَةِ ، مَفْتُونَا بِالْمَنَاظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ السَّاحِرَةِ ، الَّتِي لَا عَهْدَ لَهَا بِهَا
 فِي الْجَزِيرَةِ الْقَاحِلَةِ ، وَقَدْ أَطْلَقْتَ الْخَمْرُ لِسَانَهُ ، وَرَقَّقَ الْجَمَالَ حَسَّهُ ، فَسَخَتْ
 نَفْسُهُ بِأَحْسَنِ مَا قَالَ مِنْ شَعْرِ ، وَوَصَلَهُ الْغَسَّاسَةُ بِأَجْزَلِ مَا نَالَتْ يَدَاهُ
 مِنْ صَلَاتٍ .

وامتدت هذه الفترة الجميلة من حياته ، فلم تنته إلا بدخوله في الإسلام ،
 وقد جاوز الشباب ، فبلغ الستين فيما يحدثنا الرواة ، أو قارب الخمسين على
 أقل تقدير كما يحدثنا هو نفسه بذلك في بعض شعره الغساني ، من قصيدة له
 يبدأها بقوله :

-
- (١) الميسم في الأصل المكواة الذي تومس به الدواب . وقد يسمى أثر الومس ميسما أيضا .
 وهو يقصد هنا الشعر وأثره الباقى في المهجو ، كأنه أثر الكى لا يزول .
- (٢) تلوح به تبدو وتظهر . تعشوا إليه تقصد وتتبعه أينما وجد . عشا النار وعشا إليها رآها ليلا
 من بعيد فقصد إليها . سمر اللتان الرماح . الموارد جمع موردة أى الموارد المملكة .
- (٣) يقول إن هذه القوافي الأوابد تشقى من الجهل من لا يستطيع شفاؤه ، أى تردده عن
 التماذى في عداوتنا .
- (٤) الجيشان صوت الغليان والاضطراب الذى يصحبه .

تَطَاوَلَ بِالْحَمَانِ^(١) لَيْلِي فَلَمْ تَكْدُ تَهْمُ هَوَادِي نَجْمِهِ أَنْ تَصَوَّبَا
أَيَّتُ أُرَاعِيهَا كَأَنِّي مُوَكَّلٌ بِهَا لَا أُرِيدُ النُّومَ حَتَّى تَغَيَّبَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

وَكِدْتُ غَدَاةَ الْبَيْنِ يَغْلِبُنِي الْهَوَى أَعَالِجُ نَفْسِي أَنْ أَقُومَ فَأَرْكَبَا
وَكَيْفَ وَلَا يَنْسَى التَّصَابِي بَعْدَمَا تَجَاوَزَ رَأْسَ الْأَرْبَعِينَ وَجَرَّبَا
وَقَدْ بَانَ مَا يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ وَاكْتَسَتْ مَفَارِقُهُ لَوْ نَأْمَنُ الشَّيْبَ مُغْرَبَا
وَلَكِنْ هَذِهِ السَّنِينَ الطَّوَالَ مَرَّتْ سَرَاعًا كَالْحَلَمِ ، وَكَأَنَّ هَذَا الْعَهْدَ وَقَدْ
تَقَطَّعَ وَتَصَرَّمَ لَمْ يَكُنْ .

فَلَبِثْتُ أَزْمَانًا طَوَالًا فِيهِمْ ثُمَّ أَدَّكَرْتُ كَأَنِّي لَمْ أَفْعَلِ^(٢)
كَانَ شَعْرُ حَسَانٍ فِي هَذَا الْقِسْمِ الطَّوِيلِ مِنْ حَيَاتِهِ صُورَةٌ حَيَّةٌ لِلْجَمَالِ
الَّذِي اسْتَخَفَّ نَفْسَهُ ، وَالنَّعْمَةُ الَّتِي غَرِقَ فِيهَا حَسَهُ وَمَشَاعَرَهُ ، فَجَاءَ مَغَايِرَا
لِكُلِّ مَا نَعْرِفُ مِنَ الشَّعْرِ الْجَاهِلِي . جَاءَ قِطْعَةٌ مِنْ هَذِهِ الْجَنَانِ الظِّلِيلَةِ الْحَامِلَةِ ،
بَعِيدًا كُلَّ الْبَعْدِ عَنْ رَمَالِ الصَّحَرَاءِ الْمُضَلَّةِ ، وَجِبَالِهَا الْغَبْرَاءِ الْعَابِسَةِ .

هَذِهِ هِيَ الْعَيْسُ تَحْمِلُ صَاحِبَتَهُ النَّاعِمَةَ شَعْنَاءَ ، وَقَدْ اكْتَسَتْ الرِّيْطَ ،
وَبَدَأَ وَجْهَهَا الْأَبْيَضُ الْجَمِيلُ كَالسَّبَرْدِ النَّاصِعِ ، يَتَرَاءَى مِنْ خَلْفِهَا جَبَلٌ قَدْ
كَسَاهُ الثَّلَاجُ ، وَانْتَثَرَتْ مِنْ فَوْقِهِ قِطْعُ السَّحَابِ .

انْظُرْ خَلِيلِي بَيْطُنِ جِلَاقٍ هَلْ تُؤْنِسُ دُونَ الْبَلَقَاءِ مِنْ أَحَدٍ^(٣)

(١) الحمان قرية قريبة من دمشق . هوادي النجوم أوائلها . تصوبها غروبها .

(٢) ما هنا زائدة . والمعنى إن ترى رأسي تغير لونه . الشمت يبيض شعر الرأس بخالطه السواد
الغمام يفتح الثاء . بت يبت في الجبال يكون أخضر ثم يبيض إذا دبس . وله سمة غليظة ولا
ينبت إلا في قنة سوداء ولذلك شبه به الشيب .

(٣) موعده أعداؤه . قصر دومة هو حصن دومة الجندل ما بين الحجاز والشام كان لا كيدر
النسكوني الذي قتله خالد بن الوليد . سواء الهيكل وسطه . والهيكل بيت النصارى يعظمونه .

(٤) ادكرت تذكرت ما كنت فيه فوجدت كأنه شيء لم يكن ولم يبق إلا الأحاديث والذكر .

(٥) جلق اسم لكورة الغوطة أوهى دمشق نفسها أوقرية من قراها . اللقاء كورة من أعمال دمشق .

جَمَالُ شَعْنَاءٍ وَقَدْ هَبَّ طَنْ مِنَ الْمَحْ
يَحْمِلُن حُورًا مَدَامِيعَ فِي الرِّيطِ وَيَبِضُّ الْوَجْهَ كَالْبَرْدِ (١)
مِنْ دُونَ بُصْرَى وَخَلَفَهَا جَبَلُ الشَّدِّ رَجَّحَ عَلَيْهِ السَّحَابُ كَالْقَدِّ (٢)
ثُمَّ يَمْضَى فَيَقْسِمُ لَهَا رَبُّ الْإِبِلِ ، وَمَا قَطَعْتَ مِنْ مَفَاوِزَ بَعِيدَةَ الْأَرْجَاءِ ،
مَوْعِرَةَ الْمَسَالِكِ ، وَمَا قَرُبْتَ لِمَنْ حَرَّهَا الْبُذْنُ (٣) ، أَنَّهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ
غَيْدِهِ ، وَلَمْ يَحْبِبْ كَحَبِّهَا أَحَدًا . وَيَحْلُو لَهُ أَنْ يَتَذَكَّرَ حَدِيثَ صَاحِبَتِهِ ، حِينَ
كَانَتْ تَنْهَاهُ عَنِ الْإِكْثَارِ مِنَ الْخَمْرِ وَالْغُلُوِّ فِيهَا .
تَقُولُ شَعْنَاءُ لَوْ تَفِيقُ مِنَ السَّكَا سَ لَا لَفِيَتْ مُثْرَى الْعَدَدِ
ثُمَّ لَا يَجِدُ مَا يَعْتَدِرُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ فِي بَسَاطَةِ مَوْثَرَةٍ ، مَلُؤَهَا
الْحَزِينُ الْمُسْتَسْلِمُ لِلذَّةِ .

أَهْوَى حَدِيثَ الشَّدِّ مَانَ فِي فَالِقِ الصَّبْحِ وَصَوْتَ الْمُسَامِرِ الْغَرْدِ



وهذه هي دور الغساسنة ، قد تعلقت بأعلى الجبال ، تحوطها الثلوج التي
تتساقط من حولها ، حتى تتجمع فتتدافع إلى الوديان ، تُذَرَى بِالْأَشْجَارِ ،
وقد نبتت الكروم في الأفنية والساحات ، فوق هذه المنحدرات . أين هذه
الجبال التي جعلها الله ، من صحراء العرب الموحشة ، تضرب فيها الشاء ،
يتتبع رعاؤها مواقع السيل !

أَجِدْكَ لَمْ تَهْتَجِ لِرَسْمِ الْمَنَازِلِ وَدَارِ مَلُوكٍ فَوْقَ ذَاتِ السَّلَاسِلِ (٤)

(١) شَعْنَاءُ صَاحِبَتُهُ وَالْمَحْبِسُ وَالسَّنْدُ مَوْضِعَانِ .

(٢) الْحَوَّةُ سِمَةٌ الشَّفَةِ وَكَانُوا يَحْجُونَ فِي الشَّفَةِ أَنْ يَضْرِبَ لَوْنُهَا إِلَى السَّوَادِ . الْحَوْرُ اشْتِدَادُ بَيَاضِ
الْعَيْنِ وَسَوَادُهَا . الرِّيطُ جَمْعُ رِبْطَةٍ وَهِيَ الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ اللَّيْنُ الرَّقِيقُ .

(٣) بَهْرَى قَرْيَةٌ مَعْرُوفَةٌ بِالشَّامِ بَاقِيَةٌ لِلَّانِ . الْقَدْدُ جَمْعُ قَدَةٍ وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ .

(٤) الْبُذْنُ جَمْعُ بَذْنَةٍ وَهِيَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ كَالْأَخْيَةِ مِنَ الْغَنَمِ تَهْدَى إِلَى مَكَّةَ .

(٥) أَجِدْكَ يَعْنِي أَجِدُ هَذَا مِنْكَ ؟ ذَاتُ السَّلَاسِلِ مَوْضِعٌ .

تجود الثمر يافوقها وتضَمَّنَتْ لها برداً يُذْرى أصول الأسافل^(١)
 إذا عذراتُ الحى كان تتاجها كروماً تدلى فوق أعرف مائل^(٢)
 دياره زهاها الله لم يغتَلِجْ بها رِعاءُ الشورى من وراء السوائل^(٣)
 وهو يشبه ريق صاحبه شعناء بخمر الشام أو تفاحة آونة حين يقول :
 لشعناء التى قد تيمَّنته فليس لقلبه منها شفاء
 كأن سبيشةً من بيتِ رأسٍ يكون مزاجها عسلٌ وماء^(٤)
 على أنيابها أو طعم غصٍ من التفاح هصره الجناء^(٥)
 ويشبهه آونة أخرى بخمر الشام ، قد عتقت فى الخيام ، ثم
 شُجَّتْ بغدير بارد يجرى فى ظل الجبل ، مسترقاً بين الحجارة المتراسة ،
 وقد أظله الغمام .

جنيةً أرقنى طيفها تذهبُ صُبحاً وتُرى فى المنامِ
 هل هى إلا ظيئةٌ مُطفِلٌ مألُفها السدرُ بنعفى برام^(٦)
 تزجى غزالاً فأتراً طرفه مقارب الخطو ضعيف البغام^(٧)
 كأن فاهها ثغبٌ بنارد فى رصفٍ تحت ظلال الغمام^(٨)
 شُجَّتْ بصهباء لها سورة من يبتِ رأسٍ عتقت فى الخيام^(٩)

(١) يقول إن المطر الذى يسقط من نوء الثريا — وهو نجم — قد تضمن برداً يعصف بالشجر .

الأسافل أسافل الأودية

(٢) عذرات الحى أفنتها وساحتها . أعرف مائل جبل مرتفع قائم منتصب

(٣) زهاها الله جمها وزينها . اعتلج القوم اصطرعوا وتقالتوا . الشوى جمع شاة . السوائل جمع سيل .

(٤) السبيشة الخمر سميت بذلك لأنها تستبى أى تشتربى . بيت رأس موضع بالأردن مشهور بالخمر

(٥) هصره الجناء أماله . يصف التفاح بأنه قد نضج . الجناء الجنى وهو كل ثمر يجنى لنضجه

(٦) ظيئة مطفل أى معها طفل . ولذلك فهى وادعة هادئة يتمثل فيها الخان . برام واد . نغاف جانباة .

(٧) يستمرق وصف هذه الظيئة المطفل التى يشبه بها صاحبه . تزجى تسوق . البغام صوت الظيئة .

(٨) الثغب بفتحات الغدير فى ظل جبل لاتبصيه الشمس فيرد ماؤه . الرصف الحجارة . المتراسة المتدانية .

(٩) شجت مزجت . الصهباء الخمر . السورة الحدة .

عَشَّقَهَا الحانوتُ دَهْرًا فَقَدَ مَرَّ عَلَيْهَا فَرَطُ عَامٍ فَسَعَامُ (١)
 ونمضى مع الشاعر بعد ذلك ، وقد نسي صاحبتَه ، وهام في أحلام المثل
 النشوان . فهو يشرب الخمر صرفا تارة ، ومزوجة أخرى ، ثم ينطلق وقد
 استخفته ، مغنيا في قصور شيدت من رخام ، تدب في جسمه ديب النمل
 في كшиб من رمال . خمرٌ تحطُّ من الشيخ شيخوخته ، وما أوقره من
 أنقال كهولته ، فيرتد غلاما عابثا لاهيا . وكيف لا ترد الشيخ غلاما ، وهى
 من خمر ييسان ، وقد تخيرها حسان ، فهى كالترياق للأحزان ، تسرع فتر
 العظام ! وهذا هو الساقى ، يسعى إليه بها في لباسه الأحمر ، وقلنسوته
 الطويلة ، وقد شد وسطه بحزام ، وتضمخ بالطيب خلف أذنيه ، وقد وقف
 وكل انتباهه للشرب ، يخف للدعوة عند أدنى حركة ، ملييا في خفة ونشاط .
 نَشَرَبُهَا صِرْفًا وَمَزُوجَةً ثُمَّ نُسَعِّي فِي بُيُوتِ الرُّخَامِ
 تَدِبُ فِي الْجِسْمِ دَيْبًا كَمَا دَبَّ دَبًّا وَسَطَ رَقَاقٍ هَيَامُ (٢)
 كأسا إذا ما الشيخ والى بها خَمْسًا تَرَدَّى فِي رِءَاءِ الْغَلَامِ
 من خمر ييسان تخيرتها تَرِيقَةً تَسْرَعُ فَتَسْرَعُ الْعِظَامُ
 يسعى بها أحمر ذو برنس مَخْلَقُ الذَّفْرِى شَدِيدُ الْحِزَامِ (٣)
 أروع للدعوة مُسْتَعْجِلٌ لَمْ يَثْنِهِ الشَّأْنُ خَفِيفُ الْقِسَامِ
 ويصف الخمر في مجلس صالح بن علاط ، أحد أشراف بني سليم ، وقد
 أحاط به شرب كرام ييض الوجوه ، تفرقت بينهم القيان النواعم ، في

(١) الحانوت الخمار الذى يبيع الخمر ، أو بيته .

(٢) الدبا أصغر النمل . رقاق هيام يقصد رملا مستويا . يشبه ديب الخمر في الجسم بدبيب
 النمل في الرمال . ومنه أخذ الأخطل قوله

تدب ديبا في العظام كأنه ديب نمل في نقي يهمل

(٣) الذفري العظم الشاخص خلف الأذن وهو أول ما يعرق من الانسان . يقول إن هذا الموضع

مطل بالخلق وهو ضرب من الطيب

ثياهن البيض الرقاق ، وقد خفق الشرطان^(١) في السماء آخر الليل ، ودارت عليهم الخمر النبطية الخالصة ، حمراء تضرب للسواد . ودعا صالح بن علاط بقيانه ، فانطلقن في العزف ، بين سكون وتثن ، كأنهن الظباء وقد أوين للكناس ، أو ثنين الجيد متطاولات ، يتناولن من أوراق الأشجار . ثم طفن بين الشرب بالكئوس ، فوق بسط رقيقة الخمل ، مهدت للجالسين . حتى إذا استخفهم الشراب ، أمر صالح بجواريه ، فتفرقن بين الندماء بددا ، يستمتعون منهن بما يشاءون .

رُبَّ لَهْوٍ شَهِدْتُهُ أُمَّ عَمْرٍو	بين بيضٍ نواعيمٍ في الرِّياطِ
مَعَ نَدَامَى بِيضِ الْوَجْهِ كَرَامٍ	نُبِّهُوا بَعْدَ خَفَقَةِ الْأَشْرَاطِ
لَكَمْ كَيْسَتْ كَأَنَّهَا دَمٌ جَرَفٍ	عُتِّقَتْ مِنْ سُلَافَةِ الْأَنْبَاطِ
فَاحْتَوَاهَا فَتَى يُهِنُ لَهَا الْمَا	لَ وَنَادَمْتُ صَالِحَ بْنَ عَلَاطِ
ظَلَّ حَوْلِي قِيَانُهُ عَازِفَاتٍ	مِثْلَ أَدَمِ كَوَانِسٍ وَعَوَاطِ ^(٢)
طُفْنٍ بِالْكَأْسِ بَيْنَ شَرَبِ كَرَامٍ	مَهَّدُوا خُرَّ صَالِحِ الْأَتْمَاطِ
سَاعَةً ثُمَّ قَالَ هُنَّ بِدَادٌ	بَيْنَكُمْ غَيْرَ سُمْعَةٍ الْإِخْتِلَاطِ

ومن أجمل ما وصف به الشارب ، وقد أثقلته الخمر ، حتى قتر ، وخفت صوته ، وجفَّ حلقه ، فتوقف عن الشراب ، ومضى هو يلح عليه مقبها أن يستزيد منه .

وَمُسْتَرْقِ الشُّخَامَةِ مُسْتَكِينٍ	لَوْ قَعِ الْكَأْسِ مُخْتَلِسِ الْبَيَانِ
حَلَفْتُ لَهُ بِمَا حَجَّتْ قَرِيشَ	وَكُلِّ مَشْعَشَعٍ مِ الْخَمْرِ أَنْ

(١) الشرطان نجبان

(٢) آدم كوانس وعواط أي ظباء مستكنة في الكناس وهو البيت الذي تتخذ في أصول الأشجار . عواط من العطو وهو التناول وذلك حين ترفع يديها لتناول من الشجر بفمها . يشبهن في رقصهن وتثنيهن بالظباء في هاتين الحاليتين .

لَتَصْطَبِحَنَّ وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهَا وَلَوْ أَنِّي بِحَيْبَتِهِ سَقَانِي ^(١)
فَطَافَتْ طَوَفَتَيْنِ فَقَالَ زِدْنِي وَذَبْتَ فِي الْأَخَادِعِ وَالْبَنَانِ ^(٢)
فَلَمْ أَعْرِفْ أَخِي حَتَّى اصْطَبَحْنَا ثَلَاثًا فَأَنْبَرِي خِذِمَ الْعِنَانِ ^(٣)
فَلَانَ الصَّوْتُ فَأَنْبَسَطْتُ يَدَاهُ وَكَانَ كَأَنَّهُ فِي الْغُلِّ عَانِ
وَرَأَى ثِيَابَهُ الْأُولَى سَوَاهَا بَلَا يَسْعُ أَمِيمٌ وَلَا مُهَانِ

كانت هذه الفترة هي اللب الخالص من حياة حسان الفنية ، أنشأ فيها أجمل شعره في الغزل والخمر والمدح والفخر . وكان مخلصاً في مدحه لآل غسان ، لأنه كان متعصباً ليمينته ، فهو يراهم أهلـه وعشيرته ، ومادة فخـره ، وموضع اعتزازه واعتداده ، ولأنه قد أحب الشام ، وتعلق بكل ما فيها . انظر إليه كيف يذكـرهم مفتخراً في قصيدته .

أَجْمَعَتْ عَمْرَةَ صِرْماً فَأَبْتَكِرُ إِنَّمَا يُدْهِنُ لِلْقَلْبِ الْحَصْرُ
حِينَ يَفْتَخِرُ بِنَفْسِهِ وَبِقَوْمِهِ ، فيقول — مشيراً إلى ما كان لهم من مجد قديم . أزاله الدهر الذي لا يؤمن —
مَنْ يَغُرُّ الدَّهْرُ أَوْ يَأْمَنُهُ مِنْ قَبِيلٍ بَعْدَ عَمْرِو وَحُجْرٍ
مَلَكًا مِنْ جَبَلِ الثَّلْجِ إِلَى جَانِبِ أَيْلَةٍ مِنْ عَبْدِ وَحُرٍ
ثُمَّ كَانَا خَيْرَ مَنْ نَالَ النَّدَى سَبَقَا النَّاسَ بِإِقْسَاطِ وَبِرٍ
ويعمى في الإشادة بهم . فيذكر غزوهم للفرس ، وصبرهم على قتالهم . ويختم ذلك بأن يخلط نفسه وقومه بهم ، فيقول إنهم يصبرون في القتال ، لأن من شيمة قومي الصبر .

(١) الاصطباح شرب الخمر صباحاً . الحية الحال . يقول لو كنت مكانه وفي حاله لسقاني كما أسقيه أنا الآن .

(٢) ذبت أسرع . الأخدعان عرقان في جانبي العنق قد خفيا وعلنا . والأخادع الجمع .

(٣) خذم منقطع ، يريد أنه أكثر الكلام والهدر لما سكر وخلع عذاره

ولقد يَعْلَمُ مَنْ حَارَبَنَا أَنَّا نَنْفَعُ قَدَمًا وَنَضُرُّ^(١)
صَبْرُ^(٢) الهوت إنَّ حَلَّ بِنَا صادقوا بالبأسِ غَطَارِيفٌ فُخْرُ^(٣)
وأقام العِزُّ فِينَا والسَّخْيُ فَلَنَّا مِنْهُ عَلَى النَّاسِ الْكُبْرُ^(٤)
مِنْهُمْ أَصْلِي^(٥) فَمَنْ يَفْخَرُ بِهِ يَعْرِفُ النَّاسُ بِفَخْرِ الْمُفْتَخَرِ^(٦)
فحسان إِذْنِ حِينَ يمدح آل غسان ، لا ينسى نفسه وعشيرته ، فهو يراهم
أهلاً وأبناء عم ، تجمع بينهم اليمينية . وقد كانت هذه القرابة مادة خصبة
لفخره واعتداده بنفسه وقومه ، وداعية إلى رضاه عن نسبه واعتزازه به .
فأكثر من الفخر والمباهاة ، أقوى ما يكون الفخر ، وجمع في آن واحد بين
شخصيتين ، شخصية شاعر البلاط عند الغساسنة ، وشاعر الوطن السياسي
بين قومه . ومن أحسن ما قال في الغزل والفخر في هذا الطور قصيدته :

لِمَنْ مَنَزَلٌ عَافٍ كَأَنَّ رُسُومَهُ خِيَاعِيلٌ رَيْطُ سَابِرِيٍّ مُرْسَمٍ^(١)
خَلَاءُ الْمَبَادِيءِ مَا بِهِ غَيْرُ رُكْدٍ ثَلَاثٌ كَأَمْثَالِ الْحَمَائِمِ جُشَمٍ^(٢)
وغيرُ شَجِيجٍ مِثْلٍ حَالَفِ الْبِلَى وَغيرُ بَقَايَا كَالسَّحِيقِ الْمُنْمَمِ^(٣)
تَعْلُ رِيَّاحُ الصَّيْفِ بِالْيَ هَشِيمِهِ عَلَى مِثْلِ كَالْحَوْضِ عَافٍ مُثَلَّمٍ^(٤)
كَسْتُهُ سَرَايِلُ الْبِلَى بَعْدَ عَهْدِهِ وَجُونٌ سَرَى بِالْوَالِ بِلِ الْمُهْتَزِّمْ^(٥)
وَقَدْ كَانَ ذَا أَهْلٍ كَبِيرٍ وَغِبْطَةٍ إِذِ الْحَبْلُ حَبْلُ الْوَصْلِ لَمْ يَنْصَرِّمْ^(٦)
وَإِذَا نَحْنُ جَيْرَانٌ كَثِيرٌ بَغِبْطَةٍ وَإِذَا مَا مَضَى مِنْ عَيْشِنَا لَمْ يُصَرِّمْ^(٧)

(١) خيا عيل جمع خيل وهو درع يحاط أحد شقيه بلبسه المرأة كالقميص . الریط الثياب اللينة .
السابري من الثياب الرفاق نسبة إلى سابور

(٢) المبادئ الظواهر . ركد ثلاث يقصد بها الأثافي وهي الأحجار التي نصب عليها القدر يشبهها
ثلاث حمام يبيض جامعة .

(٣) يريد بالشجيج الوتد . مائل قائم منتصب . السحيق الثوب الخلق الذي انسحق وبلى . المنمم المخطط

(٤) الهشيم الثيت اليابس المتكسر . يقول إن الرياح تعناده مرة بعد مرة . مائل بارز قائم يقصد
النوى وهو الحوض الصغير الذي يتخذ حول الحياء لدفع المطر عنه وتصريفه .

(٥) الجون السحاب الأسود . الوابل أشد المطر . يقول إن هذه الرياح وتلك الأمطار أبليت

وَكُلُّ حَشِيثٍ الْوَدَقِ مُنْبَعِقِ الْعُرَى مَتَى تُزْجِهَ الرِّيحُ الْوَوَاقِحَ يَسْجُمُ (١)
 ضَعِيفِ الْعُرَى دَانٍ مِنَ الْأَرْضِ بَرَكُهُ مُسِفٌ كَمَثَلِ الطُّودِ أَكْظَمُ أَسْحَمُ (٢)
 فَإِنْ تَكْ لَيْلَى قَدْ نَأَتْكَ دِيَارُهَا وَضَنْتْ بِحَاجَاتِ الْفَوَادِ الْمُتَيْمِ
 وَهَمَّتْ بِصُرْمِ الْحَبْلِ بَعْدَ وَصَالِهِ وَأَصْغَتْ لِقَوْلِ الْكَاشِحِ الْمُتَزَعِّمِ
 فَمَا حَبَلُهَا بِالرَّثِّ عِنْدِي وَلَا الذِّى يُغَيِّرُهُ نَأَى وَإِنْ لَمْ تَكْ كَلَمِ
 لَعَمْرُ أَئِيكَ الْخَيْرِ مَا ضَاعَ سُحْرُكُمْ لَدَى فَتَجْزِينِي بَعَادًا وَتَضَرِّمِي
 وَمَا حَبُّهَا لَوْ وَكَلْتَنِي بِوَصْلِهِ وَلَوْ صَرَّمُ الْخِلَآنِ بِالْمُتَصَرِّمِ
 وَلَا ضَقْتُ ذُرْعًا بِالْهَوَى إِذْ ضَمِنْتُهُ وَلَا كَظْ صَدْرِي بِالْحَدِيثِ الْمَكْتُمِ (٣)
 وَلَا كَانَ مِمَّا كَانَ مِمَّا تَقْوَلُوا عَلَى وَتَشْوَا غَيْرَ ظَنْ مُرْجَمِ (٤)
 فَإِنْ كُنْتُ لِمَا تَخْبِرُنِي فَسَائِلِي ذَوِ الْعِلْمِ عَنَّا كَيْ تُنَبِّىَ فِتْعَالِي
 مَتَى تَسْأَلِي عَنَّا تُنَبِّىَ بِأَنْبَا كِرَامٍ وَأَنَا أَهْلُ عِزٍّ مُقَدَّمِ
 وَأَنَا عَرَانِينَ صُقُورٌ مَصَالَتٌ نَهْزُ قَنَاةً مَتْنَهَا لَمْ يُوصَمِ
 لَعَمْرُكَ مَا الْمُعْتَرُ يُأْتِي بِلَادَنَا لَنَمْنَعَهُ بِالضَّائِعِ الْمُتَهْضَمِ (٥)
 وَمَا السَّيِّدُ الْجَبَّارُ حِينَ يَرِيدُنَا بِكَيْدٍ عَلَى أَرْمَاحِنَا بِمُحَرَّمِ
 وَلَا ضَيْفُنَا عِنْدَ الْقِرَى بِمُدْفَعِ وَلَا جَارُنَا فِي النَّائِبَاتِ بِمُسْلَمِ
 تُبْسِیحُ حَمِي ذِي الْعِزِّ حِينَ نَكِيدُهُ وَنَحْمِي حَمَانَا بِالْوَشِيحِ الْمُقَوِّمِ
 وَنَحْنُ إِذَا لَمْ يُبْرَمِ النَّاسُ أَمْرَهُم تَكُونُ عَلَى أَمْرِ مِنَ الْحَقِّ مُبْرَمِ

(١) الودق المطر . الخيث السريع . منبعق العرى كثير الصب . تزجيه الريح تسوقه . يسجم

يسيل وينصب

(٢) ضعف عراه كناية عن تحله بالماء ، بركه معظمه وصدرة . أكظم مثلى . أسحم أسود

(٣) ولا كظ صدوى يقول إن صدرى لا ينهله الأسرار فيعجز عن كتابها

(٤) التث نشر الحديث الذى يحق كتابته . وظن مرجم غير يقين

(٥) المعتز المعنى الذى يتباب سائلا . المتهمضم المظلوم

ولو وُزِنَتْ رَضْوَى بِحُلْمِ سَرَاتِنَا لِمَالِ بَرْضَى حِلْمُنَا وَيَلْمَسِمْ^(١)
 ونحن إذا ما الحربُ حُلَّ صرارُها وجادت على الحلاب بالموت والدم^(٢)
 ولم يُرَجَ إِلَّا كُلُّ أَرَوْعَ مَا جَدِ شَدِيدِ الْقَوَى ذِي عِزَّةٍ وَتَكْرَمِ
 نَكُونُ زِمَامَ الْقَائِدِينَ إِلَى الْوَعَى إِذَا الْفَشِلُ الرَّعِيدُ لَمْ يَتَقَدِّمْ
 فنحن كذاك الدهرَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا نَعُودَ عَلَى جُهَا لِهَيْمٍ بِالتَّحَلُّمِ
 فلو فَرِهْمُوا أَوْ فَرَّقُوا رُشْدَ أَمْرِهِمْ لَعُدْنَا عَلَيْهِمْ بَعْدَ بُؤْسِي بَأْنَعْمِ
 وإنا إذا ما الْأَفْقُ أَمْسَى كَأَنَّمَا عَلَى حَافَتَيْهِ مُمَسِيَالُونَ عِنْدَمْ^(٣)
 لَنُطْغِمُ فِي الْمَشْتَى وَنَطْعُنُ بِالْقَنَا إِذَا الْحَرْبُ عَادَتْ كَالْحَرِيقِ الْمُضَرَّمِ
 وَتَلْقَى لَدَى أَيَا تَنَا حِينَ نُجْتَدَى مَجَالِسَ فِيهَا كُلُّ كَهْلٍ مُعَمِّمْ
 رَفِيعَ عِمَادِ الْبَيْتِ يَسْتُرُ عِرْضَهُ

مِنَ الذَّيْمِ مَيِّمُونَ الشَّقِيَّةِ خِضْرِمِ^(٤)

ضُرُوبٍ بِأَعْنََازِ الْقِدَاحِ إِذَا شَتَا

سَرِيعَ إِلَى دَاعِي الْهِجَاجِ مُصَمِّمِ

أَشْمَ طَوِيلِ السَّاعِدَيْنِ سَمِيدِ عِ

مُعِيدِ قِرَاعِ الدَّارَعَيْنِ مُكَلِّمِ^(٥)

(١) رضوى ويللم جبلان

(٢) الصرار خيط يشد فوق خلف الناقة لثلا يرضعها ولدها . وكانت العرب تصر ضلوع الحلويات . إذا أرسلوها للرعي فإذا عادت في العشي حلت تلك الأصرة وحلبت : شبه حسان الحرب بالناقة إذا حل صرارها فجلبت درت . ولكنها لاتدر لبنا وإنما تدر موتا ودما

(٣) أراد باحمرار الأفق الجذب والقحط . العندم شجر أحمر يصنع به . يقول لأنهم يجودون في وقت الجذب والقحط

(٤) ميمون النقية مبارك النفس مظفر فيما يحاول . خضرم جواد . رفيع عماد البيت سيد . وبيوت السادة مرتفعة العمد . أما بيوت الفقراء فهي منخفضة قصيرة العمد لاصقة بالأرض

(٥) سميع كريم . مكلم مجرح لأنه يخوض الحرب .

ونسدل الستار عن هذه الأيام ، وندع حسان في هذا الشباب المترقق ،
الذى يفيض لذه وشعرا ، لنستقبله مرة أخرى ، وقد تقدمت به السن ،
ودخل فيما دخل فيه قومه من أمر هذا الدين الجديد . يأتي الإسلام فإذا
حسان شاعر كبير له شهرة ونفوذ ، وهو محتاج إلى لسان قوى ، وصوت
نافذ ، يدفع عنه هذه الهجمات التي تأتيه من كل مكان ، وقد تألبت عليه
الجزيرة ، وأغرّت به محاريبها وشعراءها على السواء . فيتألفه النبي ، ويخصه
بعطفه ، ولا يجد حسان بدا من يكون شاعر قومه في الإسلام كما كان شاعر
في الجاهلية ، فيمضى في هذا التيار الجديد ، مسجلا حروبهم في سبيل نصرة
جارهم . الذى أخذوا على أنفسهم حمايته ، ولكنه يظل جاهليا في صميمه ،
بعيدا عن التأثير الصادق بالإسلام ، فهو إذا رثى النبي ، وجدت رجلا يبكي
ما ضاع من رزقه ورزق عياله .

وما فقد الماضون مثلَ محمد ولا مثله حتى القيامة يُفقد
أعفَّ وأوفى ذمةً بعد ذمةٍ وأقرب منه نائلاً لا يُنكد
وأبذل منه للطريف وتالد إذا ضنَّ معطاء بما كان يُتلد
ويقول في قصيدة أخرى .

نَبِّ الْمَسَاكِينُ أَنَّ الْخَيْرَ فَارَقَهُمْ

مع النبي تَوَلَّى عَنْهُمْ سَحَرًا

من ذا الذى عنده رَحِيلٌ وَرَاحِلَتِي

وَرِزْقُ أَهْلِي إِذَا لَمْ يُؤْنِسُوا الْمَطَرَا

ويقول بعد أن يقف بآثار الرسول في يثرب .

ظَلَّاتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدَتْ

عَيُونٌ وَمِثْلَاهَا مِنَ الْجَفْنِ تُسْعِدُ

تَذَكَّرُ آلاءَ الرسولِ وما أرى
لها مُحْصِيًّا نفسى فنفسى تَبَلَّدُ
مُفْجَعَةً قد كَشَفَهَا فَقَدْ أَحْمَدُ
فَظَلَّتْ لآلاءِ الرسولِ تُعَدُّ
ويقول فى قصيدة رابعة يرثيه :

مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الْأَوَّلَى سَلَفُوا
وَأَبْذَلَ النَّاسَ لِلْمَعْرُوفِ لِلْجَادَى (١)
يا أَفْضَلَ النَّاسِ إِنِّ كُنْتُ فِي نَهَرٍ
أَصْبَحْتُ مِنْهُ كَمِثْلِ الْمُفْرَدِ الصَّادَى
ثم يريد أن يصور حزن نساء النبي ، فلا يجد غير صورة الراهبات
فى مسوحن .

أَمْسَى نَسَاؤُكَ عَطَلْنَ السُّيُوتَ فَا
يَضْرِبْنَ فَوْقَ قَفَاسِئِرٍ بِأَوْتَادٍ
مِثْلَ الرُّوَاهِبِ يَلْبَسْنَ الْمُسُوحَ وَقَدْ
أَيَقَنَّ بِالْبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ الْبَادَى
* * *

قارىء شعر حسان فى هذا الطور من حياته ، يلمس فيه ظاهرتين بارزتين ،
عصبيته اليمينية وفتور عاطفته وتكلفه فيما يمس النواحي الإسلامية .
أما عصبيته فلم يكن حسان ليدعها بحال ، ولم يستطع الإسلام أن ينسبه
إياها . فهو يبنى أولاً ، ثم هو مسلم بعد ذلك . فهو يكثر من الفخر بقومه ،
جامعا بين مجدهم اليمى القديم ، ومجدهم الإسلامى الجديد . فهم ملوك الجاهلية ،
وحماة الإسلام ، لجأ إليهم النبي حين ضاقت به الدنيا ، فعز بجوارهم واشتد .
يقول حين وفد وفد تميم على النبي :

هل المَجْدُ إلا السُّودُّ العَوْدُ والندى
 وجاهُ المـلوكِ واحتمالُ العظامِ (١)
 نَصَرْنَا وآوَيْنَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
 عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاغِمٍ
 بِحَيٍّ حَرِيدٍ أَصْلُهُ وَذِمَارُهُ
 بِجَايَةِ الْجَوْلَانِ وَسُطِّ الْأَعَاجِمِ (٢)
 نَصَرْنَاهُ لِمَا حَلَّ وَسُطَّ رِحَالِنَا
 بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمٍ
 جَعَلْنَا بَنِينَ دُونَهُ وَبَنَاتِنَا
 وَطِبْنَا لَهُ نَفْسًا بِقِيَمِ الْمَغَانِمِ (٣)
 وَنَحْنُ ضَرَبْنَا النَّاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا
 عَلَى دِينِهِ بِالْمُرْهَقَاتِ الصَّوَارِمِ
 ويقول في موضع آخر :

أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ لِمَا تَجَهَّمَتْ
 لَهُ الْأَرْضُ يَرْمِيهِ بِهَا كُلُّ مُوْفِقٍ
 تُطَرِّدُهُ أَفْنَاءُ قَيْسٍ وَخِنْذِفٍ
 كِتَابُ إِنْ لَا تَغْدُ لِلرُّوعِ تَطْطَرِّقُ
 فَكُنْنَا لَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ مَعْقِلًا
 أَشَمَّ مَنِيعًا ذَا شَمَارِيخٍ شَهَقَ

-
- (١) السُّودُّ العود القديم الذي يتكرر مع الزمان
 (٢) حى حريد منفرد معتزل عن جماعة القبيلة لا يخاطبهم في حلهم وترحالهم لا يتوازه بنفسه . جاية
 للجولان موضع بالشام يريد حسان الغساسنة . يقول هزلاء أهلى المقيمون وسط الأعاجم يعنى الروم .
 (٣) يقول قد طبنا له نفسا بالقيء وهو ما يحصل عليه المسلمون من غنائم في غير الحرب . يقول
 أعطينا له ذلك عن طيب نفس لم نكره عليه .

كان حسان يكره المضرية ، ويبغض هذا النفر من المهاجرين ، لا يراهم إلا مستضعفين قد لجئوا إليهم محتمين . فهو ينفس عليهم ما يصيبون من خير ، وما يستمتعون به من عطف النبي ووجهه . وهذا هو رسول الله ، يقسم المغنم يوم الفتح في قريش وفي قبائل العرب من عدنان ، فيكثر اللغظ بين الأنصار ، ويقول قائلهم : لقد والله لقي رسول الله قومه . فيرتفع صوت حسان ، معبراً عن سخطهم ، معددا أيادهم عند النبي ، وقديم صنيعهم في الإسلام .

عَلَامَ تُدْعَى سُلَيْمٌ وَهِيَ نَارِحَةٌ
قُدَّامَ قَوْمِ هُمُ آوَا وَهُمْ نَصَرُوا
سَمَّاهُ اللَّهُ أَنْصَاراً لِنَصْرِهِمْ
دِينَ الْهَدَى وَعَوَّانُ الْحَرْبِ تَسْتَعْرِ
وَسَارَعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْتَرَفُوا
لِلنَّائِبَاتِ وَمَا خَامُوا وَلَا ضَجِرُوا
وَالنَّاسُ إِلْبٌ عَلَيْنَا فَيْكَ لَيْسَ لَنَا
إِلَّا السُّيُوفُ وَأَطْرَافُ الْقَنَا وَزَرٌ (١)
وَلَا يَهْرُ جَنَابَ الْحَرْبِ مَجْلِسُنَا
وَنَحْنُ حِينَ تَاظَلَّى نَارُهَا سَعَرٌ (٢)
وَكَمْ رَدَدْنَا بَيْدٍ دُونَ مَا طَلَبُوا
أَهْلَ النِّفَاقِ وَفِينَا أُتْزِلَ الظُّفَرُ
وَنَحْنُ جُنْدُكَ يَوْمَ النَّعْفِ مِنْ أَحَدٍ
إِذْ حَزَبَتْ بَطْرَأَ أَشْيَاعَهَا مُضَرٌ

(١) الناس إلْب علينا فيك مجتمعون على عداوتنا بسببك . وزر ملجأ . يوم لم يكن لنا ملجأً نلجأُ

إليه إلا سيوفنا ورماحنا

(٢) هر الشيء يهره هرباً كرهه . الجناب الناحية . يقول إننا لانكره الحرب ولا نملها

فَمَا وَنَيْنَا وَمَا خَمْنَا وَمَا خَبَرُوا

مَنَا عَثَارًا وَجَلُّ الْقَوْمِ قَدْ عَشَرُوا

ويجمع النبي هذا الحى من الأنصار ، وقد خشي الفتنة فيلاطفهم مترضيا ، ويعتذر إليهم بأنه إنما تألف من تألف بالشاة والبعير وعرض الدنيا ليسلوا ، ووكلمهم إلى إسلامهم وإلى ثواب الله ، فينصرف القوم راضين ^(١)

ولقد بلغ من جفاء حسان أن يتهم عائشة زوج النبي بصفوان بن المعطل في حديث الإفك ، حتى يكثر في ذلك اللفظ ، ويشك النبي في إخلاصها . ثم ينزل القرآن ببراءتها ، ويُحَدِّثُ حسان فيما جاء به من الإفك ، ويوصف بأنه هو الذى تولى كبره (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم . لكل أمرى منهم ما اكتسب من الإثم . والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم .) .

ويجلس حسان يوما إلى أطميه فارح ، ومن حوله أصحاب له قد مد لهم بساطا ، ويرى كثرة من يقبل على النبي من المهاجرين ، فيهزأ بهم قائلا :

أَمْسَى الْجَلَايِبُ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثَرُوا

وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بِيضَةَ الْبَلَدِ ^(٢)

جَاءَتْ مُزَيْنَةُ مِنْ عَمْقٍ لَتُخْرِجَنِي

أَخْسَى مُزَيْنٌ وَفِي أَعْنَاقِكُمْ قَدَدِي ^(٣)

يَمْشُونَ بِالْقَوْلِ سِرًّا فِي مُهَادَنَةٍ

يَهْدِدُونِي كَأَنِّي لَسْتُ مِنْ أَحَدٍ

(١) السيرة ٤ : ١٤٢

(٢) الجلايب جمع جلباب وهو الأزار كنى بذلك عن الدلة يقصد القرشين . الفرعية أم حسان . بيضة البلد منفردا كالبيضة المتروكة في الصحراء .

(٣) مزينة هم بنو عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر نسبوا لأهم . خسا الكلب طرده فهو خاسى . مبعده صاغر . القدد جمع قد وهو السير من الجلد . شبههم بالكلاب في أعناقهم القدد .

قد تَكَلَّتْ أُمُّهُ مِنْ كُنْتُ وَاجِدَةً
 وَبَاتَ مُنْتَشِباً فِي بُرْثَنِ الْأَسَدِ
 مَا الْبَحْرُ حِينَ تَهْبُ الرِّيحُ شَامِيَةً
 فَيَغْطِلُ وَيَرْمِي الْعَبْرَ بِالزَّبَدِ (١)
 يَوْمَ أِبْغَلَبَ مِنِّي يَوْمَ تُبْصِرُنِي
 أَقْرَى مِنَ الْغَيْظِ فَرَى الْعَارِضِ الْبَرْدِ (٢)
 مَا لِلْقَتِيلِ الَّذِي أَسْمَوْ فَآخُذْهُ
 مِنْ دِيَةِ فِيهِ يُعْطَاهَا وَلَا قَوَدِ (٣)

ويغتم صفوان بن المعطل هذه الفرصة ليشفي منه نفسه ، فينطلق إليه بسيفه ، ويضربه قائلاً :

تَكَلَّى ذُبَابَ السَّيْفِ مِنِّي فَإِنِّي غَلَامٌ إِذَا هُوَ جِيتُ لَسْتُ بِشَاعِرٍ
 وَيَتَعْصَبُ قَوْمُ حَسَّانَ لَهُ ، فَيُثْبِنُونَ عَلَى صَفْوَانَ . ثُمَّ يَرْضَى النَّبِيَّ حَسَّانَ ،
 بِأَنْ يَهَبَ لَهُ سِيرِينَ أُخْتِ مَارِيَةِ الْقَيْطِيَّةِ (وَهِيَ أُمُّ وَلَدِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ) ،
 وَيَقْطَعَهُ حَدِيقَةً بَاعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِلْمَعَاوِيَةِ .

كَانَ النَّبِيُّ يَعْرِفُ مِنْ حَسَّانَ هَذَا التَّعَصُّبَ الْبَغِيضَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَغْضَى
 عَنْهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَرِيدُ أَنْ يَثِيرَ قَوْمَهُ مِنَ الْإِثْصَارِ ، فَيُبْعَثَ فِي الْمَدِينَةِ فِتْنَةً ، تَنْتَهِي
 بِتَفْرِيقِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفِ أَمْرِهِمْ . ثُمَّ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى لِسَانِهِ وَإِلَى شَعْرِ
 صَاحِبِيهِ الْخَزَرَجِيِّينَ ، عَبْدَ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ وَكَعْبَ بْنَ مَالِكٍ . وَهُوَ يَعْرِفُ لِقَوْمِهِ
 بَعْدَ ذَلِكَ فَضْلَهُمْ فِي إِيْوَانِهِ وَنَصْرَتِهِ ، حِينَ نَاصَبَ قَوْمَهُ الْعَدَاءَ .

أَمَّا فَتُورُ عَاطِفَةِ حَسَّانَ وَضَعْفُ شَعْرِهِ الْإِسْلَامِي ، فَشَيْءٌ مَعْرُوفٌ قَدْ لَاحَظَهُ
 الْقَدَمَاءُ مِنْ قَبْلِ . كَانَ الْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ (الشَّعْرُ نَكِدٌ بِأَبَةِ الشَّرِّ . هَذَا حَسَّانُ

(١) يَغْطِلُ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا اِتِّلَاطًا الْأَمْوَاجِ . الْعَبْرُ جَانِبُ الْبَحْرِ أَوْ النَّهْرِ .

(٢) الْعَارِضُ السَّحَابُ . الْبَرْدُ الَّذِي فِيهِ يَرْدُ .

(٣) يَقُولُ لَيْسَ لِلْقَتِيلِ الَّذِي أَقْتَلَهُ دِيَّةٌ أَوْ قَوْدٌ . وَالْقَوْدُ الْقَصَاصُ وَقَتْلُ الْقَاتِلِ بِالْقَتِيلِ .

ابن ثابت ، فَحُلَّ من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره (والواقع أن الحياة الإسلامية لم تحرك من حسان عاطفة ، ولم تس من قلبه وترأ . فهو رجل قد شب وشاب في الجاهلية ، ثم دخل في الإسلام وقد تم تكوينه الخلق والفنى ، واتخذ مزاجه شكلا لا سبيل إلى تحويره أو تعديله . قطع الإسلام ما بينه وبين الشام ، وكان يحبها ويتعلق بها . وحرمه عطاء ملوكه ، وكان وافرأ جزلا . وحال بينه وبين هذه الحياة اللاهية المترفة ، التي لم يزد البعد عنها إلا شوقا إليها .

بين يدينا شعر إسلامي كثير ينسب لحسان ، ربما كان شطر كبير منه قد أضيف إليه وحمل عليه كما يقول ابن سلام . ولكن هذا الشعر في جملة ، لا يصور عاطفه صادقة ، ولا يظهر فيه أثر للحياة الإسلامية الجديدة ، ولا يبدو أن صاحبه قد تأثر بها أدنى تأثر . فقيه كثير من الضرورات التي تصور شعرا مرتجلا أنشئ على عجل ، لم يعن صانعه بإحكامه ، ولم يكلف نفسه عناء مراجعته .

والأمثلة على هذه الضرورات كثيرة . منها وصل همزة القطع في مثل قوله :
وأنت ابن المغيرة عبد شول قد اندب حبيل عاتقك الوطاب (١)
وقوله :

إن الفرافصة بن الأحوص عنده

شجن لأمك من بنات عقاب (٢)

وقوله :

جعلتم فخركم فيه لعبد

من الأم من يظا عفر الثراب

(١) ابن المغيرة هو الوليد بن المغيرة . الشول جمع شائلة والشائلة من الابل مأنى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر لحف لبنها . ويقصد بعبد شول راعي إبل . الوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن أو الزق الذى يكون فيه اللبن يعلقه الراعى في عاتقه . التدوب آثار الجراح .

(٢) عقاب هذا كانت بناته إمء للفرافصة بن الأحوص الكلبي . يقول للحارث بن هشام بن المغيرة إن الفرافصة عنده من خبركم ما يحزن أمك ويخزيها . وعقاب عبد كان بنى تغلب تزوج جد الحارث لأمه إحدى بناته .

ومنها تسهيل الهمزة في مثل قوله :

مَشُومٌ لَعِينٌ كَانَ قَدْماً مُبَعَّضاً تَبَيَّنَ فِيهِ اللُّؤْمُ مَنْ كَانَ يَهْتَدِي
وقوله :

كَفَرْتُمْ بِالْقُرْآنِ وَقَدْ أُتِيتُمْ بتصديق الذي قال النذير
ومنها ترك إشباع الضمير وتسكينه في مثل قوله :

أَبْلَغَ رَبِيعَةً وَابْنَ أُمِّهِ نَوْلاً أَنِي مُصِيبُ الْعَظْمِ إِنْ لَمْ أَصْفَحْ
كان حسان يأخذ معاني القرآن ، فيديرها في رأسه ، ثم يرسلها نظماً فأتراً
بعيداً كل البعد عن أن يكون قد مر بقلبه ، أو امتزج بنفسه . يقول في
يوم أحد .

حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَجَوْا قُلَّ النَّبِيُّ وَمَغْنَمَ الْأَسْلَابِ
وَعَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ رُدُّوا بَغِيظِهِمْ عَلَى الْأَعْقَابِ
بِهُبُوبٍ مُعْصِفَةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ وَجُنُودَ رَبِّكَ سَيِّدِ الْأَرْبَابِ
وَكُنِيَ الْإِلَهُ الْمُؤْمِنِينَ قَتَالَهُمْ وَأَثَابَهُمْ فِي الْأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ

فهو نظم لقوله تعالى (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا شَيْئاً
وَكُنِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) ولكنه نظم سقيم يحشو فيه الألفاظ حشواً .
فقوله (بِأَيْدِهِمْ) في البيت الثاني زائد لا مكان له . وإسناد رب إلى ضمير
المخاطب في البيت الثالث غير حسن ، فهو رَبُّ كُلِّ النَّاسِ . وقوله بعد ذلك
(سَيِّدِ الْأَرْبَابِ) سخيف ، يفهم أن هناك أرباباً آخرين هو سيدهم . وقوله في
البيت الرابع (الْإِلَهُ) بشعر بشيء من التنكير ، لا نجد في لفظ الجلالة (الله) .

والأمثلة على هذا النظم الفاسد لآيات القرآن وألفاظه كثيرة ، لا تكاد
تخلو منها قصيدة من قصائده الإسلامية الطوال . ومع ذلك فقد نظفر بشعر
إسلامي جيد لحسان . ولكننا إذا تفحصنا مثل هذا الشعر ، وجدناه خلواً
من كل إشارة للإسلام أو تأثر بتعاليمه . فهو ينشئه على طريقة الجاهلية ،

حسبجلا مفاخر قومه ، وشدة بطشهم بأعدائهم من قريش . ومن الأمثلة على هذا الشعر القوى ، قصيدة له في يوم أحد ، يبدأها بغزل رقيق ، لا يلبث أن ينتقل منه إلى الفخر بنسبه وقومه ، وما لهم من قديم ، ثم يتناول أعداءهم من قريش ، متشمتاً بما لحقهم من هزيمة على يد قومه . ونحن نسوق هذه القصيدة ، لنرى الفرق البعيد بينها وبين الأبيات السابقة ، التي أنشئت في الموضوع نفسه .

يبدأ حسان بذكر صاحبه ، وما ينتابه من هموم ، إذا أقبل العشاء ، وتغورَّت النجوم ، وامتنع عليه النوم ، من ذكرى حبيب أصاب قلبه بالسقم ، ويعجب من أمره وإياها ، كيف يقتل مثلها مثله وهي واهنة البطش والعظام ! ويمضى في تصوير صاحبه . فهي ناعمة مترفة ، همُّها العطر والفراس ، يزينا حلًى من فضة ولؤلؤ منظوم ، لو دبَّ الذرُّ على جلدها الرقيق لآندبه بالكلوم . يالها من رائعة الحسن ! لم تكن شمس النهار لتفوقها روعة (غَيْرَ أَنَّ الشَّبَابَ لَيْسَ يَدُومُ !) .

ويمضى حسان في الفخر بنفسه وبآبائه . نخاله خطيب جابية الجولان عند النعمان ، وأبوه السيد الشريف الذي ارتضى الأوس والخزرج حكومته يوم التقت في سميحة الخصوم . وهو الصقر عند باب النعمان ، إذ يشفع في إطلاق فلان وفلان من قومه فتُحْطِطُ عنهم الأغلال . فهو أوسط قومه شرفاً ، وأرفعهم مجداً . وكَم من حُلُم أضاعه عدم المال ، وكَم من جهل وخمول غطى عليه النعيم !

وينتقل من ذلك إلى التعريض بأعداء قومه من قريش ، وما ينجى إليه شعراؤهم من هجاء ، فيقول : ما أبالي نيب تيوسهم ، ولا أهتمُّ لثمتهم لؤمائم بظهر الغيب . فهذه أفعالنا تدل علينا ، وفعل الزُّبَيْرِى خامل مذموم . وإنما وكى البأس منهم يوم القتال بنو عبد الدار بن قُصَيٍّ ، إذ يتبادل منهم اللواء تسعةً وسط القنا المسجور ، فيتساقطون واحداً تلو الآخر . ثم توكى

الجمعُ وقد أيدوا ، فكلهم مذممٌ مدحور ، تسيل كأرومهم دماً أحمر . ولقد كان من الحفاظ أن يُقيموا (إنَّ الكَرِيمَ كريم) بلى قد أقاموا ! ولكنهم أزيروا شعوباً ، والقنا في نحورهم محطوم . تلوذ منا قریش لو آذا ، وقد خفَّت منهم الحلوم ، ووهن العزم ، فلم تُطِقْ عواتقُهم حمل اللواء ، وإنما يَحْمِلُ اللواءَ الشُّجُومُ) .

منع النومُ بالعِشاء المُمومُ وخيالٌ إذا تغُور النجومُ
يقول بعد الغزل والفخر :

ما أبالي أنبَّ بالحزن تيسُّ تلك أفعالنا وفعلُ الزَّبْعَرَى
أم لَحَانٍ بَظْهر غَيْبٍ لئيمٌ ولي البأسَ منكم إذ حضرتم
خاملٌ في صديقه مذمومٌ تسعةٌ تحمل اللواءَ وطارت
أسرةٌ من بنى قُصَى صميمٌ لم يُولُوا حتى أيدوا جميعاً
في رَعاعٍ من القنا مخزومٌ (١) بدم عاتِكٍ وكان حِفاظاً
أسرةٌ من بنى قُصَى صميمٌ وأقاموا حتى أزيروا شعوباً
في مقامٍ وكلهم مذمومٌ وقریشٌ تلوذ منا لو آذا
أن يقيموا إنَّ الكريمَ كريمٌ لم يُقيموا وخفَّ منها الحُأُومُ
والقنا في نحورهم محطومٌ (٢) لم تُطِقْ حَمَلَهُ العَوَاتِقُ منهم
إنا يحمل اللواءَ الشُّجُومُ

شعر حسان في هذا الطور الإسلامي قوى ، حين يترك نفسه الجاهلية على سجيته ، فإذا تكلف مبادئ الإسلام ، وحاول أن يتأثر في شعره معاني القرآن ، تلبد طبعه ، وضعف شعره ، وبدا وكأنه يصدر عن آلة صماء ، تحكى ألفاظاً باردة ، ليس فيها حرارة أو حياة

(١) يريد التنويه ببلى عبد الدار بن قصي إذ صبروا يوم أحد ، ويريد التشهير ببلى مخزوم إذ انهزموا . البأس الحرب . صميم خالصة النسب . الرعاع الضعفاء . من القنا أى خوفاً من القنا .
(٢) شعوب اسم للوث وهو يفتح السين .

كانت مكانة حسان الشعرية في هذا الطور تقوم على الهجاء الموجه ، الذى يرمى به أعداء الإسلام . وقد كان هجأؤه موجعا ، لأنه لا يقوم على هذه المثل الإسلامية ، التى يهزأ بها القوم ، ولا يضيرهم أن يعيروا بإنكارهم لها ، وخروجهم عليها .

كان حسان يوجع أعداءه بالهجاء المفحش الذى يلائم جفاء البدو وخشونة طبائعهم ، فيتردد على ألسن الرواة ، ويتندر به الأعراب فى أسماهم ، لما فيه من صور بارعة ، تضحك هذه الأذواق الغليظة ، التى لم ترققها الحضارة ، ولم يهذبها الثقيف والتعليم . وهذا الفحش هو فى حقيقة الأمر لون من الصراحة العارية من اللياقة ، وإمعان فى الواقعية ، يأباه الذوق الحضرى المهذب ، ولكنه يعجب البدوى الفظ ، الذى يتعلق بالفاقع الصارخ من الألوان ، ولا تستخفه النكتة الرقيقة الحفية الدلالة . فهو لا يرى الشاتم قد أبلغ وأوجع ، حتى يخوض فى الآباء والأمهات ، والأعراض والعورات . ولا يرى المتهزىء الساخر قد أجاد وأسمع ، حتى تملأ نكسته الأشداق بالضحك الصاحب .

ولا نرانا قد بلغنا من تصوير حسان ما نريد ، حتى نقدم أمثلة من هذا الشعر الفاحش ، وإن كان الباحثون يفضلون فى مثل هذه الحالات أن يملأوا بهذا الشعر مرورا هينا ، ويشيرون إليه من بعيد ، متحرجين من روايته . والواقع أنه لا يكفى أن يقال إن لحسان شعرا مفحشا . فهذا الفحش لا يمكن أن يعرف نوعه ومقداره ، حتى تقدم منه صور . وهذا الفحش ناحية من حسان ، ولا بد لدارسه أن يعرفه كما هو على حقيقته ، بخبره وشره . ولماذا نتحرج نحن فى الأدب من رواية مثل هذا الشعر ، والفقهاء لا يتحرجون فى مثل هذه الظروف من التفصيل والتطويل ، حين يحتاج إليهما التفسير والتوضيح ؟

من أوضح ما يصور هذا اللون فى هجاء حسان قصيدته فى هند أم معاوية يوم أحد :

أَشْرَتْ لِسْكَاعٍ وَكَانَ عَادَتَهَا لَوْمْ إِذَا أَشْرَتْ مَعَ الْكُفْمَرِ
لَعَنَ الْإِلَهُ وَزَوْجَهَا مَعَهَا هِنْدَ الْهُنُودِ طَوِيلَةَ الْبَطْنِ
أَخْرَجَتْ مُرْقِصَةً إِلَى أَحَدٍ فِي الْقَوْمِ مُعْنَقَةً عَلَى بَكْرٍ (١)
بَكْرٍ ثَمَالٍ لَا حَرَكَ بِهِ لَا عَنُ مُعَاتِبَةٍ وَلَا زَجَرٍ (٢)
وَعَصَاكَ إِسْتُكَ تَتَّقِينَ بِهِ دَقَّ الْعُجَايَةِ عَارِي الْفَهْرِ (٣)
قَرَحَتْ عَجِيزَتُهَا وَمَشْرَجُهَا مِنْ نَصَّهَا نَصًّا عَلَى الْقَهْرَى (٤)
ظَلَّتْ تُدَاوِيهَا زَمِيلَتُهَا بِالمَاءِ تَنْضُحُهُ وَبِالسُّدْرِ
أَقْبَاتِ زَائِرَةً مُبَادِرَةً بِأَيِّكَ وَابْنِكَ يَوْمَ ذِي بَدْرِ (٥)
وَنَسِيتِ فَاحِشَةً أَتَيْتِ بِهَا يَاهِنْدُ وَيَحْكُ سُبَّةَ الدَّهْرِ
فَرَجَعْتَ صَاغِرَةً بِلا تَرَةٍ مِمَّا ظَفِرَتْ بِهِ وَلَا وَثَرٍ
زَعَمَ الْوَلَاءُ أَنَّهَا وَلَدَتْ وَلَدًا صَغِيرًا كَانَ مِنْ عُهْرِ
بَلْ هُوَ يَتَمُّهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، بِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ سَفَاحًا، فَتَدْفِنُ أَوْلَادَهَا
سِرًّا فِي الصَّحْرَاءِ، سَتَرْتُهَا لِلْعَارِ :

لَمَنْ سَوَا قَطُ صَيَانٍ مُنْبَذَةٍ بَاتَتْ تَفْحَصُ فِي بَطْحَاءِ أَجْنَادِ
بَاتَتْ تَمَخَّضُ مَا كَانَتْ قَوًّا بِلَهَا إِلَّا الْوُحُوشَ وَالْإِجْنَةَ الْوَادِي

(١) مرقصة ترقص البعير وذلك حين تسرع في السير . معتقة مسرعة كذلك .

(٢) ثفال بلىء . الزجر حت البعير على السير . يقول إن البكر الذي يحملها كان بطيئا وليس ذلك لأنه لم يزرر ويستحث ولكن لأنها ثقيلة عليه .

(٣) العجاية عصب فيه فصوص كانوا إذا جاعوا دقوه وأكلوه وكانوا يدقونه بين فهرين والفهر الحجر مملا الكف يدق به الجوز وغيره . يقول لها حسان إن استك هو عصاك التي تدفعين بها يدقه خشب الرجل كما يدق الفهر العجاية .

(٤) النص التحرك على الدابة لحثها على السير . العجيزة الدبر . المشرح العصبية بين الدبر والفرج . يقول إن عجيزتها ومشرجها قد تقرحا من كثرة حركتها على البكر لحثه على السير .

(٥) أبوها عتبة بن ربيعة وعمها شيبة بن ربيعة قُتِلَا يَوْمَ بَدْرٍ . وأبناها حنظلة بن أبي سفيان قُتِلَا كَذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَخُوهَا الْوَلِيدُ بْنُ عَتَبَةَ قُتِلَا كَذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ .

فِيهِمْ صَبِيٌّ لَهُ أُمٌّ لَهَا نَسَبٌ فِي ذِرْوَةٍ مِنْ ذُرَى الْأَحْسَابِ أَيَّادٍ
تَقُولُ وَهْنًا وَقَدْ جَدَّ الْمَخَاضُ بِهَا يَا لَيْتَنِي كُنْتُ أُرْعَى الشَّوْلَ لِلْغَادِي
قَدْ غَادَرُوهُ لِحُرِّ الْوَجْهِ مُسْعِفَرًا وَخَالَهَا وَأَبُوهَا سَيِّدُ النَّادِي
وَيَقُولُ فِي هِجَاءِ بَنِي سَهْمٍ ، وَفِي هِجَاءِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ ،
(وَأُمُّهُ النَّابِغَةُ امْرَأَةٌ مِنْ عَنْزَةٍ) .

أَمَّا ابْنُ نَابِغَةَ الْعَبْدُ الْهَجِينُ فَقَدَّ
أُنْحِيَ عَلَيْهِ لِسَانًا صَارِمًا ذَكَرًا
مَا بَالَ أُمِّكَ رَاغَتٌ عِنْدَ ذِي شَرَفٍ
إِلَى جُذَيْمَةٍ لَمَّا عَفَّتَ الْإِثْرَا (١)
ظَلَّتْ ثَلَاثًا وَمِلْحَانٌ مُعَانِقُهَا
عِنْدَ الْحُجُوجِ فَمَا مَلَأَ وَلَا فِتْرَا (٢)
يَا آلَ سَهْمٍ فَإِنِّي قَدْ نَصَحْتُ لَكُمْ
لَا أَبْعَثَنَّ عَلَى الْأَحْيَاءِ مِنْ قُبْرَا
أَمَّا هِشَامٌ فَرَجُلًا قَيْنَةً مَجَنَّتْ
بَاتَتْ تُغَمِّزُ وَسْطَ السَّامِرِ الْكَمْرَا (٣)
لَوْلَا النَّبِيُّ وَقَوْلُ الْحَقِّ مُغْضَبَةٌ
لَمَّا تَرَكَتُ لَكُمْ أَنْتِي وَلَا ذَكَرَا

وَلَسْتُ أَدْرِي أَى شَيْءٍ قَدْ تَرَكَ حَسَانُ إِكْرَامًا لِلنَّبِيِّ ؟ وَمَاذَا كَانَ عَسَاهُ

قَاتِلًا لَوْلَاهُ !

(١) رَاغَتُ مَالَتْ عَنْ الْقَصْدِ . ذُو شَرَفٍ مَوْضِعٌ . جُذَيْمَةُ اسْمُ رَجُلٍ . يَقُولُ لَهُ هَلَا خَبَرْتَنِي خَبِيرَ
أُمِّكَ انْخَرَفْتُ عَنْ الطَّرِيقِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ مَعْفِيَةً آثَارَ أَقْدَامِهَا عَلَى الرِّمَالِ خَشْيَةً أَنْ تَتَّبِعَ .

(٢) مِلْحَانُ عَبْدٌ لِحِرَاةٍ : الْحُجُوجُ جَبَلٌ بِمَكَّةَ .

(٣) الْمَلْحَنُ الَّذِي يَتَرَكَّبُ الْمَقَابِحَ الْخُزْيَةَ وَلَا يَبَالِي بِالْعَدْلِ وَالْقَرِيحِ . الْكَمْرُ جَمْعُ كَمْرَةٍ وَهُوَ رَأْسُ

الذِّكْرِ ، الْغَمَزُ الْعَصْرُ وَالْكَبَسُ بِالْيَدِ .

وقال لسلامة بن رَوْح بن زَنْبَاع الجُذَامِي — وكان يلي عَشُورَ
الروم بالشام .

سَلَامَةُ دُمَيْتٌ فِي لَوْحِ بَابِ هُبَلَتَ أَلَا تُعِزُّ كَمَا تُجِيرُ
تَقْلَدَ أَيْزَ زَنْبَاعٍ وَرَوْحٍ سَلَامَةُ إِنَّهُ بئْسَ الْخَفِيرُ
وَلَا يَنْفَكُ مَا عَاشَ ابْنُ رَوْحٍ جُذَامِي بِذِمَّتِهِ خَتُورُ

ويقول في هجاء بني سُلَيْم بن أَشْجَع :

وَلَوْ شَهِدْتَنِي مِنْ مَعَدٍّ عَصَابَةٌ
سَوَى نَاكَةِ الْمُعْزَى سُلَيْمِ بْنِ أَشْجَعِ
بَنُو عَمِّ دَارِ الذُّلِّ لِرُؤْمَا وَدَقَّةِ
وَأَحْلَامِ تَيْسٍ يَمَسُّ الدَّارَ أَصْفَعِ
ويقول في هجاء بني المغيرة :

هَلَا مَنْعَمَ مِنَ الْمَخْزَاةِ أَمَّكُمْ
عِنْدَ الثَّنِيَّةِ مِنْ عَمْرٍو بْنِ يَحْمُومِ
أَسْلَمْتُمُوهَا فَبَاتَتْ غَيْرَ طَاهِرَةٍ
مَاءُ الرِّجَالِ عَلَى الْفَخْزَيْنِ كَالْمُورِ^(١)

ويقول في هجاء قوم :

ذَهَبَتْ قَرِيشٌ بِالْعَلَاءِ وَأَنْتُمْ
تَمْشُونَ مَشَى الْمَوَسَاتِ الْخُرْعِ
فَذَرُّوا التَّخَاجُؤَ وَامْنَعُوا أَسْتَاهَكُمْ
وَامشُوا بِمَذْرَجَةِ الطَّرِيقِ الْمَهْيَعِ
أَنْتُمْ بَقِيَّةُ قَوْمِ لُوطٍ فَاعْلَمُوا
وَالِ خِنَائِكُمْ يُشَارُ بِأَصْبَعِ

هذا إمعان في الفحش ، لا نجد له مثيلاً في الشعر الجاهلي ، ولا نكاد نعرف له نظيراً إلا في نقائص جرير والفرزدق . ونحن لا نريد أن نمضي في التحليل والاستنتاج ، لأننا لا نعرف كم من هذا الشعر المفحش الكثير تصح نسبته لحسان ، وكَم منه قد أضيف إليه وحمل عليه . ولكننا نلاحظ أن المنسوب له في ديوانه من هذا الشعر كثير ، لا يعد له في الشعر الجاهلي شيء . ومن الحق أننا لا نزال نجد أمثلة من هذه الدعايات النابية ، والنسكت العارية ، في مجالس العامة ، وفي الطبقات التي لم تتل حظاً من الثقافة . ولكن هذا القدر الكبير من الشعر الفاحش ، إن صحّت نسبته لحسان ، فهو يصور إلى جانب جفاء الطبع ناحية نفسية خاصة ، تغلب عليها الشهوة الجنسية ، وتميل بطبيعتها للفحش ، لأنها تجد فيه راحة لاذة . ولقد بلغ من غلظ طبع حسان أن يطلق امرأة تزوجها من أسلم ، ثم يُتْبِعُهَا وقومها بالهجاء . فيعيرها بأنه كان يفعل بها ويفعل .

قدر غِبْ وَاذْعَمُوا عني بأختهم وفي الذُرَى نسي والمجدُّ مرفوعٌ
ويلٌ أم شَعْشَعَاءُ شَيْئاً تَسْتَعِثُّ بِهِ إذا تجَاوَلَهَا النَّعْظُ الْإِفَاقِيُّ (١)
كَأَنَّهُ فِي صَلَاهَا وَهِيَ بَارِكِيَّةٌ ذِرَاعُ آدَمَ مِنْ نَطَاءٍ مَنزُوعٌ (٢)

وهذا الفحش مناف للآداب الإسلامية التي تحرص على الأعراض ، وتمنع من قذفها ، وتعاقب على ذلك بالجلد . ولكن حسان لم يكن حريصاً على الآداب الإسلامية ، فهو يذكر الخمر في مواضع كثيرة من شعره الإسلامي ، منع أن الدين قد حرمها .

يقول في يوم الفتح من قصيدته :

عفت ذات الأصابع فالجِوَاءُ إلى عذراء منزلها خلاء
كَأَنَّ سَمِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يكون مَزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

(١) الإفاقع الذي يتفقع وتسمع له صوتاً من تفقيع الأصابع وهو صوتها إذا فرقت .

(٢) الصلا وسط الظهر من الإنسان .

على أنيابها أو طعم غَضٍّ من التفاح هَصْرَةَ الجناء
 إذا ما الأشرِبات ذُكِرْنَ يوماً فهنَّ لطيبِ الراحِ الفداءُ
 نُؤَلِّيها الملامَةَ إن أَلَمْنَا إذا ما كان مَغْثٌ أو لَحَاءُ
 ونشرها فترَكنا ملوكاً وأسدأ ما يُنهنهنَّنا اللقاءُ
 ويقول في يوم بدر :

تَبَلَّكَتْ فُؤادَكَ في المنامِ خريدةً تسقى الضجيجَ بيارِدٍ بَسَامِ
 كالمسك تخلطه بماءِ سحابةٍ أو عاتقٍ كدمِ الذبيحِ مدامِ
 ويقول من قصيدة يفتخر فيها بمجد قومه في الجاهلية وفي الإسلام :

وفيما اشتهاوا من عصيرِ القِطافِ وعَيْشِ رَخِيٍّ على غيرهم
 نقول إن حسان لم يكن حريصاً على الآداب الإسلامية . ورجل يقول
 في زوجته ما قال بعد أن يطلقها ، ورجل يسئ الظن بزواج النبي ويجهر باتهامه
 لها ، ورجل يحن إلى حياة اللهو العابثة هذا الحنين بعد إسلامه ، خليق أن
 يمارس لذته الفاحشة ، في الباب الوحيد الذي تركه له الإسلام مفتوحاً ،
 وهو الهجاء .

بقيت خاصة من خصائص حسان الفنية في الهجاء ، قد أشرنا إليها في
 حديثنا عن الخطيئة ، وهي براعته في خاق الصور الفنية وإبتكارها . وهذه
 موهبة تتيح للهجائيين بنوع خاص كثيراً من الشهرة والذيع . فهي تصور إلى
 جانب الذكاء بصيرة هبنائية ، وروحاً فكهة ، لا تنظر إلى الأشياء إلا لتسخر
 منها ، وترى فيها شهاً قريباً بألوان مضحكة من الصور .

يقول في هجاء رجل من بني عابد بن عبد الله المخزومي :

فإن تَصَاخُ فَإِنَّكَ عَابِدِيٌّ وَصُلِحُ العابِدِيَّ إلى فَسَادِ
 وإن تَفْسُدْ فما أُلْفَيْتَ إلا بعيداً ما علمتُ من السَّدَادِ
 على ما قام يَشْتَمُنِي لَيْمٌ كخنزيرِ تَمَرْغَ في رمادِ

وقال في هجاء رجل من المنافقين اسمه الضحاك :

أبلغُ أبا الضحاك أن عُرُوقه أعيّت على الإسلام أن تسمّجدا
أُتْحِبُّ يَهْدَانِ الحِجَازَ وديْنهم كَبِدَ الحِمَارِ وَلَا تُحِبُّ مُحَمَّدًا

وقال لسعد بن أبي السرح (واسم أمه مهانة) :

ووالله ما أدرى وإنى لسائل مَهَانَةُ ذَاتِ الخَيْفِ أَلَامُ أم سعد
أعبدُ هَجِينٌ أحمِرُّ اللونِ فاقعٌ مَوْتَرٌ عِلْبَاءِ القفا قطط جعدُ (١)
وقال في هجاء بني عابد :

سألتُ قريشاً كلَّها فثِرَارُها بنى عابد شَاهَ الوجوهُ لعابد
إذا قعدُوا وَاوسطُ النَّدَى تَجَاوَبُوا تَجَاوَبَ عَدَّانُ الرِّيعِ السَّوَادُ (٢)
وما كان صِفِيّ لِيوفى بِذِمَّةٍ قَفَا ثعلبٍ أَعْيَى بِيَعُضِ المَوَارِدِ

وقال يهجو الحارث بن كعب ، رهط النجاشي الشاعر :

حَارِ بنَ كعبٍ أَلَا الأحلامُ تَزْجُرُكمُ
عَنَّا وَأَنْتُمْ مِنَ الجُرُفِ الجَمَاحِ خَيْرٌ (٣)
لَا بَأْسَ بِالْقَوْمِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ عِظَمٍ
جِسْمُ البَغَالِ وَأَحْلَامُ العَصَافِيرِ
ذَرُّوا التَّخَاجِزُ وَاَمْشُوا مَشْيَةَ سُجْحَا
إِنْ الرِّجَالُ ذُو عَصَبٍ وَتَذْكِيرٌ (٤)

(١) الهجين الذى ولد من أمة . والعرب تسمى الهجين أحر اللون تشير إلى أنه غير عربى . العلماء عصب العنق . قتل جعد قصير .

(٢) الندى النادى وهو مجلس القوم للسمر . عدان أصله عتدان جمع عتود وهى الجدى الذى استكرش . السوافد من السفاد وهو نزو الذكر على الأنثى .

(٣) الجوف جمع أجوف . الجماخير جمع جمخزر وهو الواسع الجوف والمراد الضعفاء المستريحون

(٤) التخاجز التباطؤ فى المشى أو التبختر . العصب شدة الحلق . المشية السجح السهلة .

كَانَكُمْ خُشْبُ جُوفِ أَسَافِلِهِ
مُتَقَبِّ فِيهِ أَرْوَاحُ الْأَعَاصِيرِ
أَلَا طَعَانٌ إِلَّا فُرْسَانُ عَادِيَةِ
إِلَّا تَجَشُّؤُكُمْ حَوْلَ التَّنَائِيرِ ! (١)

وقال في هجاء بني سهم بن عمرو بن هصيص :

والله ما في قريشٍ كاتِّها نَفَر
أَكْثَرُ شَيْخًا جَبَابًا فَاحِشًا غَمْرًا
أَذَبُّ أَصْلَعُ سِفْسِيرٍ لَهُ ذَأَبُ
كَالْقِرْدِ يَعْجَمُ وَسَطَ الْمَجْلِسِ الْحُمْرَا
هَذَا مَشَائِمُ مُحْرُومِ ثَوِيهِمْ
إِذَا تَرَوَّحَ مِنْهُمْ زُودُ الْقَمَرَا (٢)

وقال في هجاء بني الحماس :

أَمَا الْحِمَاسُ فَإِنِّي غَيْرُ شَاتِمِهِمْ
لَاهُئِمُّ كِرَامٌ وَلَا عَرِضِي لَهُمْ خَطَرُ
كَأَنَّ رِيحَهُمْ فِي النَّاسِ إِذْ بَرَزُوا
رِيحُ الْكِلَابِ إِذَا مَا بَايَها الْمَطَرُ
أَوْلَادُ حَامٍ فَلَنْ تَلْقَى لَهُمْ شَبَهَا
إِلَّا التَّيُّوسَ عَلَى أَكْتَافِهَا الشُّعَرَا (٣)

(١) التجشؤ تنفس المعدة عند الامتلاء . التناير جمع تنور وهو نوع من الأفران . يقول إنكم لستم أصحاب قتال وهمكم أن تجلسوا إلى مواضع الطامام تتجشئون وأنتم تطيفون حولها .
(٢) يقول إن ضيفهم بيت محروما فاذا رحل لم يزودوه غير القمر أى لم يزودوه شيئا .
(٣) أولاد حام حذى سامى . نفاهم من العرب .

شبهُ الإمامِ فلا دينَ ولا حسبَ
لو قامروا الزَّنجَ عن أحسابهم قُمِروا
تلقى الحماسيَّ لا يمنَعُكَ حُرْمَتُهُ
شبهه النَّبِيطُ إذا استعبدتهم صَبَرُوا

هذه الصور الساخرة المضحكة ، التي لا تخلو من إغشاش ناب في كثير من المواضع ، وهذه الألفاظ المختارة لمثل هذه الصور ، هي التي أكسبت حسان مكانته الخاصة ، وأتاحت له الذبوع العريض ، وجعلته أشد على أعداء الإسلام من وقع النبل ، كما قال النبي . وأكثر ما يكون شعر حسان لاذعا قارصا ، حين يقصر فلا يتجاوز الأبيات ، مثل أبياته في هجاء المغيرة ابن شعبة :

لو أن اللؤمَ يُنسبُ كان عبداً قبيحَ اللون أعورَ من ثقيف
تركتَ الدينَ والإسلامَ جهلاً غداةً لقيتَ صاحبةَ النِّصِفِ
وراجعتَ الصبا وذكرتَ لهواً من الأحشاء والخَصْرِ اللطيف
ومثل أبياته في هجاء أبي سفيان ، في قتل صهره أبي أزيهر الدوسي (قتلته هشام بن الوليد بن المغيرة ^(١) .

غداً أهلُ حِمْيَرَ ذى المَجَازِ بسُحْرَةٍ
وجارُ ابنِ حربٍ بالمُحَصَّبِ ما يَغْدُو ^(٢)

(١) كان أبو أزيهر رجلاً من الأزد . وإنما سُمي الدوسي نسبةً لأخواله . وكان حليفاً لأبي سفيان ابن حرب . ثم زوج بنتاً في قريش . زوج إحداهما لأبي سفيان ، والأخرى نعتبة بن ربيعة ، وزوج الثالثة للوليد بن المغيرة ، ثم أمسكها عنه ، لما بلغه من سوء خلقه ، ولم يرد إليه المهر . فانتهر أبناء الوليد غرة من أبي أزيهر ، فقتلوه في سوق ذى المجاز . فجعل حسان يقول الشعر ليستثير أبا سفيان للاخذ بثأره ، ففتح الحرب بين القرشيين ، وتذهب ريجهم . وكان ذلك عقب وقعه بدر . وقد كادت الحرب تقع بين الفريقين حين سمع يزيد بن أبي سفيان شعر حسان ، فغى لصهر أبيعة ، ولكن أبا سفيان تدارك الأمر فكف الناس ، وقد أدرك ما قصد إليه حسان بشعره .

(٢) ذو المجاز موضع بمى أو عند عرفات ، كان يقام فيه سوق في الجاهلية . وفيه قتل أبو أزيهر الدوسي . حفظناه أى جانباه . السحرة بضم السين والسحر بفتح الحين آخر الليل قبيل الصبح . جار ابن حرب هو أبو أزيهر . لا يغدو لأنه قتل . فهو مقيم في هذا المكان الذى دفن به .

كساك هِشامُ بنُ الوليدِ ثِيابه
فأبُل وأخلفَ مثلها جُدَدًا بَعْدُ (١)

قضى وطراً منه فأصبحَ غادياً
وأصْبَحْتَ رُخْوَاً ما تَحُبُّ ولا تَعْدُو (٢)

فلو أنْ أشيأخا بَبَدْرٍ شهوده
لَبَلَّ مُتَوْنُ الخيلِ مُعْتَبِطٌ وَرَدُ

فما مَنَعَ العنيرُ الضُّرُوطُ ذِمَّارُهُ
وما مَنَعَتْ مَخْزَاةُ والدِها هِنْدُ

ويمتد هذا الطور من حياة حسان عشر سنوات تنتهى بموت النبی ،
فيرثه حسان بشعر كثير ، فيه وفاء ، ولكن فيه حزنا على ما ضاع من
مكاته ومن منزلة الأنصار ، الذين طغت عليهم عصية المضريين بعد الفتح
ولم يعد نفوذهم يستند إلا على ما يدُلُّون به من سابق إيوائهم للنبي :

مَنْ ذا الذی عنده رَحْلٌ وراحتی
ورزقُ أهلی إذا لم یُرْئِسُوا الدَمَطرا

أَمْ من نُعَاتِبُ لا نَخْشَى جَنَادِعه
إذا اللسانُ عَتَا فی القول أو عَثرا

كان الضیاءَ وكان النورَ نَتَبَّهْه
بعدَ الألهِ وكان السمعَ والبصرا

فلیتنا یوم وارَوْه بملحه
وغیْبُوهُ وألقوا فوقه المَسَدرا

(١) یسخر منه . یقول أبل وأخلف ما أكلت ولبت من دبة قتيلك .

(٢) الوطر الأرب والحاجة . أصبح غاديا أى أن قاتل أبي سفيان قد أصبح آمنا بروج ويغدو
غير مكرث . الحجب السرعة . یقصد أن أبا سفيان أصبح لا یستطيع أن یفعل شیئا .

لَمْ يَتْرِكِ اللَّهُ مِنَّا بَعْدَهُ أَحَدًا
وَلَمْ يُعِشْ بَعْدَهُ أَثَى وَلَا ذِكْرًا
ذَلَّتْ رِقَابُ بَنِي النَّجَّارِ كَأَنَّهُمْ
وَكَانَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قَدْ قُدِّرَا

ويظل حسان على عصبيته لليمنية وللا نصار خاصة ، ويظل المهاجرون والمضرية على كرههم له ، ولكنهم يدارونه ويكرمونه ، لسابق منزلته عند الرسول . يمر به عمر وهو ينشد الشعر في المسجد ، فينتهره قائلاً « أَرُغَاءُ كُرْغَاءِ الْبُعِيرِ ؟ » ولكن حسان يمضى في إنشاده ، ويحييه قائلاً : دعنا عنك يا عمر ! فوالله كَتَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَغْنِشُدُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ . وينزوى حسان ، فلا نكاد نسمع عنه شيئاً ، إلا هذا الشعر الذى قاله فى رثاء عثمان ، مظهراً ولاءه لمعاوية ، محملاً عليها تبعه قتله . وتثقل عليه الشيخوخة بعد أن يصاب فى بصره — وربما كان ذلك فى خلافة عمر ، كما تصوره قصة جبلة بن الأيهم — فيعتزل السياسة ، عاكفاً على هذا الماضى الطويل الحافل ، تهيجه الذكرى ، فيحن إلى أيام شبابه متحسراً .

إِنَّ شَرَّخَ الشَّبَابِ وَالشَّعَرَ الْأَسْوَدَ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونًا
مَا التَّصَابِي عَلَى الْمَشْيَبِ وَقَدْ قَلَبْتُ مِنْ ذَاكَ أَظْهَرَ وَأَبْطُونًا؟
إِنْ يَكُنْ نَعْتُ مَنْ رَقَاشَ حَدِيثُ فَبِمَا نَأْكُلُ الْحَدِيثَ سَمِينًا (١)
وَأَنْتَصِينَا نَوَاصِيَ اللَّهِ يَوْمًا وَبَعَثْنَا جُنَاتَنَا يَجْتَنُونَا
فَجَنُونًا جَنَى شَهِيًّا حَلِيًّا وَقَضُوا جَوْعَهُمْ وَمَا يَأْكُلُونَا

(١) رقاش علم على كل امرأة . بما نأكل الحديث أى ربما . يقول إن أكن قد هرمت ، ولم يعد لحديث النساء فى نفسى حلاوة ، فلقد نعمت بهن فى شبابه ، وكنت أرى حديثهن حلوا طيباً .

وَأَمِينَ حَدَّثَتْهُ سِرِّ نَفْسِي فَرَعَاهُ حَنَمَظَ الْأَمِينَ الْأَمِينَا
مُخْمَرٌ سِرَّهُ إِذَا مَا التَّقِينَا ثَلَجَتْ نَفْسُهُ بَأْنَ لَا أَخُونَا

ويتذكر الشام وملك بني غسان إبان ازدهاره ، وقد أوحشت منهم
الديار مجيلا خياله في مغانيهم التي كان يرتادها في شبابه وفي أيام لهُوه ، يتبعها
متنقلا من مكان إلى مكان ، بمجلا هذه الذكريات الحلوة في ترديد مواضعها ،
تاركا لأسماء الأماكن وحدها أن تثير في نفسه ما تثير من صور وأحلام .

لَمَنِ الدَّارُ أَوْحَشَتْ بِمَعَانٍ بَيْنَ أَعْلَى الْيَرْمُوكِ فَالْخَمَّانِ
فَالْقُرَيَّاتِ مِنْ بِلَاسِ فَدَارٍ يَافِسَكَاءَ فَالْقُصُورِ الدَّوَانِ
فَقَفَا جَاسِمٌ فَأَوْدِيَةِ الصُّفْرِ مَغْنَى قَبَائِلٍ وَهَجَانِ
تِلْكَ دَارُ الْعَزِيزِ بَعْدَ أَنْيَسٍ وَحُلُولِ عَظِيمَةِ الْأَرْكَانِ

ولا يزال يرفع الأستارَ عن هذا الماضي البعيد ، حتى يتخيل عيد الفصح
وقد دنا ، ففضى الولا ئد الحسان يتهيأ ن لا ستقباله بنظم أكاليل المرجان ،
وسحنَ بين الجنان ، في قصان رقيقة من السكتان ، وقد شدن إلى خصورهن
مآزر رقيقة بيضاء ، يجمعن فيها زهور الزعفران . ثم يعود إلى نفسه فيقول :
أين هذه الجوارى الحسان ، من اللاتي يحتنن صمغ المغافر وينقطن
الحنظل ؟

ذَاكَ مَغْنَى مِنْ آلِ جَفْنَةٍ فِي الدَّهْرِ وَحَقٌّ تَحَاقُبُ الْأَزْمَانِ
قَدْ أَرَانِي هُنَاكَ حَقٌّ مَكِينٌ عِنْدَ ذِي التَّاجِ مَجْلِسِي وَمَكَانِي
وَمَنْ أَجْمَلَ مَا قَالَ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْآخِرَةِ عَلَى ذِكْرِ أَيَّامِهِمْ قَصِيدَتُهُ :
أَسْأَلَتْ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ بَيْنَ الْجَوَاكِي فَا لْبُضَيْعِ فَخْرَ مَلِ
يجول بخياله في مغانيهم ، مرددا أسماء الأماكن التي كان له فيها ذكريات ،
ويختتم ذلك بقوله :

داراً لقومٍ قد أراهم مَرَّةً فوقَ الأَعَزَّةِ عِزُّهُمْ لَمْ يَنْقِلِ
ويثور في نفسه الحنين المُلِحُّ إلى هذه الأيام ، وإلى هؤلاء الصحاب
والندمان ، في ذاك الزمان البعيد ، فيقول :

لله دَرٌّ عَصَابَةٍ نادَمْتُهُمْ يوماً بِجِلَاقٍ في الزمان الأولِ
يَمْشُونَ فِي الحُلُلِ المَضَاعِفِ تَسْجُهَا مَشَى الجِمالِ إلى الجِمالِ البُزْلِ
الضاربون الكَبَشَ يَبْرُقُ يَبْضُهُ ضَرْباً يَطِيحُ لَهُ بَنَانِ المَفْضِلِ
أولادُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أبيهم قَبْرِ ابنِ مَارِيَةِ الكَرِيمِ المَفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حَتَّى ما تَهَرُّ كَلَامُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ المَقْبِلِ
يَسْقَوْنَ مِنْ وَرْدِ (البَرِّصِ) عَلَيْهِمْ بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّاسِلِ

تثير هذه الذكريات في نفسه الضيق الشديد بمقامه فيقول : أين هذا
العيش الحلو الرقيق ، من عيش هؤلاء الأعراب الحشن الضنين ، وأين
نساؤهن الجميلات من ولائد الأعراب اللاتي ينقفن الحنظل ؟ يالها من أيام
حسان مَرَّتْ وكأن لم تكن !...

يُسْقَوْنَ دِرْيَاقَ الرِّحِيقِ ولم تكن تُدْعَى ولأندهم لَنَقْفِ الحنظلِ
فَلَبِثْتُ أَزْمَاناً طَوَالاً فِيهِمْ ثُمَّ ادَّكَّرْتُ كَأَنِّي لَمْ أَفْعَلِ
نعم . مرت سراعا كالْحَلْمِ ، ولم يعد إليها من سبيل ، فقد تغير الشباب
والشعر ! ولا يمكنه يستطيع في شيخوخته وضعفه وعيشه الراكد أن يحلم بها ،
ويستعيد بعض صورها ...

إِذَا تَرَى رَأْسِي تَغَيَّرَ لَوْنُهُ شَمِطاً فَأَصْبَحَ كَالثِّغَامِ المُحْجُولِ
فَلَقَدْ يَرَانِي مَوْعِدِي كَأَنِّي فِي قَصْرِ دَوْمَةٍ أَوْ سِوَاهِ الهَبْكِ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ الخمرَ فِي حَانُوتِهَا صُهَبَاءَ صَافِيَةً كَطِمِ الفُلْفُلِ
يَسْعَى عَلَيَّ بِكَأْسِهَا مُتَنَطِّفٌ فَيَعْلُنِي مِنْهَا وَإِنْ لَمْ أَنْهَلِ

إِنِ اتَى نَاولَتَنِ فَقَتَلَتَهَا قَتَلْتَ قَتَلْتَ - فَهَاتِمَا لِمَ تَقْتُل
 كِلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِيرِ فَعَاطَنِ بِزَجَاجَةٍ أَرْخَاهُمَا لِلْفِصْلِ
 بِزَجَاجَةٍ رَقَصَتْ بِمَا فِي قَعْرِهَا رَقَصَ الْقَلْبُ صِ بَرَاكِبٍ مُسْتَعِجِلٍ
 وَيَصِلُهُ عَطَاءُ جَبَلَةِ بْنِ الْأَيْهَمِ فِي خِلَافَةِ عَمْرِ وَقَدْ فَرَّ إِلَى الرُّومِ مَرْتَدًا إِلَى
 النَّصْرَانِيَةِ فَيَقُولُ فِي ذَلِكَ أَيَّامًا يُلُومُهُ عَلَيْهَا بَعْضُ الْحَاضِرِينَ مِنْ مَزِينَةِ قَائِلَا
 — أَتَذْكُرُ قَوْمًا كَانُوا مَلُوكًا فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ وَأَفْنَاهُمْ؟ فَيَجِيبُهُ حَسَانُ (أَمَّا وَاللَّهِ
 لَوْلَا سَوَابِقُ قَوْمِكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَطَوَّقَتْكَ طُوقُ الْحِمَامَةِ)
 ثُمَّ يَقْبِلُ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ جَبَلَةَ بِهَدِيَّتِهِ فَيَقُولُ — مَاذَا قَالَ لَكَ
 جَبَلَةُ؟ فَيَقُولُ — قَالَ لِي إِنَّ وَجْدَتَهُ حَيًّا فَادْفَعِهَا إِلَيْهِ، وَإِنْ وَجْدَتَهُ مَيِّتًا فَاطْرَحِ
 الثِّيَابَ عَلَى قَبْرِهِ، وَابْتَغِ بِهِذِهِ الدَّنَانِيرَ بَدَنًا فَانْحِرْهَا عَلَى قَبْرِهِ. فَيَقُولُ حَسَانُ
 فِي أَسَى ظَاهِرٍ وَحُزْنٍ عَمِيقٍ. لَيْتَكَ وَجَدْتَنِي مَيِّتًا فَفَعَلْتَ ذَلِكَ بِي! وَيُظَلُّ
 حَسَانُ فِي عَزَلَتِهِ حَتَّى تَوَافِيَهُ مَنِيتُهُ فِي أَوَائِلِ مَلِكٍ مُعَاوِيَةٍ.

(انتهى القسم الأول في عصر الجاهلية)

المراجع

نصوص :

- القرآن الكريم
ديوان زهير طبع دار الكتب
» امرىء القيس السندوني مصر
» النابغة الذبياني مصر ١٩١١ م
» حسان بن ثابت مصر ١٣٤٧ هـ ، ط . أوروبا
» الخطيئة الشنقيطى مطبعة التقدم
» الشماخ بن ضرار الشنقيطى ١٣٢٧ هـ
» عبيد بن الأبرص أوروبا *
» عامر بن الطفيل »
» علقمة الفحل »
» الأعشى »
» طرفة بن العبد »
العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهلين »
المعلقات السبع للزوزنى مصر ١٣٥٢ هـ
المعلقات العشر للتبريزى مصر ١٣٥٢ هـ
مختارات ابن السجرى مصر ١٣٤٤ هـ
ديوان الحماسة مصر
شرح ديوان الحماسة للتبريزى مصطفى محمد . مصر

- المفضليات . . . طبع هارون مصر ١٣٦١ هـ
 جمهرة أشعار العرب . . . » مصر ١٣٤٥ هـ
 شعراء النصرانية . . . » اليسوعيين بيروت

نقد :

- العمدة لابن رشيق . . . طبع مصطفى محمد مصر
 الموازنة للأمدى . . . » صبيح مصر
 ديوان المعاني للعسكري . . . » مصر ١٣٥٢ هـ
 الصناعتين للعسكري . . . » الأستانه ١٣١٩ هـ
 الوساطة للجرجاوى . . . » مصر ١٣٦٤ هـ
 الموشح للمرزبانى . . . » مصر ١٣٤٣ هـ
 نقد الشعر لقدامة . . . » مصر ١٩٣٤ م
 نقد النثر لقدامة . . . » الجامعة المصرية

أدب :

- نهاية الأرب للنويرى . . . طبع دار الكتب
 العقد الفريد لابن عبد ربه . . . » مصر ١٩٤٠ م
 البيان والتبيين للجاحظ . . . » السندوبى ١٩٢٦ م
 الكامل للمبرد . . . » مصر ١٣٥٥ هـ
 الامالى للقالى . . . » دار الكتب

تراجم وطبقات :

- الأغانى للأصبهانى { طبع دار الكتب فى الأجزاء العشرة الأولى ،
 وطبع بولاق فيما يلها }

- وفيات الأعيان لابن خلكان . طبع بولاق ، طبع مصر (فريد رفاعي)
 الشعر والشعراء لابن قتيبة . » مصر (السقا) ١٩٣٢ م
 طبقات الشعراء لابن سلام . » مصر (السعادة)
 خزانة الادب للبغدادى . » مصر (الحلبى) ١٩٣٠ م
 الفهرست لابن النديم . » مصر ١٣٤٨ هـ
 معجم الشعراء للمرزبانى . » مصر (القدسى) ١٣٥٤ هـ
 المؤلف والمؤلف للآمدى . » » »
 الطبقات الكبرى لابن سعد . » أوروبا

تاريخ :

- سيرة ابن هشام . . . طبع مصر (الحلبى) ١٩٣٦ م
 تاريخ الطبرى . . . » مصر ١٩٣٩ م
 تاريخ ابن الاثير . . . » مصر (المنيرية) ١٣٤٨ هـ
 مروج الذهب للسعوى . . » ١٣٤٦ هـ
 إمتاع الأسماع للمقرئى . . » مصر (لجنة التأليف) ١٩٤١ م
 معجم البلدان لياقوت . . » مصر
 نسب عدنان وقحطان للمبرد . . » مصر (لجنة التأليف) ١٩٣٦ م
 الإنباه على قبائل الرواه لابن عبد البر . » مصر (السعادة) ١٣٥٠ هـ
 شرح نقائص جرير الفرزدق . » أوروبا
 مقدمة ابن خلدون . . » مصر ١٩٣٠ م
 النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم للمقبرى . » مصر

معاجم :

- لسان العرب . لابن منظور
 القاموس المحيط . . . للفيروزبادى

- أساس البلاغة للزحشرى
مجمع الأمثال للميداني
شرح القاموس للزبيدي
المعرب للجواليقي
دائرة المعارف الإسلامية
دائرة المعارف الإنجليزية
دائرة المعارف الفرنسية

كتب حديثة :

- بلوغ الارب للألوسي طبع مصر ١٩٢٤ م
تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان مصر (الهلال) ١٩٢٤ م
تاريخ التمدن الإسلامي مصر (الهلال) ١٩٢٦ م
تاريخ آداب العرب للرافعي مصر ١٣٥٩ هـ
النصرانية وآدابها لشيخو بيروت (اليسوعيين)
الروائع للبستاني بيروت (اليسوعيين)

- The writers of Rome
A litterary history of Rome } J. W. Duff.
Roman Satire
The writers of Greece Norwood.
Some principles of litterary Criticism Wenchester.
Juvinal and Persius G.G. Ramsay.
Pope's Poetical works London 1908
Manual of English litterature Arnold.

فهرس

ماهو الهجاء

(ص ١ - ٢٦)

استعراض الذين تصدوا لتقسيم الشعر العربي : أبو تمام ، قدامة ، أبو هلال ابن رشيق . (٣) نقد هذه التقاسيم : خلط أبي تمام ، تأثر قدامة بالمنطق والأخلاق تأثر الذين جاءوا بعد قدامة بتقسيمه . (١١) العاطفة هي العنصر الأساسي في الشعر وعليها يجب أن يقوم التقسيم . (١٢) تعريفنا للهجاء : أدب غنائى يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء . (١٣) آراء قديمة تؤيد مذهبنا في الهجاء : الجاحظ ، ابن عبد ربه ، أبو هلال ، النويرى . (١٤) الهجاء لغة واحتمال السكبة من الناحية اللغوية لإدخال الشعر الأخلاقى والاجتماعى فيها . (١٦) الفرق بين الشعر الهجائى والشعر التهذيبى . (١٩) أقسام الهجاء : الشخصى ، الأخلاقى ، السياسى .

الخصائص الفنية للشعر الهجائى

(ص ٢٧ - ٤٥)

(٢٧) خصائص الشاعر الهجاء وصفاته : الهجاء ساخط موتور ، الهجاء نتيجة عقدة نفسية ، أمثلة من حياة الهجائين فى الأدب العربى واللاتينى والإنجليزى . (٢٩) ميزات الشاعر الهجاء : دقة الملاحظة ، الأسلوب اللاذع ، الذكاء والفطنة ، الاعتماد على التلميح ، الدعابة الساخرة ، المهارة فى التماس وجوه الشبه بين موضوع هجائه وبين أقبح الصور . (٣٢) الهجاء فن واقعى : التعمق فى الخيال والإسراف فى الصناعة مفسد له ، الواقعية فى الهجاء تستند إلى دقة الملاحظة (٣٩) مثل الهجاء مستمدة من تقاليد العصر ، استناده إلى قيم العصر يعرضه لأن يفقد قيمته بتغير الزمن . (٤٠) روح الدعابة فى الهجاء : التلميح ، الربط بين الصور . (٤٥) خصائص الهجاء تباعد بينه وبين الشعر وتجعله أقرب للنثر .

الهجاء والسحر

(ص ٤٦ — ٦٠)

(٤٦) الأطوار التي مر بها الكلام حتى استوى شعرا : مدلول الشعر عند الجاهليين يختلف عن مدلوله عندنا اليوم ، القرآن والأمثال وبعض الخطب والأسجاع كان في عرفهم شعرا ، لم يكن الشعر مستقيم الأوزان في كل الأحيان ولكن الرواة أصلحوا كثيرا منه ، غلبة الطويل والبسيط على أشعارهم ومشابهة هذين البحرين لوزن الـ hexameter عند اليونان واللاتين . (٥٢) الشعراء يعالجون صناعتهم ليلا ، التباس أمرهم بالسحرة والكهنة ، تصوير القرآن لخلط العرب بين الشعر والسحر والقرآن . (٥٧) فن الهجاء أقرب الفنون الشعرية للارتباط بالسحر : شياطين الشعراء ، وجه الشبه بين الهجاء والسحر ، زى الشاعر في الهجاء ، خوف العرب من الهجاء .

الشاعر والقبيلة

(ص ٦١ — ٦٥)

(٦١) الشعراء يكونون جزء مهما من النظام القبلي : الشعراء يتزعمون قبائلهم في بعض الأحيان ، أمثلة للشعراء الذين سادوا في قبائلهم ، الشعر لا يضع من قدر الأشراف ولكنه يعزز مكان صاحبه من قبيلته ، اعتماد القبائل على شعرائها في الحروب والخصومات . (٦٤) غلبة الحماسة على الشعر الجاهلي ، الشعر الجاهلي مزاج من الحماسة والغضب يصور المثل العليا للحياة إيجابا وسلبا . (٦٥) ضعف شخصية الفرد ، الشاعر مؤرخ وقصاص ، اعتماد الشعر على العصبية وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية .

القيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب في الجاهلية

(ص ٦٦ — ٨٣)

(٦٦) القوة هي المثل الأعلى الوحيد الذي آمنوا به وحرصوا عليه ، صور من القوة في شعرهم وحياتهم : زهير ، طرفة ، سعد بن ناشب ، بجمع بن هلال

القطامي ، جرير ، قريط بن أنيف ، عبد الملك وجعيل بن علقمة التغلبي ، تميم ابن أبي بن مقبل والنجاشي . (٦٩) المغتصب بطل مادام يسعى جهرة ولا يدب متسترا ، لا يستغيث بالسلطان إلا العاجز . (٧٠) الصعاليك والمثل العربية : عروة ، تأبط شرا ، أبو النشاش . (٧٢) المكان الأول للفارس المقاتل وللسوقة حياة الصناعة والزراعة . (٧٣) أعز شيء على العربي فرسه وسلاحه . (٧٤) العرب يحبون كثرة النسل ويعتزون به ، كره العرب للسمن في الرجال وجههم له في النساء . (٧٦) العربي إذا أراد أن ينجب من زوجته أغضبها . (٧٧) الصبر والتجلد للمكاره والخطوب . (٧٨) الحب عندهم ضرب من الفخر بامتلاك اللذة والشباب . (٨٠) موازنة بين شعر الخمر والغزل الجاهلي وشعر الخمر والغزل في العصر العباسي ، السكر مظهر للسيادة والاستعلاء والثقة بالنفس . (٨٢) قوة البيان نظير قوة السيف ، كل ما يهجي به العربي يرجع إلى الضعف والخور . (٨٢) حياة الجاهلية صريحة واضحة تعترف بالقانون الطبيعي الأزلي « البقاء للأصلح »

أقدم صور الهجاء

(ص ٨٤ — ٩٤)

(٨٤) المنافرات هي أقدم صور هذا الفن ، المنافسة لغة . (٨٥) وصف المنافسة . (٨٦) عكاظ ، أسلوب المنافسة وقيمتها الأدبية : خليط من الشعر والنثر ، الارتجال غالب عليها ، تصويرها لقيم العصر الأخلاقية والاجتماعية . (٨٧) الأحكام . (٨٨) المنافسة بين رجلين من قبيلة واحدة ، عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة . (٩٣) المنافسة بين رجلين من قبيلتين كل يمثل قبيلته ، جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرتاة السكلي .

الهجاء الشخصي

(ص ٩٥ — ١٠١)

(٩٥) الهجاء فن واقعي والهجاء الشخصي أحط درجات هذه الواقعية ، المشاركة في الشعور بين القارئ والشاعر ضعيفة . (٩٦) المعاني في الهجاء

الشخصى محدودة تتكرر عند كل شاعر ، المزد بن ضرار الذبياني . (٩٧)
ولكنه لا يخلو في بعض الأحيان من شعر جيد ، ذو الإصبع العدواني . (٩٨)
افتراء الكذب في الهجاء الشخصى . (٩٩) الهجاء الشخصى يوجه للقبيلة كلها
في بعض الأحيان ، تلخيص قصيدة للأعشى .

الخطيئة

(ص ١٠٢ — ١١٣)

(١٠٢) نشأته الأولى وأثرها في مزاجه . (١٠٣) انصرافه إلى الشعر .
ارتزاقه بالمدح وبالهجاء . (١٠٤) عمر والخطيئة . (١٠٥) إشفاق القبائل
والأشراف من هجائه : الخطيئة وخالد بن سعيد بن العاص ، الخطيئة وحسان .
(١٠٦) الخطيئة أعرابي جافى الطبع : فساد دينه ، نفاقه ، موقفه في الردة ،
ضيقه بعمر ، دفاعه عن الوليد بن عقبة حين حد في الخمر . (١٠٩) اعتماده في
هجائه على التفضيل والمقارنة ، دخوله بين بغض بن شماس والزبرقان بن بدر .
(١١١) براعته في خلق الصور وابتكارها ، توفقه لاختيار ألفاظه الهجائية .

الهجاء السياسى

(ص ١١٤ — ١١٣)

(١١٤) ما هو الوطن عند الجاهليين : جماعة من الناس تربطهم أواصر
النسب ، مفهوم العصبية يضيق ويتسع حسب الظروف . (١١٥) هجاء يصور
النزاع بين القبائل : اختلاط الغضب بالحماسة ، عبد الله بن عنمة الضبي .
(١١٧) الاعتماد على التاريخ والأنساب : أبوبكر ودغفل ، الحارث بن حلزة .
(١٢٤) هجاء يصور النزاع بين القبائل والملوك : جابر بن حنى التغلبي ، يزيد
ابن الحذاق الشنى ، المبتلس ، طريقة ، الحارث بن ظالم الذبياني .

الأعشى

(ص ١٣٤ — ١٦٢)

(١٣٤) تصوير القدماء للأعشى . (١٣٥) نشأته وتلذه على خاله المسيب بن علس . (١٣٦) الأعشى من فتيان الجاهلية : الأعشى صاحب لذة ، حرصه على اللذة جعله في حاجة دائمة للبال ، رحلته إلى الأشراف وإخافه في السؤال . (١٣٩) ولكنه مع هذا ظل شاعر القبيلة المخلص لمصالحها ، موازنة بينه وبين الخطيئة . (١٤٠) يوم ذى قار . (١٤٢) جولاته السياسية في الخصومة بين فروع بكر وقبائلها ، الأعشى ويزيد بن مسهر الشيباني ، بين الأعشى وبين بعض بطون قومه « بنو عبدان » ، ترفقه في الهجاء وتراوحه بين الغضب والحنين والإباء والوفاء . (١٥١) نصوص من شعره .

الهجاء الدينى

(ص ١٦٣ — ١٩٥)

(١٦٣) للإسلام إلى جانب صفته الدينية صفة سياسية : خطط الرسول السياسية ، رحلته عن مكة ، توحيد صفوف حزبه ، نشاطه السياسى ، التخلّص من اليهود ، بدء سياسته الخارجية ، مكة أول أهدافه ، ما فى صلح الحديبية من كسب سياسى ، لا يشغل نفسه بالحرب مع عدوين فى وقت واحد ، اصطناع الأحزاب السياسية واختيار دعائها من الشعراء ، النهى عن رواية الشعر القديم بعد الفتح ، لا ثبات للإسلام مع قيام دولتى الفرس والروم على أطراف الجزيرة العربية ، توحيد الديانة فى الجزيرة ، توحيد المسلمين فى الدين وفى القوانين المدنية ، التدرج فى التشريع ، الاعتماد على التقاليد القديمة وتهذيبها وتوجيهها . (١٦٥) الإسلام دين واقعى يقرر أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة : الإسلام يطلب من المسلم أن يكون قويا مستعداً للقتال ، تكفيره من دعى للجهاد فقعد عنه ، الإسلام يحث على الرحمة

والإحسان ولكنه يطلب من المسلم أن يكون قادراً على الرحمة والإحسان فالفعل لا يكون إلا من القوى القادر على الانتقام. (١٦٧) العرب في معظمهم لم يسلخوا عن إيمان واقتناع : كانوا يفهمون النبوة على أنها نوع من الملك ، لم يفرقوا بين الزكاة والإتاوة ، إسلام ثقيف ، وفد بنى عامر ووفد تميم ، الشعراء يمدحون النبي بما تمدح به الملوك والسادة ، العصبية الجاهلية لم تفتر في حياة النبي . (١٧٤) الإسلام قد أثار حركة فكرية قوية لا عهد للعرب بمثلها : تنظيم الدعاية للإسلام ، النبي يشرف بنفسه على الشعراء ويقوم شعرهم ، نهيه عن الاستماع إلى الكفار وإبطال رواية الشعر الذي يهاجم المسلمين ، إهدار دم بعض الهجائيين ممن يهاجمون الدعوة . (١٧٧) أثر العناية بالدعاية للدين في نمو فن الهجاء وعنفه ، الهجاء الديني ظل جاهلياً في صميمه . (١٧٨) القرآن وهجاء أعداء الدعوة : الهجاء في القرآن يقوم على قيم أخلاقية واجتماعية جديدة ، هجاء أبي بن أبي سلول وصحبه من المنافقين ، هجاء المنافقين من الأوس والخزرج ، هجاء أهل النفاق في يوم الخندق ، هجاء اليهود في إعراضهم عن النبي وأنحرافهم عن دينهم ، هجاء يهود بني قينقاع وعبدالله بن أبي في حمايته لهم حين هاجمهم الرسول . (١٨٩) أسلوب القرآن في الهجاء : مناقشة حجج الكفار بالدليل العقلي وبالمنطق ، الاعتماد على التاريخ في تصوير ضلالة المعارضين ومكابرتهم ، تصوير حال المعارضين بالتمثيل وبالصور الهجائية الساخرة ، كشف الستار عن دسائس الكفار ومؤامراتهم ، التهديد والوعيد ، الهجاء القرآني يوافق من بعض النواحي ما عرف الجاهليون من هجاء سياسي ولكنه يخالفه فيما يستند إليه من قيم أخلاقية واجتماعية .

حسان

(ص ١٩٦ — ٢٢٠)

(١٩٦) نشأته : النزاع بين الأوس والخزرج ، اشتراكه في هذا النزاع بشعره (١٩٧) رحلته إلى الغساسنة ، فتمنته بالشام . امتداد هذا القسم من

حياته إلى دخوله في الإسلام ، شعره في هذا القسم قطعة من هذه الجناس بعيد عن الصحراء ، ثلوج وكروم وأنهار ، بجالس اللهو والخمر ، إخلاصه في مدح الغساسنة ، قوة غفره ، الجمع بين شخصيتي شاعر البلاط وشاعر القبيلة . (٢٠٧) دخوله في الإسلام وقد تقدمت به السيرة اتباعا لقبيلته : حسان شاعر قومه في الإسلام كما كان شاعرهم في الجاهلية ، النبي يتألف حسان بالمال والعطاء . (٢٠٨) فتور عاطفته الإسلامية في شعر الطور الثاني وقوة عصيته اليمنية . (٢١٠) حسان يمثل الساخطين من الأنصار يوم الفتح ، حسان وحديث الإفك ، كراهية حسان للهاجرين تعصبا لقومه . (٢١٣) كثرة الضرورات الشعرية وشيوع الركافة في شعره الإسلامي . (٢١٥) قوة شعره حين يترك نفسه على سجيته الجاهلية وضعفه حين يتكلف نظم معاني القرآن (٢١٧) مكانته في هذا الطور تقوم على هجائه الموجه ، لإخاشه في هجائه ، الفحش مظهر البداوة وجفاء الطبع . (٢٢١) مجافاته لتعاليم الإسلام بهذا الإخاش ، عدم حرصه على تعاليم الإسلام ، ذكر الخمر في شعره بعد إسلامه . (٢٢٢) براعته في خلق الصور الهجائية وابتكارها . (٢٢٥) أكثر ما يكون هجاؤه لاذعا حين يكون قصيرا . (٢٢٦) ينتهي هذا الطور الثاني من حياة حسان بعد عشر سنوات بوفاة النبي . (٢٢٧) إقامته على عصيته اليمنية ، اعتزاله السياسة ، حنينه إلى عصر شبابه في الشام . (٢٣٠) وفاته

تصويب للأخطاء المهمة

سأصحح فيما يلي الأخطاء التي قد يترتب على تركها خطأ في الفهم أو غموض ، وأترك غيرها مما يستطيع القارئ أن يهتدى للصواب فيه بغير دليل .
وسأثبت الصواب الذي ينبغي أن يقرأ بدل الخطأ المكتوب ، مشيراً إلى الصحيفة (ص) والسطر (س) .

ص	س	ص	س
٣	٢	١٥٢	٢
٣١	٥	١٥٥	٧
٣٩	١٢	١٥٧	١
٤٤	٢	١٥٩	١٣
٤٤	٢٠	١٦٠	٣
٥٣	٢١	١٦١	١
٦٧	١٠	١٦٢	٢
٨١	١٤	١٦٢	٦
٩٤	١٧	١٦٥	١٧
١١١	١	١٦٥	١٢
١١٦	٦	١٨٨	١١
١٢٢	١	١٩٩	٨

خَفِيْدًا

حَلَّتْ

يُقَرَّبُ

الأقواما

النضيج

لَيْثَاء

قِيلُهَا

وَمُحَوَّلُهَا

دفع الله الناس بعضهم

ما اقْتَتَلُوا

اتَّخَذُوا

مُشْرِى

الاستنجاز

تستعجل

ولا يَرِدُونَ

خَرَّتْ

خَصِيْ بَرَاذِينِ

فَكَلَيْمَاتِنَا

بِيَارِحِ

سَبْرَة

لى

ركنه

وهم من مالِك الضبي

غذمه